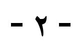
هكذا تكلم زرادشت

كتاب كتب للجميع، ولم يكتب لأحد



هكذا تكلم زرادشت

كتاب كتب للجميع، ولم يكتب لأحد

ترجمة

ريما ماجد علاء الدين

هكذا تكلم زرادشت

ترجمة: ريما ماجد علاء الدين

الطبعة الأولى: ٢٠٠٦.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: فيصل حفيان

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

مؤسسة رسلان علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الجزء الأول

مقدمة زرادشت

حول الإنسان الخارق و الإنسان الأخير

١

عندما بلغ زرادشت الثلاثين من عمره، غادر موطنه وبحيرة موطنه وذهب إلى الجبال، وهناك أخذ يستمتع بروحه ووحدته مدة عشر سنوات ولم يتعب ولم يمل من سعادته.

ولكن تغير قلب زرادشت أخيراً، ونهض في صباح أحد الأيام مع بزوغ الفجر، ووقف أمام الشمس وقال لها: أيتها النجمة العظيمة! أين كانت ستنحصر سعادَتُك لو لم يكن عندك من تنيرين لهم! فخلال عشر سنوات كنت تشرقين فوق مغارتي، ولكنت زهقت من نورك ومن الدرب الذي تقطعينه، لولا وجودي مع نسري وأفعتي.

ولكننا كنا ننتظرك كل صباح، ونتقبل منكِ هباتك ونباركك. انظري! قد زهِقتُ من حكمتي، كالنحلة التي جمعت الكثير من العسل، وبت محتاجاً للأيدي الممدودة نحوي.

إنني أرغب في أن أهب وأمنح حتى يعود الحكماء بين الناس إلى الفرح بجنونهم، ويعود الفقراء إلى الفرح بغناهم.

ومن أجل هذا علي أن أنزل كما تفعلين أنت كل مساء، أنت أيتها النجمة العظيمة!

ويتوجب علي أن أغرب مثلك، كما يسمي ذلك الناس الذين أريد النزول إليهم.

فباركيني أيتها العين الهادئة، التي تنظر بلا حسد إلى أكبر سعادة في الوجود!

باركي الكأس التي تريد أن تنسكب كي يسيل منها السائل الذهبي ويحمل إلى جميع الأماكن لمعان فرحتها!

انظري إن هذه الكأس التي تريد أن تعود فارغة من جديد، وزرادشت يريد أن يعود إنساناً».

وهكذا بدأ غروب زرادشت.



نزل زرادشت الجبل وحيداً، ولم يصادف في طريقه أحداً، ولكنه عندما دخل إلى الغابة صادف أمامه شيخاً عجوزاً ظهر أمامه فجأة، وكان الشيخ قد غادر كوخه المقدس ليبحث عن جذور أعشاب الطبخ في الغابة. فقال الشيخ:

«ليس غريباً علي هذا الرحالة، فمنذ عدة سنوات مضت مر من هنا، وكان يدعى زرادشت، ولكنه تغير.

يومها كنت تحمل جثمانك إلى الجبل، فهل تريد الآن أن تحمل نارك إلى الوديان؟ أفلا تخشى عقاب الحارق؟

نعم، إنني أتعرف فيك على زرادشت. فنظره نقيٌ وليس على ثغره تقزز، أوليس لهذا السبب يسير وكأنه يرقص؟

لقد تغير زرادشت، لقد أصبح زرادشت طفلاً، لقد استيقظ زرادشت، فما الذي تريده بين النيام؟

كنت تعيش فوق البحر وحيداً، وكان البحر يحملك. وللأسف! بت تريد الخروج إلى اليابسة؟ أتريد أن تعود لحمل جسدك ثانية؟».

فأجاب زرادشت: "إنني أحب الناس".

«أليس لهذا السبب - قال القديس - ذهبتُ بدوري إلى الغابة والصحراء؟ أليس لأنني أنا أيضاً أحببت الناس كثيراً؟

والآن بت أحب الرب ولا أحب الناس. فالإنسان بالنسبة لي ناقص جداً، ومحبتي للإنسان يمكن أن تقتلني».

فأجاب زرادشت: «ما الذي قلته عن الحب! فأنا أحمل للناس الهبة».

«لا تعطهم شيئاً - قال القديس - الأفضل أن تحمل عن كاهلهم شيئاً ما فتساعدهم، فذلك أفضل لهم في حال كان الأفضل بالنسبة لك أيضاً! وإذا أردت أن تعطيهم شيئاً أعطهم ما لا يتجاوز الصدقة وأجبرهم على طلبها منك!»

«لا - أجاب زرادشت - فأنا لا أوزع الصدقات، لأنني لست فقيراً بما فيه الكفاية».

أخـذ القـديس يـضحك سـاخراً مـن زرادشـت وقـال: «عنـدها ابـذل جهـدك كـي يتقبلـوا كنوزك! فهم لا يثقون بالنساك ولا يصدقون أننا نأتي إليهم لنقدم الهبات.

إن خطواتنا في الشوارع تبدو لهم مهجورة. وإذا حدث أنهم كانوا في أسِّرتهم ليلاً وسمعوا خطوات إنسان يمشي قبل شروق الشمس بكثير، فإنهم يتساءلون: إلى أين يتسلل هذا اللص؟

فلا تذهب إلى الناس وابق في الغابة! والأفضل لك أن تذهب إلى الحيوانات! فلماذا لا ترغب في أن تكون دباً بين الدببة، وطيراً بين الطيور؟».

«وماذا يفعل القديس في الغابة؟» - سأل زرادشت.

فأجاب القديس: «إنني أنظم الأغاني وأغنيها، وعندما أنظم الأغاني أضحك وأبكي وأتمتم لنفسي، وهكذا أعظم اسم الرب، فأنا بغنائي وبكائي وتمتمتي أعظم اسم الرب، ربي أنا. ولكن قل لي ما الهبة التي تحملها إلينا؟».

انحنى زرادشت للقديس لدى سماعه هذه الكلمات: «ما الذي يمكنني أن أعطيكم إياه! اسمح لي بالمغادرة سريعاً، كي لا آخذ شيئاً منكم!». وهكذا افترقا كل في اتجاه، الشيخ والإنسان وكل منهما كان يضحك كما يضحك الأطفال.

ولكن وعندما أصبح زرادشت وحيداً من جديد، تساءل في قلبه: «أيعقل أن هذا الشيخ في غابته لم يسمع بعد بأن الرب مات!».



ولدى قدوم زرادشت إلى أقرب مدينة متوضعة حول الغابة، وجد فيها حشداً كبيراً من الناس قد تجمعوا في ساحة السوق، وكانوا موعودين بعرض يقدمه راقص فوق الحبل المعلق. فوجه زرادشت خطابه إلى الناس وقال:

«إنني أحدثكم عن الإنسان الخارق. لأن الإنسان هو شيء يجب التفوق عليه. فماذا فعلتم أنتم لتتفوقوا على الإنسان؟ فجميع الكائنات حتى الآن كانت تخلق شيئاً يفوقها، بينما أنتم تريدون أن تكونوا جَزْرَ هذه الموجة العظيمة وأن تعودوا بسرعة إلى حالة الحيوان، مفضلين ذلك على التفوق على الإنسان؟

فما هو القرد بالمقارنة مع الإنسان؟ إنه مثار للسخرية والعار العظيم.

فعلى الإنسان أن يكون بالنسبة للإنسان الخارق كالقرد بالنسبة للإنسان العادي، أي مثاراً للسخرية وعاراً عظيماً.

لقد قطعتم درباً ما بين الدودة والإنسان، ولكن الكثير فيكم بقي من صفات الدودة. وكنتم في فترة ما من الماضي قردة، وحتى الآن ما يزال الإنسان يشبه القرد أكثر من القرد نفسه.

وحتى أعظم الحكماء بينكم ليسوا إلا شكلاً غير منسجم يتأرجح بين النبات والشبح. ولكن هل آمركم بأن تصبحوا شبحاً أو نباتاً؟ انظروا، إنني أحدثكم عن الإنسان الخارق!

فالإنسان الخارق هو مغزى الأرض. فلتقل إرادتكم: «ليكن الإنسان الخارق هدفاً ومغزى للأرض!».

إني أناشدكم، يا أخوتي، أن تبقوا أوفياء للأرض ولا تصدقوا الذين يحدثونكم عن الآمال التي فوق الأرض! إنهم المسمِمون، سواء أعلموا بذلك أم لا.

إنهم يحتقرون الحياة، هؤلاء، الذين هم على فراش الموت، وهم الذين سمموا أنفسهم، التي تعبت منها الأرض، فليموتوا!

في السابق كان الانتقاص من قدر الرب انتقاصاً عظيماً، ولكن الرب مات ومات معه المنتقصون. والآن أصبح الانتقاص من قدْر الأرض هو الجريمة الكبرى، تماماً كتقدير جوهر المستحيل أكثر من تقدير مغزى الأرض!

في فترة ما من الماضي كانت النفس تنظر إلى الجسم باحتقار، وعندها لم يكن شيء يفوق هذا الاحتقار، فقد كانت النفس تريد رؤية الجسد هزيلاً وقبيحاً وجائعاً. هكذا كانت تنوي الهروب من الجسم ومن الأرض.

آه، فهذه النفس كانت هي التي ما تزال هزيلة وقبيحة وجائعة، وكانت القسوة متعة لهذه النفس!

ولكن أخبروني يا أخوتي، ما الذي يقوله جسدكم عن نفسكم حتى الآن؟ أليست نفسكم هي الفقر والقذارة والرضا الحقير بالذات؟ حقاً إن الإنسان سيل قذر. ويجب أن تكون بحراً كي تستطيع استيعاب السيل القذر دون أن تتلوث. انظروا، إنني أخبركم عن الإنسان الخارق، فهو البحر الذي يمكن أن يغرق فيه احتقاركم العظيم.

فيما تتلخص أعظم الأمور التي يمكن أن تعيشوها؟ إنها ساعة الاحتقار العظيم.

الـساعة الـتي تـصبح فيهـا سـعادتكم مكروهــة عنـدكم؟ كـذلك يـصبح عقلكـم وفضيلتكم.

إنه الساعة التي تقولون فيها: «أين هي سعادتي! إنها الفقر والقذارة والرضا الحقير بالذات. أما سعادتي فعليها أن تبرر الوجود نفسه».

الساعة التي تقولون فيها: «فيما يكمن عقلي! وهو يسعى وراء المعرفة كما يسعى الأسد وراء غذائه؟ إنه الفقر والقذارة والرضا الحقير بالذات!»

الساعة الـتي تقولـون فيهـا: «فيمـا تكمـن فضيلتي! إنهـا لم تـدفعني بعـد إلى الجنـون. كـم تعبت من خيري ومن شري! كل ذلك فقر وقذارة ورضا حقير بالذات!».

الساعة التي تقولون فيها: «فمَ يكمن عدلي! فأنـا لا أرى أنـني كنـت لهبـاً وفحمـاً، والعـدل هو اللهب!».

الساعة التي تقولون فيها: «فمَ تكمـن رأفتي! أليست الرأفـة صليباً يُصلَب عليه كـل مـن أحب الناس؟ ولكن رأفتي ليست صليباً».

فهل تكلمتم بهذا؟ وهل هتفتم به؟ آه، يا ليتني سمعتكم تهتفون به!

لـيس إثمكـم أن رضـاكم بأنفسكم يولـول إلى الـسماء، وأن حقـارة ذنـوبكم تولـول إلى السماء!

ولكن أين البرق الذي سيلعقكم بلسانه؟ وأين الجنون الذي يجب أن ننسبه إليكم؟.

انظروا إنني أحدثكم عن الإنسان الخارق، إنه ذلك البرق، إنه ذلك الجنون!».

وبينما كـان زرادشـت يتحـدث، صـاح أحـد مـن بـين الحـشود: «قـد سمعنـا مـا يكفينـا حـول الراقص فوق الحبل المعلق، فليعرضوه علينا!».

وصارت الحشود تضحك ساخرة من زرادشت، وظـن الـراقص فـوق الحبـل أن هـذا الكـلام موجه إليه فباشر القيام بعمله.



نظر زرادشت إلى الحشود مستغرباً. ثم قال:

إن الإنسان هو الحبل المشدود بين الحيوان والإنسان الخارق، أنه الحبل المعلق فوق الهاوية.

خطر اجتيازه، وخطر البقاء وسط المسير، وخطرة هي النظرة الموجهة للخلف، وخطيران الخوف والتوقف. إن الأهم في الإنسان هو أنه جسر لا هدف، ففي الإنسان يمكنك أن تحب كونه انتقال وفناء فحسب.

إنني أحب الذين لا يعرفون مغزىً للعيش غير الفناء، لأنهم يسيرون فوق الجسر.

إنني أحب أعظم الحاقدين، لأنهم عبدة كبار وسهام تسعى إلى الضفة الأخرى.

إنني أحب الذين لا يبحثون عن الأسباب وراء النجوم، كي يموتوا ويضحوا بأنفسهم، بل يضحون بأنفسهم من أجل الأرض، كي تصبح الأرض في يوم ما أرضاً للإنسان الخارق.

إنني أحب الذي يعيش من أجل المعرفة، ويريد أن يعرف لكي يعيش في يوم ما الإنسان الخارق. لأنه بهذه الطريقة يريد فناءه.

أنا أحب الذي يجتهد ويبتكر كي يبني مسكناً للإنسان الخارق ويُعِدُّ لمجيئه الأرض والحيوانات والنباتات، لأنه بهذه الطريقة يريد فناءه.

أنا أحب الذي يحب عفته، لأن العفة هي إرادة نحو الفناء وسهم رغبة الشاطئ الآخر.

أنا أحب الذي لا يخبئ لنفسه ولا قطرة من قطرات الروح، بل يريد أن يكون بكامله روحاً لعفته، لأنه بهذه الطريقة يسير فوق الجسر شبيهاً بالروح.

أنا أحب الذي يجعل من عفته انجذابه وقدره، لأنه بهذه الطريقة يريد أن يعيش ولا يعيش من أجل عفته.

أنا أحب الذي لا يريد أن يمتاز بالكثير جداً من السمات العفيفة الخيرة، فصفة خيرة واحدة هي خير من صفتين، لأنها عقدة أكبر يتثبت بها القدر.

أنا أحب الذي تُسْتَهلكُ نفسه، والذي لا ينتظر الشكر ولا يقدمه، لأنه يمنح باستمرار ولا يريد الحفاظ على نفسه.

أنا أحب الذي يخجل من ابتسامة الحظ له، والذي يتساءل عندئذ: «أيعقل أنني لاعب مخادع؟»، لأنه يريد الفناء.

أنا أحب الذي يرسل كلماته الذهبية قبل أفعاله وينفذ دائماً أكثر مما يعد به، لأنه يريد فناءه.

أنا أحب الذي يسوغ ويدافع عن أهل المستقبل ويُخَلِّص أهل الماضي، لأنه يريد الفناء على يد أهل الحاضر.

أنا أحب الجاد مع ربه لأنه يحب ربه، ولأنه يحب أن يموت من غضب ربه.

أنا أحب الذي نفسه عميقة حتى في جروحه، والذي يمكن أن يموت في أصغر اختبار، لأنه يسير فوق الجسر راغباً بذلك.

أنا أحب الذي نفسه مشبعة بحيث ينسى ذاته، وجميع الأشياء موجودة فيه، فتصبح جميع الأشياء موتاً له.

أنا أحب الحر بروحه والحر بقلبه، فرأسه ليس إلا محتوى قلبه، وقلبه يشده نحو الفناء.

أنا أحب كل الذين هم قطرات ثقيلة تتساقط واحدة تلو الأخرى من غيمة سوداء معلقة فوق البشرية، فيبشرون قائلين إن الصاعقة تقترب، ويموتون كما يموت المبشرون.

انظروا إنني أبشر بالصاعقة وأنا قطرة ثقيلة من هذه الغيمة، ولكن هذه الصاعقة تدعى الإنسان الخارق.



قال زرادشت ذلك ونظر ثانية إلى الحشود وصَمتَ. «ها هم يقفون - قال في قلبه - ها هم يضحكون، إنهم لا يفهمونني، وكلماتي ليست لهذه الآذان.

أيعقل وجوب تمزيق آذانهم أولاً كي يتعلموا الإنصات بعيونهم؟ أيعقل أنه يجب أن ندوي كالطبول وكالدعاة إلى التوبة؟ أم أنهم لا يصدقون إلا الذين يتلعثمون؟

يوجد لديهم شيء يفخرون به. ولكن كيف يسمون الشيء الذي يجعلهم فخورين؟ إنهم يسمون ذلك ثقافة، وهي تميزهم عن الرعاة.

ولهذا لا يحبون أن يسمعوا عن أنفسهم كلمة «استخفاف»، ولهذا سأكلم فخرهم، سأحدثهم عن أكثر الكائنات حقارة، وهو الإنسان الأخير».

وقال زرادشت للناس:

يأتي وقت عندما يضع الإنسان لنفسه هدفاً.

يأتي وقت عندما يزرع الإنسان بذرة أكبر الآمال.

فتربته ما زالت غنية لذلك، ولكنها ستصبح في يوم ما فقيرة وعقيمة، ولن تنبت فوقها شجرة عالية بعد ذلك.

الويل! يأتي وقت لن يطلق فيه الإنسان سهام رغبته أبعد من مستوى الإنسان، وسينسى وتر قوسه كيفية الرجفان!

وأقول لكم: يجب أن تحملوا في داخلكم الفوضى كي تكونوا قادرين على خلق نجمة راقصة.

وأقول لكم: ما زالت فيكم الفوضى.

الويل! يقترب وقت يعجز فيه الإنسان عن خلق نجمة.

الويل! يقترب وقتُ أشد الناس حقارة، الذي لن يعود قادراً على احتقار نفسه. انظروا! إنني أحدثكم عن الإنسان الأخير.

«ما هي المحبة؟ ما هو الإبداع؟ ما هو الطموح؟ ما هي النجمة؟» هكذا يتساءل الإنسان الأخير ويرمش بعينيه.

الأرض أصبحت صغيرة ويقفز الإنسان الأخير، الذي يجعل كل شيء صغيراً. إن عرقه لا يُباد، كبراغيث الأرض، إن الإنسان الأخير يعيش أطول من الجميع.

«نحن الذين عثرنا على السعادة» - يقول الناس الأخيرون ويرمشون بأعينهم.

لقد هجروا البلدان الباردة، لأنهم أصبحوا بحاجة إلى الدفء. كذلك يحبون الجار ويلتصقون به، لأنهم يحتاجون الدفء.

فالمرض وعدم الثقة يعتبر إثماً لديهم، وهم يسيرون بحذر شديد.

ولم يبق غير المجانين يتعثرون بالحجارة والناس!

إنهم يتناولون القليل من السم من فترة لأخرى، فذلك يجعل نومهم هنيئاً.

وفي النهاية يتناولون كمية أكبر من السم كي يموتوا ميتة مريحة.

كذلك هم يعملون، لأن العمل عندهم تسلية. ولكنهم مهتمون بألا ترهقهم تسليتهم.

لن يعود هناك وجود للفقراء أو الأغنياء، فكلا الأمرين مجهدين للغاية. وهل سيرغب أحد بالحكم؟ أم هل سيرغب أحد بالطاعة؟ إن كلا الأمرين مجهدين للغاية.

لا راعي هناك، فليس فيهم إلا القطيع! كل واحد يرغب بالمساواة، الجميع متساوون، ومن يشعر شعوراً مغايراً، يتوجه بإرادته إلى مستشفى المجانين.

«في السابق كان العالم كله مجنوناً» يقول الأذكياء منهم ويرمشون بأعينهم.

الجميع أذكياء ويعرفون كل الذي كان، ولهذا يمكنهم الضحك بلا نهاية. كما أنهم يتشاجرون ولكنهم سريعاً ما يتصالحون، وإلا سيصابون بعسر الهضم.

لديهم متعتهم الصغيرة ليومهم ومتعتهم الصغيرة لليلهم، ولكن الصحة فوق كل شيء.

«نحن الذين عثرنا على السعادة» يقول الناس الآخيرون ويرمشون بأعينهم».

وهنا انتهى الخطاب الأول لزرادشت، والذي يدعى كذلك «المقدمة»، فهنا قاطعه صِياح وفرح الحشود. «أعطنا هذا الإنسان الأخير يا زرادشت - صاحت الحشود - اجعلنا نشبه هؤلاء الناس الأخيرين! وسنهديك الإنسان الخارق!» وفرح الناس جميعهم وطقطقوا بألسنتهم. ولكن زرادشت صار حزيناً وقال في قلبه:

«إنهم لا يفهمونني، فحديثي ليس لهذه الآذان. يبدو أنني أطلت العيش فوق الجبل، واستمعت كثيراً إلى الينابيع والأشجار، وبت أحدثهم الآن كما أحدث الرعاة.

إن نفسي حازمة ونيرة كالجبال في فترات الصباح الباكر، ولكنهم يظنون أنني بارد وأنني أضحك بمزاح رهيب. وهاهم ينظرون إلي ويضحكون، وفي ضحكهم يكرهونني. إن الجليد يملأ ضحكهم».



وهنا حدث شيء جعل الأفواه بكماء والنظرات جامدة. و في تلك اللحظة بدأ الراقص فوق الحبل المعلق عمله، فقد خرج من باب صغير وسار فوق الحبل المشدود بين برجين فوق ساحة السوق وفوق رؤوس الناس. وعندما أصبح في منتصف المسافة، فُتِح الباب الصغير ثانية، وقفز منه رجل غليظ يرتدي ثياباً مبرقشة كالمهرج، وسار بخطوات سريعة يتبع الراقص. «إلى الأمام أيها الأعرج - صاح المهرج الغليظ بصوته المرعب - إلى الأمام أيها الحيوان الكسول، أيها المهرِّب، يا صاحب الوجه القبيح المبيض! احذر كي لا أدغدغك بكعب قدمي! ما الذي تفعله هنا بين البرجين؟ لقد خرجت من البرج وكان يجدر حبسك في ذلك البرج، فأنت تسد الطريق أمام من هو أفضل منك!» - ومع كل كلمة كان يقترب منه أكثر فأكثر، وعندما أصبح على بعد خطوة واحدة منه، حدث أمر رهيب جعل أفواه الجميع بكماء ونظراتهم ثابتة، فقد أطلق المهرج الغليظ صيحة شيطانية وقفز فوق الذي كان يسد طريقه. وعندما رأى الراقص أن خصمه ينتصر عليه، فقد عقله وأفلت الحبل المعلق، فرمى عصاه وطار إلى الأسفل أسرع من

العصا، كإعصار من يدين ورجلين، وصارت ساحة السوق والحشود الموجودة فيها تشبه البحر عند مرور العاصفة، فقد أخذ الجميع يتفرقون في جميع الجهات مضطربين، وكان القسم الأكبر يركض إلى حيث كان من المتوقع أن يسقط الجسم.

ولكن زرادشت بقي في مكانه، وبجانبه تماماً سقط الجسد الممزق والمكسور، ولكنه لم يمت بعد. وبعد فترة عاد الوعي إلى الجريح، فرأى بجانبه زرادشت الجاثي على ركبتيه. «ما الذي تفعله هنا؟ - قال أخيراً - فأنا منذ زمن بعيد أعرف أن الشيطان سيدفعني بقدمه، وهو يسحبني الآن إلى الجحيم فهل تريد أنت أن تمنعه؟».

«أقسم بشرفي يا صديقي - أجاب زرادشت - إنه لا يوجد شيء مما تتحدث عنه، فلا وجود للشيطان ولا وجود للجحيم، فنفسك ستموت أسرع من موت جسدك، فلا تخش شيئاً!».

نظر إليه الإنسان نظرة شك. «إذا كنت تقول الحقيقة - قال الإنسان - فإنني بخسارتي للحياة لا أخسر شيئاً، ولست سوى أفضل بقليل من الحيوان، الذي علموه بالضرب والتوجع كيف يرقص».

«ليس تماماً - قال زرادشت - فأنت جعلت من الخطر حرفة لك، ويستحيل احتقارك على ذلك. والآن يتسبب عملك بموتك، ولأجل هذا أريد أن أدفنك بيدي».

لم يجب الرجل وهو على وشك مفارقة الحياة زرادشت بشيء، بل اكتفى بتحريك يده باحثاً عن يد زرادشت كلمسة شكر.



وفي تلك الأثناء جاء المساء وغطى الظلام ساحة السوق، فتفرق الناس، فحتى الفضول والخوف يتعبان. ولكن زرادشت استمر بالجلوس على الأرض بجانب الميت وكان غارقاً في أفكاره، فنسي أمر الوقت، وأخيراً حل الليل ولفحت الريح الباردة الشخص الوحيد، وعندها نهض زرادشت وقال في نفسه: «حقاً، كان عند زرادشت اليوم صيد رائع، فلم يصطد إنساناً ولكنه اصطاد جثة.

مقلق الوجود الإنساني وخالي من أي مغزى، إذ يمكن أن ينتهي مصيره إلى لعب دور المهرج.

فأنا أريد أن أعلم الناس مغزى وجودهم، وهذا المغزى هو الإنسان الخارق، صاعقة من الغيمة الكالحة التي هي الإنسان.

ولكني ما زلت بعيداً عنهم، وفكرتي لا تتحدث بأفكارهم، فما زلت بالنسبة للناس وسطاً بين المجنون والجثة.

الليل مظلم، ومظلمة طرقات زرادشت، تعال يا رفيقي البارد الجامد! فأنا أحملك إلى حيث سأدفنك بيدي».



قال زرادشت ذلك في نفسه، ثم وضع الجثة فوق ظهره وانطلق في رحلة المسير. ولكن ما إن قطع مئة خطوة، حتى تسلل إليه إنسان وأخذ يهمس في أذنه، فالذي كان يتحدث كان المهرج الذي خرج من البرج.

«غادر هذه المدينة يا زرادشت - قال المهرج - فالكثيرون جداً يكرهونك هنا، يكرهك الطيبون والأتقياء، ويسمونك بعدوهم الممقوت، يكرهك المؤمنون ويسمونك بالخطر على الحشود. من حسن حظك أنهم كانوا يضحكون ساخرين منك، وحقاً كنت تتحدث كالبهلول. من حسن حظك أنك التصقت بكلب ميت، فتذللك بهذه الطريقة أنقذك اليوم، ولكن غادر هذه المدينة، وإلا قفزت غداً من فوقك، حي يقفز فوق ميت». قال الإنسان ذلك واختفى، بينما تابع زرادشت مسيره في الطرقات المظلمة.

وعند أبواب المدينة التقى حفاري القبور، فأضاؤوا الشعلة في وجهه، وتعرفوا على زرادشت وتهكموا عليه كثيراً. «إن زرادشت يأخذ معه الكلب الميت، مرحى فقد تحول زرادشت إلى حفار للقبور، إذ إن أيدينا نظيفة جداً فلا نلوثها بمكسب كهذا. فهل يريد زرادشت أن يسرق لقمة الشيطان؟ فليكن! نتمنى لك عشاءً جيداً! إذا لم يكن الشيطان لصاً أفضل من زرادشت، فهو سيسرق كليهما ويلتهمهما!» وبقوا يضحكون ويتهامسون فيما بينهم.

لم يقل زرادشت شيئاً وسار في طريقه، وبقي يسير طوال ساعتين في الغابات والمستنقعات، وكثيراً ما سمع عواء الذئاب الجائعة، وأخيراً شعر بالجوع، فتوقف أمام بيت منعزل يشع من نافذته النور.

"إن الجوع يهاجمني كقاطع طريق - قال زرادشت - فهو يهاجمني في الغابات والمستنقعات وفي أعماق الليل.

مدهشة هي أهواء جوعي، فهو كثيراً ما يأتي بعد الغداء، واليوم لم أشعر به طوال النهار، فما الذي أعاقه؟».

وبهذه الكلمات دق زرادشت باب البيت، ففتح عجوز الباب، وهو يحمل ضوءاً في يده وقال: «من الذي أتاني وأيقظني من نومي السيئ؟».

«حي وميت - قال زرادشت - أعطني طعاماً وشراباً، فقد نسيت أمرهما طوال النهار. فالذي يطعم الجائع، يشبع نفسه، هكذا تقول الحكمة».

ذهب العجوز وعاد سريعاً وقدم لزرادشت الخبز والنبيذ. «إنها منطقة سيئة بالنسبة للجائعين - قال العجوز - ولهذا أعيش هنا. فالحيوان والإنسان يأتيان إليَّ، أنا الناسك. ولكن أسرع ونادِ زميلك ليأكل ويشرب، إذ يبدو أنه تعب أكثر منك».

فأجاب زرادشت: «ميت زميلي، ولهذا يصعب أن أقنعه بتناول الطعام». «هذا ليس من شأني - تمتم العجوز منزعجاً فالذي يدق بابي، يجب أن يقبل بما أقدمه له. فتناول طعامك هنيئاً مريئاً!».

بعد ذلك سار زرادشت مدة ساعتين واضعاً ثقته في الطريق ومتكلاً على النجوم، إذ إنه كان سائر ليل معتاد وكان يحب أن ينظر في وجه كل ما هو نائم.

عندما بدأ الفجر يبزغ، وصل زرادشت إلى عمق الغابة، ولم تعد الدروب السالكة واضحة أمامه. وعندها وضع الميت في جوف شجرة على علو رأسه - فقد أراد حمايته من الذئاب - واستلقى بدوره على الأرض المغطاة بالطحالب وغرق في نوم عميق، متعباً جسدياً ولكن بنفس لا تلين.



نام زرادشت نوماً طويلاً، فمر الصبح والظهيرة فوق وجهه، وأخيراً فتح عينيه، ونظر بدهشة إلى الغابة والهدوء الذي فيها، ونظر بدهشة إلى أعماق نفسه. ثم نهض سريعاً كالبحار الذي رأى اليابسة، وفرح لأنه اكتشف حقيقة جديدة. فقال في قلبه:

«النور نزل علي، إنني بحاجة لأتباع، ويجب أن يكونوا أحياء، لا أن يكونوا أمواتاً أو جثثاً أحملها معي أينما شئت.

إنني بحاجة لأتباع أحياء سيتبعونني لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم، إلى حيث أشاء أنا.

النور نزل علي، وزرادشت يجب أن يتوقف عن خطاب العامة، فعليه أن يخاطب أتباعه! زرادشت يجب ألا يكون راعياً وكلباً للقطيع!

أنا أغوي الكثيرين من أفراد القطيع، هذا ما جئت من أجله. سيستاء مني العامة والقطيع، فزرادشت يريد أن يُسمى قاطع طريق عند الرعاة.

إنني أدعوهم بالرعاة، بينما يدعون أنفسهم بالمؤمنين. انظروا إلى الطيبين والأتقياء! من يكرهون أشد الكره؟ إنه الذي يكسر ألواح نصوصهم المقدسة، إنه المدمِر المجرم، ولكنه هو الخلاق.

انظروا إلى المؤمنين! من يكرهون أشد الكره؟ إنه الذي يكسر ألواح نصوصهم المقدسة، إنه المدمِر المجرم، ولكنه هو الخلاق.

إن الخلاّق يبحث عن أتباعه وليس عن الجثث والقطيع والمؤمنين. إنه يبحث عن الخلاقين مثله، أولئك الذين يكتبون قيماً جديدة على ألواح مقدسة جديدة.

إن الخلاّق يبحث عن أتباع سيجمعون الأضاحي معه، لأن محاصيله نضجت للحصاد، ولكن ينقصه مئة منجل، ولهذا يقتلع السنابل بيديه حانقاً.

إن الخلاّق يبحث عن أتباع يتقنون شحذ مناجلهم.

سيُسمون بالمدمِرين وأعداء الطيبين والأشرار، ولكنهم سيجمعون المحصول وسيحتفلون.

زرادشت يبحث عن الخلاقين المبدعين، الذين يجمعون معه المحصول ويحتفلون معه، فما الذي يمكن أن يخلقه مع القطيع والرعاة والجثث!

وأنت يا تابعي الأول، وداعاً! قد حفظتك جيداً في جوف الشجرة، وخبأتك جيداً من الذئاب.

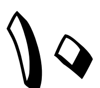
ولكنني أفارقك لأن الوقت قد حان، فبين الفجر والفجر ألهمتني حقيقة جديدة.

علي ألا أكون راعياً أو حفار قبور، لن أخاطب العامة مرة ثانية أبداً، للمرة الأخيرة وجهت خطابي لميت.

أريد أن أنضم إلى الخلاقين والجامعين للمحصول والمحتفلين، أريد أن أريهم قوس قزح وجميع درجات السلم التي تقود إلى الإنسان الخارق.

سأغني أغنيتي للنساك، وللذين يعيشون مع أنفسهم، الذين لديهم آذان ليسمعوا ما لم يسمع بمثله، أولئك أريد أن أثقل قلوبهم بسعادتي.

إنني أسعى إلى هدفي وأسير في طريقي، متجاوزاً المتباطئين والمهملين، قافزاً فوقهم. فليكن دربي هلاكاً لهم!».



هكذا كان يقول زرادشت في قلبه، وكانت الشمس قد وصلت إلى وقت الظهيرة وعندها نظر نظرة تساؤل إلى السماء، إذ سمع صيحة حادة أطلقها طائر، فرأى نسراً كان يرسم في السماء دوائر عريضة، وهو يحلق سريعاً، ومعه أفعى، ليس بصفتها فريسة بل صديقة، لأنها أحاطت عنقه كالعقد.

«هذه هي حيواناتي!»- قال زرادشت وشعر بفرح يغمر قلبه. «أكثر الحيوانات كبرياء من بين جميع الحيوانات التي تعيش تحت الشمس، وأكثر الحيوانات ذكاءً من بين جميع الحيوانات تحت الشمس. لقد ذهبا للاستطلاع.

إنهما يريدان أن يعرفان إن كان زرادشت ما زال حياً. وحقاً هل ما زلت حياً؟

قد تبين أن التواجد بين الناس أخطر من التواجد بين الحيوانات، فزرادشت يسير في طرقات خطرة: فلتقودني حيواناتي!».

قال زرادشت هذا، وتذكر كلمات القديس في الغابة، فتنهد وقال في قلبه:

«يا ليتني كنت أستطيع أن أصبح أكثر حكمة! يا ليتني أستطيع أن أصبح حكيماً كفاية كأفعتي!

ولكني أطلب المستحيل، فلأطلب من كبريائي أن تسير دائماً مع حكمتي! وإذا حدث أن حكمتي ستفارقني في يوم ما، وآه، كم تحب أن تطير مغادرة! فليذهب كبريائي مع جنوني!».

وهكذا بدأ غروب زرادشت.

خطـب زرادشـت

حول التحولات الثلاثة

أحدثكم عن ثلاثة تحولات للروح: كيف تصبح الروح جملاً، وكيف يصبح الجمل أسداً، وكيف يصبح الأسد طفلاً في النهاية.

تعترض الروح صعوبات كثيرة، وهي تعترض الروح القوية والصبورة، القادرة على الشعور بالاحترام العميق تجاه كل ما هو صعب، فقوة الروح تسعى نحو أشد الصعوبات.

«ما هي الصعوبة؟» - تسأل الروح الصبورة. وتجلس كالجمل على ركبتيها وتريد أن يُحَمِّلوها حمولة ثقيلة.

«ما هي أشد الصعوبات؟» - تسأل الروح الصبورة، أخبروني أيها الأبطال كي أتحمل أشد الصعوبات وأفرح بقوتي.

ألا يعني هذا، التذلل كي نجعل كبرياءنا يتعذب؟ وأن نجعل جنوننا يلمع كي نعرض حكمتنا للسخرية؟

أم يعني هذا، الهروب من قضيتنا عندما تحتفل بنصرها؟ وصعود الجبال العالية لإغواء المُغوي؟.

أم يعني هذا، أن نتغذى بثمار البلوط وبأعشاب المعرفة ونتحمل جوع النفس من أجل الحقيقة؟

أم يعني هذا، أن نكون مرضى، ونبعد عن أنفسنا المواسين، ونعقد الصداقة مع الصم الذين لا يسمعون أبداً ما نقصده؟

أم يعني هذا، الغوص في المياه القذرة، إذا كانت هي ماء الحقيقة، وألا نُبعد عن أنفسنا الضفادع الباردة والدافئة؟

أم يعني هذا، أن نحب الذين يحتقروننا، ونمد يدنا للشبح عندما ينوي إخافتنا؟

إن الروح الصبورة تأخذ على عاتقها أشد الصعوبات، كالجمل المحمل بالحمولة الثقيلة المسرع إلى الصحراء، تسرع إلى صحرائها هي أيضاً.

وفي أكثر الصحارى وحشة يحدث التحول الثاني، هنا تصبح الروح أسداً إذ تريد أن تظفر بالحرية لنفسها، وأن تكون سيدة في صحرائها الخاصة.

إن الروح تبحث هنا عن سيدها الأخير، إنها تريد أن تصبح عدواً له ولإلهها الأخير، من أجل النصر تريد أن تقاتل التنين العظيم، فمن يكون هذا التنين العظيم، الذي لم تعد الروح راغبة بأن تدعوه سيدها وإلهها؟

«يتوجب عليك» هذا هو اسم التنين العظيم، ولكن روح الأسد تقول: «أنا أريد».

إن الحيوان ذو الحراشف المدعو «يتوجب عليك»، يستلقي فوق الطريق وهو يلمع بشرار ذهبي، وفوق كل حرشفة يلمع كالذهب اسم «يتوجب عليك»!

إن القيم التي صار لها آلاف السنين تلمع فوق هذه الحراشف، فيقول الأقوى من بين جميع التنانين: «قيم الأشياء جميعها تلمع فوقي».

«لقد خُلِقت القيم جميعها، وكل قيمة خُلِقت هي أنا في الحقيقة، «أنا أريد» يجب أن يتوقف عن الوجود!» هكذا قال التنين.

يا أخوتي، ما الحاجة إلى الأسد في روح الإنسان؟ بماذا لا يرضيها الحيوان، العبد القنوع والمطيع؟

إنما يعجز عنه الأسد هو خلق قيم جديدة، ولكن قوة الأسد قادرة على انتزاع الحرية من أجل إبداع جديد.

إن قوة الأسد، يا أخوتي، هي من أجل الحصول على الحرية وعلى «لا» المقدسة حتى أمام الواجب.

إن الظفر بحق إيجاد القيم الجديدة، هو الظفر الأشد رعباً بالنسبة للروح الصبورة المعتادة على احترام الآخرين، ويبدو لها هذا العمل سطواً وعمل حيوان مفترس.

لقد أحبت الروح «يتوجب عليك» في يوم ما كما تحب مقدساتها، وبات عليها الآن أن ترى

حتى في هذا المقدس الاستبداد والحلم، كي تظفر بالحرية لنفسها على الحرية، أي تتحرر من محبتها، وهذا النصر بحاجة لأن تصبح الروح أسداً.

ولكن أخبروني يا أخوتي ما الذي يمكن أن يفعله الطفل مما يعجز عن فعله الأسد؟ ولماذا يتوجب على الأسد المفترس أن يصبح طفلاً؟

إن الطفل هو البراءة والنسيان، إنه بداية جديدة، إنه لعبة، إنه دولاب يسير بنفسه، إنه حركة البدء، إنه كلمة التأكيد المقدسة.

نعم فلعبة الخلق يا أخوتي تحتاج إلى كلمة التأكيد المقدسة، فالروح أصبحت تريد امتلاك إرادتها، فيجد المتبرئ عالمه الذي تبرأ منه.

لقد ذكرت لكم ثلاثة تحولات للروح، كيف صارت الروح جملاً، وصار الجمل أسداً، وصار الأسد طفلاً في النهاية.

هكذا تحدث زرادشت وفي تلك المرة كان قد توقف في المدينة المدعوة «البقرة المبرقشة».

حول منابر الفضيلة

مدحوا لـ زرادشت أحد الحكماء، والذي كان يتقن الحديث عن النوم والفضيلة، ولهذا كانوا يقدرونه عالياً ويكافئونه، وكان جميع الشبان يجلسون على منبره. إليه توجه زرادشت، وجلس مع جميع الشبان أمام منبر الحكيم. فقال الحكيم:

«الشرف والخجل قبل النوم! هذا أولاً! وتجنبوا اللقاء مع الذين ينامون نوماً سيئاً ويسهرون الليل!

يخجل اللص في حضرة النوم، فيتسلل بطيئاً في الليل، ولكن لا خجل عند حارس الليل، فهو ينفخ في بوقه بلا خجل.

إن إتقان النوم ليس بالعمل السهل، فلكي تنام جيداً يجب أن تبقى يقظاً طوال النهار.

عشر مرات يجب أن تتغلب على نفسك كل يوم، فيمنحك ذلك تعباً كافياً، وذلك هو وردة النفس الحمراء.

عشر مرات يجب أن تتصالح مع نفسك كل يوم، لأن التغلب على النفس يولد الاستياء، والذي لم يتصالح مع نفسه ينام نوماً سيئاً.

عشر حقائق يجب أن تجدها خلال النهار، وإلا ستقضي الليل أيضاً في البحث عن الحقيقة، فتبقى نفسك جائعة.

عشر مرات يجب أن تضحك خلال النهار وتكون مرحاً، وإلا ستقلقك معدتك ليلاً، وهي أم الحزن.

قليلون يعرفون هذا، ولكن يجب أن تتصف بجميع الفضائل كي تنام جيداً، ويجب أن تتساءل: هل شهدت شهادة زور؟

هل خنت واجب الوفاء الزوجي؟

هل سمحت لنفسي أن أتمنى جارية قريبي؟

فكل ذلك يمنع من النوم الجيد.

وحتى في حضور جميع الفضائل يجب أن تتذكر أمراً مهماً: عليك أن تتقن إرسال جميع الفضائل لتنام في أوانها. وذلك كي لا تتشاجر هذه النسوة اللطيفات فيما بينهن! فشجارهن يكون من أجلك!

عش في سلام مع ربك وجارك، فهذا من شروط النوم الجيد. وعش في سلام مع شيطان جارك، وإلا سيزورك ليلاً.

احترم مديرك وأطعه، حتى وإن كان مديرك أعرج! فهذا من شروط النوم الجيد. فهل ذنبي أن المديرين يحبون المشي على أرجل عرجاء؟

أعتقد أن الراعي الأفضل هو الذي يرعى خرافه في المراعي الخصبة، فهذا من شروط النوم الجيد.

أنا لا أريد لنفسي تبجيلاً كبيراً ولا كنوزاً كثيرة، فكلا الأمرين يهيجان الطحال. مع أن النوم يسوء بلا سمعة طيبة وكنوز قليلة.

إنني أفضل المجتمع الصغير على المجتمع الحقود، ولكن حتى المجتمع الصغير يجب أن يأتي ويذهب في الوقت المحدد، فهذا من شروط النوم الجيد.

يعجبني كذلك معدمو الروح، فهم يساهمون في النوم الجيد. إنهم سعداء، ولاسيما إذا حصلوا على الاعتبار والتقدير.

وهكذا يمر نهار الفاضل، وعندما يأتي الليل، أتجنب دعوة النوم إلي! فالنوم لا يريد أن ينادى، وهو سيد الفضائل كلها! ولكنني أجلس لأفكر بالأمور التي فعلتها خلال النهار والأمور التي فكرت بها، فأمضغها وأتساءل صابراً كصبر البقرة: ما هي المرات العشر التي تغلبت فيها على نفسي خلال النهار؟

وما هي المصالحات العشر والحقائق العشر وحوادث الضحك العشرة، التي أفرح بها قلبي نفسه؟

وخلال قيامي بهذا النقاش مع نفسي وموازنة الأربعين فكرة، يحل علي النوم فوراً، الذي هو سيد الفضائل كلها.

إن النوم يضربني على عيني، فتثقل عيناي، النوم يلامس ثغري، فيبقى مفتوحاً قليلاً.

حقاً، يأتيني النوم بخطوات هادئة، إنه الأفضل بين جميع اللصوص، يسلب مني أفكاري لأقف غبياً كهذا المنبر. ولكنني لا أطيل الوقوف في هذه الوضعية، فأستلقي حينئذ».

كان زرادشت يضحك في سره وهو يستمع إلى هذا الكلام الحكيم، لأن النور نزل عليه. فكان يقول في نفسه:

«يبدو لي هذا الحكيم مجنوناً مع أفكاره الأربعين، ولكني واثق من أنه ينام نوماً جيداً.

وسعيد من يعيش بجانب هذا الحكيم! فنوم كهذا النوم معدٍ، حتى من خلف جدار ثخين.

سحر المفاتن نفسها تعيش في منبره، ولم يجلس الشبان عبثاً أمام الداعي إلى الفضيلة.

فحكمته تقول: عليك أن تقضي يقظتك بحيث تجعل نومك هادئاً.

وحقاً لو أن الحياة لم يكن لها مغزى وكان علي أن أختار سخافة، فإن هذه السخافة كانت ستبدو لي الأكثر جدارة بالاختيار.

لقد أدركت الآن بوضوح ما هو أول الأشياء التي كانوا يبحثون عنها في يوم من الأيام، أثناء بحثهم عن معلمي الفضيلة، كانوا يبحثون عن النوم الجيد وعن الفضائل المزينة بالورود!

فبالنسبة لجميع هؤلاء الحكماء المشهورين كان منبر الحكمة نوماً بلا أحلام، ولم يكونوا يعرفون مغزى أفضل منه للحياة.

وما زلنا حتى اليوم نصادف أشخاصاً يشبهون هذا الداعي إلى الفضيلة، رغم أنهم لا يكونون صادقين مثله، ولكن زمانهم ولى، ولم يبق أمامهم وقت طويل للوقوف، لأنهم سيستلقون سريعاً. سعداء هم الناعسون، لأنهم سينامون قريباً».

الحالمون بالعالم الآخر

في إحدى المرات وجه زرادشت حلمه إلى الجانب الآخر من الإنسان، ككل الذين يحلمون بالعالم الآخر.

فقد ظهر لي العالم يومها فعلاً من أفعال إله معذب يعاني. وبان لي العالم يومها حلماً وبدعة أدبية من بدع الرب، كدخان ملون أمام ناظري رب غاضب.

الخير والشر، والفرح والحزن، وأنا وأنت، كل ذلك بدا لي دخاناً ملوناً أمام ناظري الخالق. قد أراد الخالق أن يبعد نظره عن نفسه، وعندها خلق العالم.

إن إبعاد النظر عن المعاناة الذاتية والنسيان، هو فرح ونشوة لمن يعاني. وأنا بدا لي العالم في يوم ما فرحاً ونشوة ونكراناً للذات. إن هذا العالم الناقص دائماً، هو انعكاس التناقض الخالد والصورة البعيدة عن الكمال، هو فرح ونشوة بالنسبة لخالقه الناقص، هكذا بدا لي العالم في يوم من الأيام.

فوجهت حلمي في ذلك اليوم إلى الجانب الآخر من الإنسان، كجميع الذين يحلمون بالعالم الآخر. فهل صحيح أنني وجهته إلى الجانب الآخر من الإنسان؟

آه يا أخوتي، فهذا الرب الذي خلقته، كان من خلق الإنسان وجنون الإنسان، كجميع الآلهة! لقد كان هذا الرب إنساناً، وجزءاً فقيراً فقط من الإنسان ومن «الأنا» الخاص بي، لقد كان من رفاتي وناري، هذا الشبح القادم! وحقاً إنه لم يأتني من العالم الآخر!

فما الذي حدث يا أخوتي؟

لقد تغلبت على نفسي التي تعاني وحملت رفاتي صاعداً بها الجبل، ووجدت في نفسي ناراً أشد وهجاً، فابتعد الشبح عني!

والآن يمكن أن يكون إيماني بأشباح مماثلة، معاناة وعذاباً لمن شفي، ويمكن أن يصبح بالنسبة لي عذاباً وذلاً. هذا ما أقوله للحالمين بالعالم الآخر.

لقد خُلِقَت العوالم الأخرى بفعل المعاناة والعجز، وبفعل ذلك الجنون القصير لدى السعادة، والذي يجربه من عانى أكثر من البقية.

التعب الذي يرغب بقفزة واحدة، هي قفزة الموت، أن يصل النهاية، التعب المسكين عند الجهل، الذي بات رافضاً أن يرغب، وهو الذي خلق جميع الآلهة والعوالم الأخرى.

صدقوني يا أخوتي! فالجسد الذي يئس من الجسد، كان يتلمس بأصابع الروح المخدوعة الجدران الأخيرة. صدقوني يا أخوتي! الجسد الذي يئس من الأرض، كان يستمع إلى أحاديث أجواف الوجود.

وعندها أراد أن يكسر برأسه الجدران الأخيرة، وليس برأسه فقط، وأن ينتقل إلى «العالم الآخر». ولكن «العالم الآخر» مخفي تماماً عن الإنسان، هذا العالم اللا إنساني، الذي يشكل اللاشيء السماوي، وأجواف الوجود لا تكلم الإنسان إلا في صورة وجه إنسان.

حقاً، يصعب إثبات أي وجود ويصعب إجباره على التكلم. أخبروني يا أخوتي، ألم تثبت أفضل الأشياء وتبرهن بأفضل السبل؟

نعم، فهذا «الأنا»، وتناقض وتعقيد «الأنا»، يتحدثون بالطريقة الأدق عن وجودهم، هذا «الأنا» الخلاّق والراغب والمقيِّم، الذي هو معيار وقيمة الأشياء.

وهذا الوجود الأمثل الذي هو «الأنا» يتحدث عن الجسد ويسعى إليه، حتى عندما يبدع ويسلم نفسه للأحلام ويرفرف بجناحين مكسورين.

إنه يزيد من إتقانه كيفية قول: هذا «أنا»، وكلما تعلم أكثر، كلما وجد كلمات أكثر يمتدح بها الجسد والأرض.

لقد علمني «الأنا» الخاص بي كيف أفخر فخراً جديداً، الفخر الذي أعلمه للناس، وهو ألاّ يخبئوا رؤوسهم في رمال الأمور السماوية، بل أن يرفعوا رؤوسهم عالياً بفخر، لأنها تخلق مغزى الأرض!

إنني أعلم الناس الإرادة الجديدة، وهي السير في الطريق الذي سار فيها الإنسان سيراً أعمى، ومدح ذلك الطريق وعدم الانحراف عنه جانباً، كما يفعل المرضى والراقدون على فراش الموت!

إن الذين احتقروا الجسد والأرض وابتكروا السماوات وقطرات الدم التي تغسل الذنوب، كانوا مرضى وراقدين على فراش الموت، فحتى هذه السموم الحلوة والكئيبة كانوا يأخذونها من الجسد والأرض!

أرادوا أن يتجنبوا فقرهم وعدمهم، وكانت النجوم بعيدة جداً بالنسبة لهم. وعندها كانوا

يتنهدون قائلين: «آه، يا ليت الدروب السماوية كانت موجودة، كي نتسلل إلى وجود آخر ونعثر على السعادة!» وعندها اخترعوا بدعتهم وشرابهم الدموي!

هؤلاء ناكرو الجميل، حلموا بالتبرؤ من أجسادهم والتبرؤ من هذه الأرض. ولكن لمن الفضل في شعورهم بالغبطة واختلاج النفس والفرح من هذا التبرؤ؟ إن الفضل يعود إلى أجسادهم وإلى هذه الأرض.

متسامح زرادشت مع المرضى، حقاً إنه لا يغضب من أساليبهم في عزائهم لأنفسهم ومن نكرانهم للجميل. فليكونوا على درب الشفاء وليتجاوزوا عقبات المرض، وليخلقوا لأنفسهم الجسد الأعلى!

كذلك لا يغضب زرادشت من الشخص الذي يتعافى من المرض، عندما ينظر برقة إلى حلمه ويتسلل في منتصف الليل إلى قبر إلهه، ولكن دموعه تبقى بالنسبة لي مرضاً وجسداً مريضاً.

دائماً كان يتواجد الكثير من المرضى وسط الذين يسلمون أنفسهم للأحلام ويتوقون إلى الرب، فكراهيتهم للساعي إلى المعرفة عظيمة، ويكرهون أصغر الفضائل المدعوة بالصدق. إنهم ينظرون دائماً إلى الوراء إلى الأزمنة المظلمة، فحينها كان الحلم والإيمان مختلفين حقاً عن الآن، فكان جنون العقل شبيهاً بالألوهية، والشك كان إثماً.

إنني أعرف جيداً هؤلاء المتشبهين بالرب، إنهم يريدون أن يؤمن الآخرون بهم وأن يكون الشك إثماً، كما أنني أعرف جيداً بماذا يؤمن هؤلاء أكبر الإيمان.

حقاً، إنهم لا يؤمنون بالعوالم الأخرى وبقطرات الدم التكفيرية، بل إنهم أكثر ما يؤمنون بالجسد، وينظرون إلى جسدهم الخاص كشيء بحد ذاته.

ولكنه شيء موجع بالنسبة لهم، وكانوا ليغادرونه بسرور، ولهذا يستمعون إلى دعاة الموت ويدعون إلى العوالم الأخرى.

الأفضل يا أخوتي، أن تستمعوا إلى صوت الجسد السليم، فهذا الصوت أكثر صدقاً ونقاء. إن الجسد السليم يتحدث بصدق أكبر وحديثه أكثر تردداً، إنه جسد سليم ذو زوايا مستقيمة، إن هذا الجسد يتحدث بمغزى الأرض.

هكذا تكلم زرادشت.

محتقرو الجسد

أريد أن أوجه كلمتي إلى محتقري الجسد، فليس عليهم تعلم علم جديد وليس عليهم التعلم من جديد، بل عليهم أن يفارقوا أجسادهم، وبهذا الشكل يصبحون بكماً.

«أنا الجسد والنفس» - هكذا قال الطفل.

فلماذا لا نقول كما يقول الأطفال؟

ولكن المتنبه والعالم يقول: أنا الجسد، والجسد فقط ولا شيء آخر، وليست النفس إلا كلمة للدلالة على شيء ما في الجسد.

إن الجسد هو عقل كبير، وهو مجموع ذو وعي واحد، إنه الحرب والسلم، إنه القطيع والراعي.

إن عقلك الصغير يا أخي، يعد سلاحاً من أسلحة جسدك، وأنت تدعوا هذا السلاح الصغير بالروح، إنه لعبة يلعب بها عقلك الكبير.

«أنا» - تقول وتفخر بهذه الكلمة.

ولكن ما هو أكبر من هذا «الأنا» - وهو ما ترفض الإيمان به - هو جسدك بعقله الكبير، الذي لا يقول «أنا» وإنما يصنعه.

إن الذي يشعر به الشعور والذي يدركه العقل ليس هو هدفاً بحد ذاته.

لكن العقل والشعور يريدان إقناعك بأنهما مغزى جميع الأشياء، فذلك من غرورهما العظيم.

إن العقل والشعور يعدان سلاحاً ولعبة، وتقف وراءهما الذات، فهي تبحث بعيني الشعور وتسمع بأذني الروح.

إن الذات دائمة الإنصات والبحث، إنها تقارن وتُخضِع وتستولي وتدمر، إنها تسود وتعد سيدة على «الأنا».

فخلف أفكارك ومشاعرك، يا أخي، تقف حاكمة أشد جبروتاً، حكيمةٌ خفيةٌ تدعى الذات، إنها تعيش في جسدك وهي جسدك نفسه.

إن القسم الأكبر من العقل موجود في جسدك، وهو أكبر من القسم الموجود في حكمتك العظمى. ومن يدري ما هو حاجة جسدك لحكمتك العظمى؟

إن الذات الخاصة بك تسخر من «الأنا» الخاص بك وقفزاته المتكبرة.

«ما لي ولهذه القفزات وتحليق الأفكار؟ - تقول ذاتك لنفسها - إنه طريق أعوج وغير مباشر إلى هدفي. فأنا أقوم بدور حمالة للـ «الأنا» وموحية لمفاهيمه».

فتقول الذات للـ «الأنا»: «هنا أشعر بالألم!» فيعاني «الأنا» ويفكر بطريقة تبعد عنه المعاناة - ولهذه الغاية يجب أن يفكر «الأنا».

تقول الذات للـ «الأنا»: «هنا أشعر بالفرح!» فيشعر بالفرح ويفكر بكيفية زيادة هذا الفرح، ولهذه الغاية يجب أن يفكر «الأنا».

أريد أن أوجه كلمتي لمحتقري الجسد، فالشيء الذي يحتقرونه هو الشيء الذي يحبونه. فما الذي خلق المحبة والاحتقار والقيمة والإرادة؟

إن الذات الخّلاقة خلقت لنفسها المحبة والاحتقار، وخلقت لنفسها الفرح والأسى، وخلق الجسد الخلاق لنفسه الروح كسلاح لإرادته.

فأنتم يا محتقري الجسد تخدمون وتطيعون ذواتكم، حتى في جنونكم واحتقاركم. وإنني أقول لكم: إن ذاتكم تريد أن تموت وتدير ظهرها للحياة.

فذاتكم لم تعد قادرة على فعل ما تتمناه، وهو أن تتابع خلق نفسها، فهذا ما تتعطش له الذات، وهنا تكمن رغبتها الشديدة.

والآن تأخر الوقت كثيراً بالنسبة لها، فأرادت ذاتكم أن تموت، أنتم يا محتقري الجسد.

إن ذاتكم تريد أن تموت، ولهذا أصبحتم تحتقرون الجسد! إذ إنكم بتم عاجزين عن متابعة خلق أنفسكم.

ولهذا أنتم ساخطون على الحياة والأرض، ويشع الحسد الخفي من نظرة احتقاركم العابسة.

إنني لا أسير في طريقكم، أنتم يا محتقري الجسد! لأنني لا أراكم جسراً يقود إلى الإنسان الخارق!

هكذا تكلم زرادشت.

الأفراح والأهواء

يا أخي، إذا كانت لديك فضيلة، وهي فضيلتك أنت، فأنت لا تمتلكها سوية مع الآخرين.

ولا شك أنك تريد أن تدعوها باسمها وتلاطفها، وتشدها من أذنها وتلعب معها.

فانظر! أصبحت الآن تمتلك اسمها بالاشتراك مع الشعب، وأصبحت أنت وفضيلتك شعباً مطيعاً!

وكان من الأفضل لك أن تقول: «لا توجد كلمات، ولا تسميات، لتطلق على ما يشكل عذاب نفسي وسعادتها، وعلى ما يشكل جوعي الداخلي».

فلتكن فضيلتك عالية جداً، أعلى من أن تأتمنها بين يدي الاسم، وإذا كان عليك التحدث عنها، فلا تخجل من التحدث عنها همساً.

فقل هامساً: إنه خيري كما أحبه، وكما يعجبني بكامله، وأريده حصراً كما هو.

وليست رغبتي فيه لأنني أريده قانوناً إلهياً، وليست رغبتي فيه ليكون قانوناً بشرياً وضرورة إنسانية، فهو ليس بالنسبة لي مؤشر اتجاه نحو السماء أو الجنة.

إني أحب الفضيلة الأرضية فقط، ففيها القليل من الحكمة، والقليل جداً من عقل الناس. ولكن هذه العصفورة قد بنت عشها عندي، ولهذا أحبها وأضمها إلى قلبي، وهي ترقد فوق بيوض ذهبية الآن.

هكذا يجب أن تمدح فضيلتك همساً.

في السابق كان لديك أهواء وغرائز، وكنت تدعوها بالشريرة. والآن ليس لديك إلا فضائلك، وقد نبتت من أهوائك وغرائزك.

قد وضعت هدفك الأعلى في هذه الأهواء، فأصبَحَت فضيلة وفرحاً عندك.

وإذا كنت من صنف أصحاب الطبع الحاد، أو من صنف الشهوانيين، أو من المتعصبين دينياً، أو من الناس الحاقدين المنتقمين، فإن أهواءك ستنقلب إلى فضائل وتتحول شياطينك إلى ملائكة في نهاية المطاف.

في السابق كانت الكلاب البرية تعيش في بواطن نفسك، ولكنها تحولت في نهاية المطاف إلى عصافير مغردة طروبة.

قد صنعت من سمومك بلسماً لنفسك، وكنت تحلب البقرة - أي شجنك - والآن تشرب الحليب الحلو من ضرعها. ومستقبلاً لن ينبت منك أي شر باستثناء الشر الناجم عن صراع فضائلك.

يا أخي، إذا كنت سعيداً، فلديك فضيلة واحدة لا أكثر، وعندها تعبر الجسر بسهولة أكبر. جدير بالاعتبار امتلاك فضائل عديدة، ولكنه قدر صعب، فالكثيرون ساروا إلى الصحراء وقتلوا أنفسهم، لأنهم تعبوا من كونهم معركة وأرضاً تتصارع فوقها الفضائل.

يا أخي، هل الحرب والقتال شر؟ ولكنه شر ضروري، وضروري الحسد وعدم الثقة والافتراء بين فضائلك.

انظر كيف تتعطش كل فضيلة من فضائلك إلى الرفعة والعلو، إنها تريد الحصول على روحك كاملة، كي تكون بشيرة لها، إنها تريد الحصول على قوتك كاملة في الغضب والكراهية والحب.

تغار كل فضيلة من أختها، والغيرة أمر مرعب، فحتى الفضيلة يمكن أن تموت بسبب الغيرة. فالذي تحيط به نار الغيرة يوجه إبرته اللاذعة السامة تجاه نفسه كالعقرب.

آه.. يا أخي، ألم يسبق لك أن رأيت كيف تفتري الفضيلة على نفسها وتطعن نفسها؟

إن الإنسان هو شيء يجب التفوق عليه، ولذا عليك أن تحب فضائلك لأن موتك سيكون على يدها.

هكذا تكلم زرادشت.

المجرم الشاحب

أنتم لا تريدون أن تَقتُلوا، أيها القضاة ومقدمو القرابين، حتى يطأطئ الحيوان رأسه؟ انظروا، ها هو المجرم الشاحب قد طأطأ رأسه، وتنطق عينيه باحتقار عظيم.

«إن «الأنا» خاصتي هو شيء يتوجب عليه التفوق، إن «الأنا» خاصتي بالنسبة لي هو الاحتقار العظيم للإنسان» هذا ما نطقت به عيناه.

إن إدانته لنفسه كانت لحظته العظمى، فلا تسمحوا للذي علا، أن يعود ثانية إلى هاويته!

لا نجاة لمن يعاني من جراء نفسه، سوى الموت السريع. إن جريمتكم أيها القضاة يجب أن تكون رأفة لا انتقاماً. واحرصوا وأنتم تقتلون على أن تستحقوا الحياة!

لا يكفي أن ترضوا بمن تقتلونه، فليكن حزنكم محبة تجاه الإنسان الخارق، وبهذا تسوغون تمديدكم لحياتكم!

«عدو» يجب أن تقولوا وليس «شرير»، «مريض» يجب أن تقولوا وليس «نذل»، «مجنون» يجب أن تقولوا وليس «آثم».

وأنت أيها القاضي القدير الخيّر، لو أنك أعلمت جهراً عن كل ما فعلته في أفكارك، لصاح كل فرد من الموجودين: «اطردوا بعيداً هذه القذارة وهذه الدودة السامة!».

ولكن الفكرة شيء والعمل شيء آخر وطريقة تنفيذ العمل شيء ثالث، ولا تدور بينهم عجلة السببية.

إن الطريقة التي تم بها العمل جعلت هذا الإنسان شاحباً، وكان على علو قمة عمله عندما قام به، لكنه لم يحتمل الطريقة التي تم بها العمل بعد تمامه.

كان دائماً ينظر إلى نفسه كفاعل لفعل واحد فقط، وإنني أدعو ذلك جنوناً، فقد تحول الاستثناء إلى كيان.

الخط المرسوم يسحر الدجاجة، والضربة التي قام بها سحرت عقله المسكين. قد سميت ذلك جنوناً بعد العمل.

اسمعوا أيها السادة! هناك جنون آخر، هو جنون ما قبل العمل. آه، لم تتغلغلوا بما يكفي داخل هذه النفس!

ويقول القاضي القدير الخيّر: «ما غاية هذا المجرم من اقتراف جريمة القتل؟ لقد أراد السطو». ولكنني أقول لكم: لقد أرادت نفسه الدم وليس السطو، فقد كان يتعطش لسعادة الخنجر!

ولكن عقله المسكين لم يفهم هذا الجنون وأقنعه فقال: «لا أهمية للدم! ألا تريد على الأقل أن تقوم بالسطو؟ وتنتقم؟».

فاستمع إلى صوت عقله المسكين وأطاعه، ونزل عليه حديث عقله كالرصاص، وعندما قتل سطا، ولم يكن راغباً في الخجل من جنونه.

وهكذا عاد رصاص ذنبه يضع اللوم عليه، وعاد عقله المسكين بليداً ومسترخياً وثقيلاً. لو أنه كان قادراً على هز رأسه، لتدحرج عبؤه إلى الأسفل، ولكن من ذا الذي يهز هذا الرأس؟

ما هو هذا الإنسان؟

كومة من الأمراض تتسلل إلى العالم عبر الروح، فتبحث عن فريستها هناك.

ما هو هذا الإنسان؟ جحر من الأفاعي المتوحشة، التي نادراً ما يسود الهدوء بينها، فتتفرق باحثة عن فرائسها في العالم.

انظروا إلى هذا الجسد المسكين! ما الذي عاناه وما الذي رغب به بشغف، هذا ما حاولت أن تفسره لنفسها هذه النفس المسكينة، ففسر ذلك بفرح القتل والحسد تجاه سعادة الخنجر.

إن الذي يمرض الآن، هو الذي يهاجمه الشر، الذي يعتبر شراً في هذا الزمن. إنه يريد أن يسبب المعاناة للذين سببوا له المعاناة.

ولكن الأزمنة كانت مختلفة، وكان الشر والخير مختلفين.

في الماضي كان الشر هو الشك وإرادة الذات. حينها كان المريض يعتبر مرتداً ومشعوذاً، وكان يعاني معاناة المرتد والمشعوذ ويريد أن يجعل الآخرين يعانون أيضاً.

لكن آذانكم لا تستوعب هذا الحديث فتقولون لي: إن حديثك يضر بالطيبين. ولكن ما لي وما للطيبين منكم!

هناك الكثير مما هو في الطيبين منكم ويستدعي في نفسي القرف، وحقاً، لا أقصد شرهم. كنت أريد أن يسيطر عليهم الجنون الذي يقضي عليهم كما قضى على هذا المجرم الشاحب! حقاً، أردت أن يدعى جنونهم حقيقة أو وفاءً أو عدلاً، ولكن لديهم فضيلتهم التي تبرر لهم العيش برضى حقير بالذات.

أنا سور الجسر فوق السيل الجارف، فتمسك بي يا من تستطيع فعل ذلك. ولكنني لست عكازاً لكم.

هكذا تكلم زرادشت.

القراءة والكتابة

من بين كل ما كتب أحب فقط ما كتب بالدم الشخصي. اكتب بدمائك وستعرف أن الدم هو الروح.

ليس سهلاً أن تفهم الدم الغريب، وأنا أكره من يقرأ بسبب الفراغ.

إن من يعرف القارئ، لا يفعل شيئاً من أجل القارئ. ومئة عام أخرى من القراء وتصبح للروح رائحة كريهة.

إن امتلاك الجميع لحق تعلم القراءة، يضر بالكتابة والفكر لأزمنة طويلة.

في السابق كانت الروح إلهاً، ثم أصبحت الروح إنساناً، واليوم تصبح الروح حشوداً عامة. إن الذي يكتب بالدم والأمثال، لا يريد للآخرين أن يقرؤوا ما كتب، بل يريد أن يحفظوه غيباً.

إن أقصر طريق في الجبال هو من القمة إلى القمة، ولكن ذلك يحتاج لأرجل طويلة. وعلى الأمثال أن تكون قمماً، والذين تخاطبهم الأمثال يجب أن يكونوا عظماء وأقوياء.

الهواء المتخلخل والنقي، والخطر القريب والروح المليئة بالحقد المبتهج، جميعهم يسرعون لملاقاة بعضهم بعضاً.

إنني راغب في أن تحيط بي أرواح جبلية، لأنني شجاع وكامل الرجولة. فالرجولة ترعب الأشباح، وتخلق لنفسها أرواحاً جبلية، إن الرجولة تريد أن تضحك.

لم أعد أشعر بعلاقتي معكم، فهذه الغيمة التي أراها تحتي، هذا السواد والثقل الذي أضحك منه، هذه هي غيمتكم الرهيبة.

إنكم تنظرون إلى الأعلى عندما تسعون للرفعة. وأنا أنظر إلى الأسفل، لأنني حققت الرفعة. من منكم قادر على الضحك والعلو في الوقت نفسه؟

إن الذي يصعد إلى قمم أعلى الجبال، يضحك من جميع مشاهد المأساة والحياة.

إن الحكمة ترغب في رؤيتنا أقوياء ومرحين وضاحكين وخالين من الهموم، لأن الحكمة امرأة وتحب دائماً المحارِبَ فقط.

أنتم تقولون لي: «يصعب تحمل الحياة»، فلأي شيء كنتم ستحتاجون لكبريائكم في

الصباح ولرضوخكم في المساء؟ يصعب تحمل الحياة، ولكن لا تتظاهروا بأنكم شديدو الرقة! فنحن جميعاً حمير رائعون في العبودية.

فهل فينا شيء مشترك مع برعم الوردة الجورية، المرتجف لأن قطرة الندى تستلقي فوق جسده؟ حقاً، إننا نحب الحياة، ولكن ليس لأننا أعتدنا على الحياة، بل لأننا اعتدنا على المحبة. إن المحبة دائماً تحتوي على القليل من الجنون، وفي الجنون دائماً يوجد قليل من العقل.

وحتى أنا الميال إلى الحياة، يبدو لي أن فراشات الليل وفقاعات الصابون وكل من يشبههم من البشر، جميعهم يعرفون معنى السعادة.

والنظر إلى رفرفة هذه الأنفس الجميلة والخفيفة والمتحركة وغير العاقلة، يدفع زرادشت نحو الدموع والغناء.

ولم أكن لأؤمن بإله غير الإله الذي يتقن الرقص.

وعندما كنت أنظر إلى شيطاني كنت أجده جاداً وثقيلاً وعميقاً ومهيباً، لقد كان روح الثقل، وبفضله تسقط جميع الأشياء على الأرض.

ليس القتل بالغضب، بل القتل بالضحك. فانهضوا لتشاركوا في قتل روح الثقل!

قد تعلمت المشي، ومنذ ذلك الحين أسمح لنفسي بالركض. وتعلمت الطيران، ومنذ ذلك الحين لا أنتظر دفعاً لأتحرك من مكاني.

والآن أنا خفيف، أطير، وأرى نفسي تحتي، والإله يرقص في داخلي.

هكذا تكلم زرادشت.

الشجرة فوق الجبل

لاحظ زرادشت أن أحد الشبان يتجنبه. وفي إحدى الأمسيات وهو يسير وحيداً عبر الجبال المحيطة بالمدينة المدعوة «البقرة المبرقشة»، التقى هذا الشاب وكان جالساً على الأرض تحت الشجرة، ينظر بنظرة متعبة نحو الوادي. لمس زرادشت الشجرة التي يجلس بجانبها الشاب وقال: «لو أنني أردت هز هذه الشجرة بيدي، لما استطعت فعل ذلك. ولكن الرياح غير المرئية، تمزق الشجرة وتلويها كيفما تشاء. فالأيدي الخفية تمزقنا وتلوينا بقوة أشد وأكبر من الأيدي المرئية».

وعندها نهض الشاب مرتبكاً وقال: «إنني أسمع صوت زرادشت وكنت للتو أفكر به».

فأجاب زرادشت: «ممَ تخاف؟ فمع الإنسان يحدث ما يحدث مع الشجرة. فكلما سعى الإنسان نحو الأعلى تجاه النور، كلما تعمقت وتغلغلت جذوره في الأرض، نحو الأسفل، إلى الظلام والعمق، والأعماق حيث الشر».

«نعم، نحو الشر! - صاح الشاب - كيف حدث أنك اكتشفت نفسي؟».

ضحك زرادشت وقال: «هناك أنفس لن يفتحها أحد لأنها أنفس خيالية».

«نعم، نحو الشر! - صاح الشاب ثانية - لقد نطقت بالحقيقة يا زرادشت. فأنا لم أعد أؤمن بنفسي منذ أن سعيت نحو الأعلى، ولم يعد أحد يؤمن بي، فكيف حدث هذا؟

إنني أتغير بسرعة كبيرة، ويومي يدحض البارحة. فأنا كثيراً ما أقفز فوق عدة درجات أثناء صعودي، وهذا ما لا تغفره لي أي درجة.

عندما أكون في الأعلى أجد نفسي وحيداً دائماً، فلا أحد يتحدث معي، وبرد الوحدة يجعلني أرتجف. فما الذي أريده في ذلك العلو؟

إن احتقاري ورغبتي يتناميان في الوقت نفسه، فكلما صعدت أكثر كلما زاد احتقاري الذي يعلو ويرتفع. فما الذي يريده في ذلك العلو؟

كم أخجل من صعودي وتعثري! كم أضحك من أنفاسي المتلاحقة! كم أكره من يحلق، كم تعبت فوق هذا العلو!» وهنا صمت الشاب.

بينما نظر زرادشت إلى الشجرة التي وقفا بجانبها وقال: «إن هذه الشجرة تقف وحيدة فوق الجبل، وقد نمت عالياً فوق الإنسان والحيوان. ولو أنها أرادت التكلم، لما وجدت أحداً يستطيع فهم ما تقوله، لأنها نمت عالياً. والآن تنتظر هذه الشجرة وتنتظر، فما الذي تنتظره؟ إنها تتواجد على مقربة كبيرة من الغيوم، فهل تنتظر شرارة البرق الأولى؟».

وعندما قال زرادشت ذلك، صاح الشاب بقلق شديد: «نعم يا زرادشت، أنت تقول الحقيقة. لقد تمنيت الموت، ولأجل ذلك سعيت نحو الأعلى، وأنت البرق الذي كنت أنتظره! انظر إلي، ماذا أصبحتُ منذ أن جئتَ إلينا! قد قتلني حسدي لك!» - هكذا تحدث الشاب وهو يبكي بحرقة، فاحتضن زرادشت الشاب واصطحبه معه.

وبعد أن قطعا مسافة، تحدث زرادشت فقال: «إن قلبي ينفطر، ونظرة عينيك تخبرني أكثر من كلماتك عن الخطر المحدق بك. فأنت لم تتحرر بعد وما زلت تبحث عن الحرية. لقد جعلك بحثك يقظاً وحرمك من النوم.

إنك تسعى نحو العلو الحر، ونفسك تتعطش إلى النجوم، ولكن غرائزك الرديئة تتعطش إلى الحرية.

إن كلابك البرية تريد التحرر، وهي تنبح من شدة الفرح في سراديبها، طالما بقيت روحك ساعية لفتح جميع الزنزانات.

أعتقد أنك ما زلت سجيناً تحلم بالحرية: آه، تصبح النفس حكيمة عند المساجين مثلك، ولكنها تصبح كذلك ماكرة وسيئة.

يتوجب على الروح المتحررة أن تتطهر، إذ ما زالت تحمل الكثير من آثار السجن والقذارة. يجب أن تصبح نظرة الروح نقية.

نعم، أنا أعرف خطرك، ولكنني أرجوك باسم محبتي وأملي: لا تتخلَّ عن محبتك وأملك! ما زلت تشعر بأنك نبيل، وما زال الآخرون يشعرون بنبلك، على الرغم من أنهم لا يحبونك ويتبعونك بنظراتهم الحقودة. فاعلم، أن النبيل يعترض على الجميع طريقهم.

وحتى الطيبين يعترض النبيل طريقهم، وحتى عندما يدعونه بالطيب يريدون بذلك إزاحته عن دربهم.

إن النبيل يريد أن يخلق الجديد، يريد أن يخلق فضيلة جديدة. بينما يريد الطيب القديمَ، ويود المحافظة على القديم.

ولا يتلخص الخطر على النبيل في أنه سيصبح طيباً، بل في أنه سيصبح وقحاً ومدمراً ولُمَزة.

آه، قد عرفت النبلاء الذين فقدوا أملهم الأعلى، وصاروا يفترون على كل الآمال العليا. والآن باتوا يعيشون وقحين بين المتع القصيرة الزائلة، وكان هدفهم لا يكفيهم ليوم واحد.

«إن الروح هي الشهوانية أيضاً - هكذا قالوا. وعندها تكسرت أجنحة أرواحهم، وأصبحت أرواحهم تزحف في كل مكان وتلوث كل ما تلتهمه.

قد حلموا في يوم ما أن يصبحوا أبطالاً، والآن هم شهوانيون، وأصبح بطلهم هو الحزن والرعب. ولكنني أرجوك باسم محبتي وأملي، احفظ البطل في نفسك! احفظ أملك الأعلى بتقديس!»

هكذا تكلم زرادشت.

دعاة الموت

يوجد دعاة للموت، والأرض تعج بالذين يُريدون أن يدعوا إلى السآمة من الحياة.

الأرض تعج بالزائدين، والحياة فسدت بفعل الكثرة الشديدة من الناس. آه، لو أننا استطعنا استبدالهم بواسطة «الحياة الخالدة» وإخراجهم من هذه الحياة!

«الصفر» أو «السود»: هكذا يسمونَ دعاةَ الموت. ولكنني أريد أن أعرضهم أمامكم بألوانهم الأخرى.

ها هم، المرعبون، الذين يحملون في داخلهم الوحش المفترس ولا يملكون خياراً آخر، غير مطامعهم أو قتل ذواتهم، ولكن مطامعهم هي قتل لذواتهم.

لم يصبحوا بشراً بعد، هؤلاء المرعبون، فليدعوا إلى السآمة من الحياة وليغادروها بأنفسهم!

ها هم أصحاب النفوس المسلولة، ما إن وِلِدوا حتى بدؤوا يموتون وهم يتعطشون إلى تعاليم التعب والتبرؤ.

إنهم يتمنون لو كانوا أمواتاً، وعلينا أن نستحسن ونبارك إرادتهم! فلنحذر من العبث مع هؤلاء الأموات، كي لا نبعثهم من جديد فنضر بهذه التوابيت الحية!

فسواء التقوا المريض أو العجوز أو الجثة، يقولون مباشرة: «تم دحض الحياة!».

ولكن الذي دحض ليس هم وعيونهم التي لا ترى إلا وجهاً واحدا في الوجود، ولا أحد غيرهم.

إنهم غارقون في كآبة عميقة ولا ينتبهون إلا للمصادفات الصغيرة، التي تجلب الموت، هكذا ينتظرون وهم مطبقون بشدة على أسنانهم.

أو أنهم يلتقطون الحلوى ويضحكون ساخرين من تصرفهم الطفولي، إنهم يتعلقون بالحياة كما يتعلق الغريق بقشة، ويضحكون من بقائهم عالقين حتى الآن.

وتنص حكمتهم: «الأحمق هو الذي يبقى ليعيش، ونحن حمقى بالقدر نفسه. وهذا هو الأمر الأشد حماقة في الحياة!»

«الحياة ليست إلا معاناة» - هكذا يقول الآخرون وهم لا يكذبون، لذا ابذلوا جهدكم كي تتوقفوا عن الوجود! وابذلوا جهدكم كي تنهوا حياتكم التي ليست سوى معاناة!

ولينص قانون فضيلتكم: «عليك أن تقتل نفسك! عليك أن تسرق نفسك من نفسك!»

«الشهوانية إثم - هكذا يقول دعاة الموت - دعونا نمشي جانباً ولا ننجب الأطفال!»

«الإنجاب صعب - يقول آخرون - ولماذا ننجب المزيد؟ فلن يولد إلا البؤساء!» هم أيضاً دعاة الموت.

«إننا بحاجة للشفقة - هكذا يقول آخرون - خذوا الموجود معي! خذوني أنا! فبذلك يقل ارتباطي بالحياة!»

لو أنهم كانوا شديدي الشفقة، لانتزعوا من أقاربهم الرغبة في الحياة، وصار الحقد هو طبيعتهم الحقيقية. ولكنهم يريدون التحرر من الحياة، ولا يهمهم أنهم يزيدون من تقييدهم للآخرين بسلاسلهم وعطاءاتهم.

وحتى أنتم، الذين ترون الحياة جهداً قاسياً وقلقاً، ألستم مرهقين من الحياة؟ ألم تنضجوا بعد لتدعوا إلى الموت.

أنتم جميعكم، الذين تغالون بالجهد القاسي وبكل ما هو سريع وجديد ومجهول، إنكم تشعرون بالسوء، وعملكم هو هروب ورغبة في نسيان الذات.

لو أن إيمانكم بالحياة كان أكبر، لأقللتم من تسليم أنفسكم للّحظة، ولكن محتواكم لا يكفي ليجعلكم تنتظرون، ولا يكفيكم حتى للتكاسل!

في كل مكان تسمع أصوات الذين يدعون إلى الموت، والأرض تمتلئ بالذين بحاجة للدعوة إلى الموت أو «إلى الحياة الخالدة»، فالأمر سواء لدي، شريطة ألا يتأخروا في التوجه إلى هناك!

هكذا تكلم زرادشت.

الحرب والمحاربون

إننا لا نريد الشفقة من أفضل أعدائنا، كذلك لا نريدها من الذين نحبهم من أعماق قلوبنا. فاسمحوا لي أن أقول لكم الحقيقة:

- يا أخوتي في الحرب! أنا أحبكم من أعماق قلبي، وكنت متساوياً معكم في السابق وحتى الآن، كما أنني أفْضَلُ أعدائكم، فاسمحوا لي بأن أقول لكم الحقيقة.

إنني أعرف كره قلوبكم وحسدها، فأنتم لستم عظماء كفاية كي لا تعرفوا الكراهية والحسد، فكونوا عظماء بما يكفي كي لا تخجلوا من أنفسكم!

وإذا لم تقدروا أن تكونوا متعصبين للمعرفة، فكونوا على الأقل محاربين من أجل المعرفة، فالمحاربون رفاق هذه الحركة ومبشروها.

إنني أرى عدداً كبيراً من الجنود، وكنت آمل أن أرى هذا العدد الكبير من المحاربين! إنهم يرتدون بزات متشابهة، فليكن مختلفاً ما يخفونه تحت بزاتهم العسكرية!

كونوا كالذين تبحث عيونهم دائماً عن العدو الشخصي، وبعضكم تشع من عيونهم الكراهية من النظرة الأولى.

إنكم تبحثون عن عدوكم، قودوا حربكم من أجل أفكاركم! وإذا لم تصمد فكرتكم، فإن صدقكم يجب أن يحتفل بنصره حتى على هذا الواقع!

أحبوا السلام كوسيلة لحروب جديدة، وأحبوا السلام القصير أكثر من الطويل.

أنا لا أدعوكم إلى العمل، بل إلى النضال. أنا لا أدعوكم إلى السلام، بل إلى النصر. فليكن عملكم نضالاً وسلامكم نصراً! إن الصمت والجلوس الساكن ممكنان عند امتلاك القوس والسهام فقط، وإلا تنتشر الثرثرة والخصومة، فليكن سلامكم نصراً! تقولون إن الهدف الخيّر ينير الحرب؟ وأنا أقول لكم، إن خير الحرب ينير جميع الأهداف.

إن الحرب والشجاعة صنعا من الأعمال العظيمة ما يفوق صنع المحبة تجاه القريب. إن شجاعتكم هي التي أنقذت المساكين وليس شفقتكم.

«ما هو الجيد؟» - تتساءلون. من الجيد أن يكون الإنسان شجاعاً، واتركوا للفتيات الصغيرات أن يقلن: «أن تكون طيباً، هذا هو الأمر اللطيف والمؤثر في الوقت نفسه».

يدعونكم بقساة القلوب، ولكن قلوبكم أصيلة، وأنا أحب حياء إخلاصكم. فأنتم تخجلون من تدفق أحاسيسكم، بينما يخجل الآخرون من غياب الأحاسيس لديهم.

أأنتم قبيحون؟ حسناً يا أخوتي! أحيطوا أنفسكم بالسمو، بعباءة القبح هذه!

وعندما تصبح نفوسكم كبيرة تصبح متغطرسة، ويوجد في علوكم حقد. فأنا أعرفكم. في الحقد يلتقي المتغطرس مع الضعيف، ولكنهما لا يفهمان بعضهما بعضاً. فأنا أعرفكم.

يجب أن يكون أعداؤكم حصراً ممن تكرهون وليس ممن تحتقرون.

يجب أن تفخروا بعدوكم، وعندها يكون نجاح عدوكم هو نجاحكم.

إن الثورة هي من شجاعة العبد. فلتكن شجاعتك هي الطاعة! وليكن أمرك هو الطاعة!

فبالنسبة للمحارب الجيد يكون «يتوجب عليك» أقرب إلى القلب من «أنا أريد» وكل ما تحبونه يجب أن تأمروا أنفسكم به أولاً.

فلتكن محبتكم تجاه الحياة محبة تجاه أملكم الأعلى، وليكن أملكم الأعلى هو فكرتكم العليا حول الحياة!

ولكن فكرتكم العليا يجب أن تكون أمراً مني، وهي تنص على أن الإنسان هو شيء يجب التفوق عليه.

وهكذا عيشوا حياتكم ما بين الطاعة والحرب! فما الفائدة من الحياة الطويلة وأي محارب يريد أن يُرْحَم! أنا لا أرحمكم، أنا أحبكم من كل قلبي يا أخوتي في الحرب!

هكذا تكلم زرادشت.

الصنم الجديد

في بعض الأماكن ما زالت الشعوب والقطعان موجودة، ولكن ليس عندنا يا أخوتي، فنحن لدينا الدولة.

الدولة؟ ماذا تمثل؟ اسمعوني الآن، لأنني سأقول كلمتي حول موت الشعوب.

إن الدولة اسم يطلق على الوحش الأكثر برودة من بين جميع الوحوش، إنه وحش يكذب ببرودة، ويتسلل هذا الكذب من ثغره: «أنا الدولة، وأنا أشكل الشعب».

هذا كذب! فالخلاقون هم الذين خلقوا الشعوب وأعطوهم الإيمان والمحبة، فخدموا بذلك الحياة.

والمخربون هم الذين نصبوا الشراك للكثيرين وسموا شراكهم باسم الدولة، فقد علقوا فوق رؤوس الناس السيف وفرضوا عليهم تحقيق آلاف الرغبات.

وإذا ما زال فوق هذه الأرض شعب يعيش في مكان ما، فإنه لا يفهم الدولة ويكرهها، كما يكره العين التي تسبب السوء وخرق العادات والحقوق.

إنني أعطيكم هذه الراية، فكل شعب يتحدث بلغته عن الخير والشر، وهذه اللغة لا يفهمها جاره، لأن اكتساب اللغة جاء من عادات الشعب وحقوقه.

ولكن الدولة تكذب بجميع اللغات حول الخير والشر، وما تقوله كذب، وما تملكه سرقته. كل ما في الدولة خداع، فهي تعض بأسنان مسروقة، وحتى أحشاء الدولة خداع.

اختلاط اللغات في الخير والشر، هذه هي راية الدولة التي أكشفها أمامكم. وحقاً، إن معنى هذه الراية هو الرغبة في الموت! وحقاً إنها تغمز لدعاة الموت.

يولد الكثير جداً من الناس، وقد خُلِقت الدولة للفائضين!

انظروا كيف تجذبهم إليها، هذه الكثرة الكثيرة! وكيف تخنقهم وتمضغهم وتهضمهم:

«لا يوجد فوق الأرض شيء أكبر مني، فأنا إصبع الرب ناشر النظام» - هكذا يزأر الوحش. وليس فقط طويلو الآذان وعديمو التبصر يركعون أمامه!

آه، حتى أنتم، الأنفس العظيمة، يوسوس لكم الوحش كذبته السوداء! آه، إنه يعرف القلوب الغنية التي تضحي بنفسها بلا تأخير!

آه، حتى أنتم يتعرف عليكم، أنتم الذين انتصرتم على الإله القديم! قد أرهقكم الصراع، وأصبح تعبكم الآن يخدم الصنم الجديد!

كان يرغب في أن يحيط نفسه بالأبطال والصادقين من الناس، هذا الصنم الجديد! إنه يحب التدفؤ بدفء شمس الضمير النقي، هذا الوحش البارد!

إنه مستعد لمنحكم كل شيء، إذا انحنيتم له، هذا الصنم الجديد، فهكذا يشتري لنفسه بريق فضيلتكم ونظرة عيونكم المليئة بالكبرياء.

إنه يريد استمالتكم، أنتم الكثرة الكثيرة! فأنتم اختراع لعبة شيطانية، هي حصان الموت، الذي يجلجل بعدته المصنوعة من المراسم الربانية!

نعم، لقد تم اختراع الموت لأجل الكثيرين، ولكنه يتحدث عن نفسه على أنه الحياة، إنه حقاً خدمة مخلصة لجميع دعاة الموت!

إنني أطلق اسم الدولة على المكان الذي يشرب فيه الجميع السم سوية، الجيدون والسيئون، إنني أطلق اسم الدولة على المكان الذي يُضيِّع فيه الجميع أنفسهم، الجيدون والسيئون، إنني أطلق اسم الدولة على المكان الذي يحدث فيه انتحار جماعي بطيء يسمى «الحياة».

انظروا إلى هؤلاء البشر الزائدين! إنهم يسرقون مؤلفات المخترعين وكنوز الحكماء: إنهم يدعون بالثقافة ما سرقوا، ويتحول كل شيء لديهم إلى مرض وشقاء!

انظروا إلى هؤلاء البشر الزائدين! إنهم مرضى دائمون، وهم ينشرون سمهم وضجرهم في شيء يسمونه الجريدة. إنهم يبتلعون بعضهم بعضاً ويعجزون عن الهضم دائماً.

انظروا إلى هؤلاء البشر الزائدين! فكلما كسبوا الثراء ازدادوا فقراً في أعماقهم. إنهم يتعطشون إلى السلطة، وزمام السلطة عندهم قبل كل شيء، إنهم يريدون مالاً كثيراً، هؤلاء العاجزون!

انظروا كيف يجيئون، إنهم قردة رشيقة! إنهم يتسلقون على ظهور بعضهم بعضاً ولهذا يسقطون جميعاً في وحل الهاوية.

جميعهم يريدون بلوغ العرش، ويتلخص جنونهم في ظنهم أن السعادة تتربع فوق العرش! فغالباً تتربع القذارة فوق العرش، وغالباً يقوم العرش على القذارة.

أعتقد أنهم كلهم مجانين، سواء القردة المتسلقة أو المتواجدون في حالة الهذيان. أعتقد أن صنمهم ذو رائحة نتنة، هذا الوحش البارد، وأعتقد أن الرائحة النتنة نفسها تنتشر من جميع خَدَمة الصنم.

يا أخوتي! هل تريدون أن تختنقوا وسط الدخان الخانق الخارج من أفواههم ورغباتهم! اكسروا النوافذ سريعاً واقفزوا خارجين!

تجنبوا الرائحة النتنة! تجنبوا عبادة الأصنام التي يمثلها البشر الزائدون!

تجنبوا الرائحة النتنة! تجنبوا دخان هذه الضحايا البشرية!

ما زالت الأرض حرة أمام الأنفس العظيمة! وما زالت الأماكن الحرة كثيرة أمام المنعزلين وأمام الذين يعيشون مع أنفسهم، هناك حيث يفوح أريج البحار الهادئة.

ما زالت الحياة حرة أمام الأنفس العظيمة حقاً. والذي يملك القليل، تقل ملكية الآخرين له، فالحمد للفقر القليل!

هناك، حيث تنتهي الدولة، يبدأ الإنسان غير الزائد لأول مرة، هناك تبدأ أغنية الضروريين، ذلك اللحن الموجود لمرة واحدة والذي لا يُستَرجع.

هناك إلى حيث تنتهي الدولة وجهوا أنظاركم يا أخوتي! ألا ترون قوس قزح والجسور المؤدية إلى الإنسان الخارق؟

هكذا تكلم زرادشت.

ذباب السوق

أسرع يا صديقي إلى عزلتك! فأنا أرى أن ضجيج العظماء صعقك، ولدغتك سموم التافهين.

إن الغابة والصخور تتقن مشاركتك الصمت بوقار. عد لتشبيه نفسك بالشجرة المفضلة عندك، الباسطة أغصانها، والتي انحنت فوق البحر بهدوء وهي تنصت.

حيث تنتهي العزلة يبدأ السوق وحيث يبدأ السوق يبدأ ضجيج المهرجين العظماء وأزيز الذباب السام.

إن أفضل الأشياء في العالم لا تساوي شيئاً إذا لم يمثلها أحد، والشعب يسمي هؤلاء الممثلين بالعظماء.

يسوء فهم الشعب لكل ما هو عظيم، أي الإبداع. ولكنه يحب المسؤولين والذين يلعبون بالأشياء العظيمة.

يدور العالم حول مبتكري القيم الجديدة بصمت، ولكن الشعب والكلمات تدور حول المهرجين، ويدعى هذا الأمر «بنظام العالم».

إن المهرج لديه روح، ولكنه يفتقر إلى ضمير الروح، فهو يؤمن دائماً بالشيء الذي يجبر الآخرين على الإيمان به، إنه يؤمن بنفسه!

غداً لديه إيمان جديد وبعد غد إيمان أكثر جدة، ومشاعره سريعة كالشعب، ومزاجه متقلب.

التخريب يدعى عنده بالبناء، وجعل الشيء مجنوناً يدعى عنده بالإقناع والدم بالنسبة له هو أفضل المسوغات.

إنه يسمي الحقيقة التي تنفذ إلى أرهف الآذان بالكذب والسخف. حقاً، إنه لا يؤمن إلا بآلهة تنشر في العالم ضجيجاً عظيماً!

إن السوق يمتلئ بالمهرجين ناشري الضجيج، والشعب يتفاخر بعظمائه! فهم بالنسبة له أسياد اللحظة.

ولكن اللحظة تطالبهم بإصرار أن يقدموا الجواب، وهم يطالبونك أنت بالجواب.

إنهم يريدونك أن تقول: «نعم» أو «لا». الويل لك، إذا أردت الجلوس بين كرسيين!

لا تحسد هؤلاء غير المقيدين بالشروط، الذين يصرون على طلب الجواب، أنت يا عاشق الحقيقة! فلم يسبق أبداً أن أمسكت الحقيقة بيد غير المقيد بالشروط.

ابتعد عن هؤلاء الطموحين المندفعين إلى مكان آمن، ففي السوق فقط يهاجمونك بسؤال: «نعم أو لا؟».

تجري ببطء حياة الينابيع العميقة جميعها، وعليهم الانتظار طويلاً قبل أن يعرفوا ما سقط في أعماقها.

إن كل ما هو عظيم يتجنب السوق والشهرة، ومنذ القدم عاش مبتكرو القيم الجديدة بعيدين عن السوق.

أسرع يا صديقي، إلى عزلتك، فأنا أراك ملدوغاً بسم الذباب. أسرع إلى حيث ينتشر الهواء النقي الصارم!

أسرع إلى عزلتك! فقد عشت على مقربة من البشر التافهين. اهرب من انتقامهم الخفي! فهم بالنسبة لك ليسوا سوى الانتقام.

لا ترفع يدك في وجههم! فأعدادهم لا تحصى، وليس من مهامك أن تكون مِنَشّة للذباب.

لا تحصى أعداد هؤلاء البشر التافهين الصغار، وكم من بناء عظيم ساقته قطرات المطر والنثار إلى نهايته.

أنت لست حجراً، ولكنك أصبحت فارغاً من كثرة القطرات. ستُدمَر وتصيبك الشقوق من كثرة القطرات.

أراك متعباً قد أرهقك الذباب السام، وأرى الدم يخرج من جروحك في أماكن كثيرة، وكبرياؤك لا يريد حتى أن يمتعض.

أنهم يتعطشون لدمائك على الرغم من كل البراءة البادية عليهم، إن أنفسهم الخالية من الدم تتعطش لدمائك، ولهذا فهم يلدغونك على الرغم من كل البراءة البادية عليهم.

ولكنك عميق، فتعاني بعمق حتى من أبسط الجروح، وكلما تماثلت للشفاء كانت دودة سامة تسارع لتزحف فوق يدك.

تبدو لي عالي الكبرياء كي تتنازل وتقتل هذه الحشرات الشرهة، ولكن احذر ألا يصبح مكتوباً عليك تحمل ظلمهم السام!

إن أزيزهم يحيط بك مرفقاً بمديحهم، فاللجاجة هي ثناؤهم. إنهم يريدون الاقتراب من جلدك ومن دمك.

إنهم يتملقونك، كإله أو شيطان، إنهم يزعقون أمامك، كما يزعقون أمام الرب أو الشيطان. وماذا في ذلك! إنهم المتصنعون والزاعقون ولاشيء أكثر من ذلك.

كذلك يعاملونك بلطف، ولكن اللطف كان دائماً خدعة الجبناء. نعم، إن الجبناء ماكرون!

إنهم يكثرون من التفكير بك بنفسهم الضيقة، فتبدو لهم دائماً مثيراً للشكوك! فكل ما يدور حوله التفكير طويلاً، يصبح مثيراً للشكوك.

إنهم يعاقبونك على فضائلك جميعها، وهم لا يسامحونك إلا على أخطائك.

وبما أنك وديع وعادل، فإنك تقول: «ليسوا مذنبين في وجودهم الحقير»، ولكن نفسهم الضيقة تفكر: «مذنب كل وجود عظيم».

وحتى عندما تتسامح معهم يشعرون أنك تحتقرهم، فيعيدون لك خيرك بشرور خفية.

إن كبرياءك بلا كلمات يناقض ذوقهم دائماً، وهم يفرحون بصخب عندما تكون متواضعاً بحيث يمنعك تواضعك من الغرور.

إن الشيء الذي نتعرف عليه في الإنسان نضرمه فيه. فاحذر البشر التافهين!

إنهم يشعرون أمامك بتفاهتهم، وتتعفن دناءتهم وتشتعل ضدك متحولة إلى انتقام خفي.

ألم تلحظ كيف كانوا يصمتون عند اقترابك منهم، وكيف كانت قوتهم تفارقهم كما يفارق الدخان النار المنطفئة؟

نعم يا صديقي، فأنت بالنسبة للمقربين منك تأنيب ضمير، لأنهم لا يستحقونك. وهم يكرهونك وكانوا ليمصوا دمك بسرور.

إن المقربين منك سيكونون دائماً ذباباً ساماً، فالشيء الموجود في داخلك عظيم، ويجب أن يجعلهم أكثر سمية وأكثر شبهاً بالذباب.

اركض، يا صديقي إلى عزلتك، إلى حيث ينتشر الهواء الطلق الصارم! فليس من وظيفتك أن تكون منشّة للذباب.

هكذا تكلم زرادشت.

العفة

أنا أحب الغابة، إذ يصعب العيش في المدن، فهناك يكثر البشر الشهوانيون.

أليس من الأفضل أن تقع بين يدي قاتل، من أن تصبح موضوع حلم لامرأة شهوانية؟

انظروا إلى هؤلاء الرجال، فعيونهم تقول إنهم لا يعرفون شيئاً أفضل فوق هذه الأرض من النوم مع امرأة.

إن القذارة في أعماق نفوسهم، والويل إذا كانت لهذه القذارة روح!

آه، لو أنكم كنتم كاملين ككمال الحيوانات على الأقل! ولكن الحيوانات تمتلك البراءة.

فهل أنصحكم بقتل مشاعركم؟ بل إنني أنصحكم بجعل مشاعركم بريئة.

وهل أنصحكم بالعفة؟ فالبعض يعتبرون العفة فضيلة، ولكن الكثيرين يعتبرونها رذيلة.

وهم ربما يمتنعون عن شهواتهم، ولكن كلب الشهوانية يبرز بحسد في كل ما يفعلونه.

إن هذا الحيوان وعداوته يتبعهم حتى إلى قمم فضائلهم وإلى روحهم الصارمة.

ويا لبراعة كلب الشهوانية في توسله إلى الروح عندما يرفضه الجسد!

هل تحبون المآسي وكل ما يمزق القلوب؟ ولكنني لا أثق بكلبكم.

إن عيونكم شديدة القسوة، ونظراتكم تجاه الذين يعانون شهوانية، فهل تنكرت شهوانيتكم في ثوب جديد وأصبحت تدعى رأفة؟

وأعرفكم على هذه الإشارة، فالكثيرون من الراغبين في طرد شيطانهم قد تحولوا إلى خنازير.

فالذي يشعر بأن العفة عبء عليه، عليك بثنيه عنها، كي لا تصبح العفة طريقاً إلى الجحيم، أي قذارةً وشهوانية في النفس.

هل أتحدث عن أمور قذرة؟ أعتقد أنها ليست الأسوأ في الوجود.

إن الذي يطلب المعرفة لا يحب أن يغوص في ماء الحقيقة عندما يكون الماء ضحلاً، لا عندما يكون قذراً.

حقاً، يوجد عفيفون حتى في أعماق نفوسهم، وقلوبهم أكثر وداعة، وهم يضحكون بمرح وسرور، أكثر منك.

كذلك هم يسخرون من عفتهم ويتساءلون: «ما هي العفة؟ أليست العفة جنوناً؟ ولكن هذا الجنون أتى إلينا، ولسنا نحن من ذهب إليه. قد عرضنا على هذا الضيف المبيت في قلوبنا، وبات يعيش عندنا، فليبق قدر ما يشاء!».

هكذا تكلم زرادشت.

الصديق

«إن البقاء وحيداً دائماً كثير جداً علي» هكذا يفكر الناسك. «دائماً وحدي ومع نفسي وهذا يعطي مع الزمن اثنين!».

«أنا» و«إياي» دائماً يجتهدان في حديثهما، فكيف السبيل إلى تحمل هذا لولا وجود الصديق؟

دائماً يعد الصديق ثالثاً بالنسبة للناسك، إنه السدادة التي تمنع حديث الاثنين من التعمق والنزول إلى أعماق لا قاع لها.

آه، يوجد الكثير من الأعماق بلا قيعان، تكفي جميع النّساك، ولهذا يتعطشون بلهفة لوجود صديق بكل علوه.

إن إيماننا بالآخرين يفضح ما كنا نود الإيمان به في أنفسنا، فرغبتنا الشديدة في وجود صديق خانتنا.

وكثيراً ما يرغب الناس في تجاوز الحسد بمساعدة المحبة. وكثيراً ما يهاجمون ويصنعون لأنفسهم الأعداء، كي يخفوا إمكانية تعرضهم للهجوم.

«كن على الأقل عدواً لي!» هكذا يقول الاحترام الحقيقي الذي لا يتجرأ على طلب الصداقة.

إذا أردت أن تمتلك صديقاً عليك أن تخوض حرباً من أجله، ولكي تخوض الحرب يجب أن تتقن دور العدو. عليك أن تحترم في صديقك العدو، فهل تستطيع أن تقترب من صديقك كثيراً وألا تنتقل إليه؟

يجب أن تمتلك في وجه صديقك أفضل أعدائك، ويجب أن يكون قلبك هو الأقرب إليه عندما تقاومه.

أنت لا ترغب في التزين بالملابس أمام صديقك؟ إذ يجب أن يُشَرِّفَ صديقك أن تقدم له نفسك كما أنت، ولكنه يرسلك إلى الشيطان جزاءً على ذلك!

إن الذي لا يخفي نفسه، يزعج الآخرين بذلك، فلديكم أسبابكم الكثيرة لتخافوا من العُري! نعم، لو أنكم كنتم آلهة لاستطعتم أن تخجلوا من ثيابكم!

إن الثياب لا تكفيك للتزين أمام صديقك، إذ عليك أن تولد لديه رغبةً قوية للتمثل بك، ليصبح سهماً منطلقاً نحو الإنسان الخارق.

هل رأيت صديقك نائماً لتعرف كيف يبدو؟ ما هو وجه صديقك؟ إنه وجهك الذاتي المنعكس في مرآة خشنة ناقصة.

هل رأيت صديقك نائماً؟ وهل شعرت بالخوف من منظره؟ آه، يا صديقي، الإنسان هو شيء يجب التفوق عليه.

يجب على الصديق أن يتقن التنبؤ والصمت، إذ يجب ألاّ ترى كل شيء. إن نومك يجب أن يفضحك، فما الذي يفعله صديقك خلال يقظته.

فلتكن رأفتك مسوغة، وعليك في البداية أن تعرف إن كان صديقك يريد الرأفة، إذ ربما يحب فيك نظرة عينيك التي لا تُقهَر، الموجهة نحو الخلود.

فلتبق رأفتك تجاه صديقك مخفية تحت قشرة صلبة وعليها يجب أن تسحق أسنانك، وعندها سيكون لها رقتها وحلاوتها.

هل تعد هواءً نقياً وعزلة وخبزاً ودواءً بالنسبة لصديقك؟ فهناك من يعجز عن التخلص من قيوده التي تكبله، ولكنه مع ذلك يكون مخلصاً لصديقه.

فهل أنت عبد؟ عندها لا يمكنك أن تكون صديقاً. وهل أنت طاغية؟ عندها لا يمكنك امتلاك الأصدقاء.

زمناً طويلاً بقي العبد والطاغية مختبئين داخل المرأة، ولهذا ما زالت المرأة عاجزة عن الصداقة، فهي لا تعرف غير الحب.

يمتاز حب المرأة بالظلم وبالعمى تجاه كل ما لا تحبه. كما أن الحب الواعي لدى المرأة لا يزال يحمل المفاجأة والبرق والليل إلى جانب النور.

ما زالت المرأة عاجزة عن الصداقة، فالنساء ما زلن قططاً وطيوراً، أو أبقاراً في أحسن الحالات. ما زالت المرأة عاجزة عن الصداقة، ولكن أخبروني أيها الرجال من منكم يتقن الصداقة؟

آه، أيها الرجال، يا لفقر وبخل أنفسكم! فما تقدمونه لصديقكم يعادل ما أقدمه لعدوي ولا يصيبني الفقر من جراء ذلك. إن الرفقة موجودة، فلتكن الصداقة موجودة أيضاً!

هكذا تكلم زرادشت.

الأهداف الألف وواحد

شاهد زرادشت بلداناً كثيرة وشعوباً كثيرة، فاكتشف خير وشر شعوب كثيرة، ولم يجد زرادشت سلطة أكبر من الخير والشر على وجه الأرض.

فليس فوق الأرض شعب يستطيع العيش قبل أن يقوم بالتقييم، فإذا أراد أن يحافظ على نفسه عليه أن يُقَيِّم كما يُقَيِّمُ جارُه.

فالكثير مما يسمى خيراً عند شعب، يسمى عاراً وفضيحة عند شعب آخر، هذا ما وجدته. والكثير مما وجدته هنا سمي شراً، بينما هناك كان يُزَيَّنُ برداء الشرف الأرجواني.

لم يسبق أن فهم جار جاره، فكانت نفسه تستغرب دائماً من جنون وحقد جاره.

إن لوحة النص المقدس حول الخير معلقة فوق كل شعب، فانظر إلى لوحة النص التي تذكر حالات تجاوز الخير، انظر إنه صوت إرادة الشعب تجاه السلطة.

يستحق المديح كل ما يبدو له صعباً، فكل ما هو حتمي وصعب يسميه الشعب خيراً، أما ما يحرر من الحاجة العظمى ويكون نادراً وصعباً فيدعوه بالمقدس.

إن الذي يساهم في منحه السيادة والنصر والشهرة ويجعل جاره خائفاً وحسوداً، كل ذلك يعني بالنسبة له الرفعة والبداية والمقياس ومغزى جميع الأشياء.

حقاً، يا أخي، إذا عرفت حاجة الشعب والبلد والسماء وحاجة جيران ذلك الشعب، فإنك عرفت بلا شك القانون الذي يجعله يتجاوز العقبات، والسبب الذي يجعله يصعد هذا السلم نحو أمله.

«عليك دائماً أن تكون الأول وتقف في مقدمة الآخرين، ويجب ألا تحب نفسك الغيورة أحداً غير الصديق»، إن هذه الكلمات كانت تجعل نفس اليوناني ترتجف، وكان يسير في طريق سموه.

«إن قول الحقيقة وإتقان استخدام القوس والسهام»، كان يبدو في الوقت نفسه لطيفاً وصعباً بالنسبة للشعب الذي آتى منه اسمي، الاسم الذي يعد بالنسبة لي لطيفاً وصعباً في الوقت نفسه.

«تمجيد الأب والأم وإطاعة أوامرهما»، إن لوحة هذا النص المقدس قد علقه شعب آخر على نفسه وأصبح بفضل ذلك جباراً وخالداً.

«الالتزام بالإخلاص وتقديم الشرف والدم في سبيل الإخلاص حتى وإن تتطلب ذلك عملاً سيئاً وخطيراً»، هكذا كان يتعلم الشعب الآخر من خلال تفوقه على نفسه، وأصبح بفضل تفوقه على نفسه مفعماً بآمال عظيمة.

حقاً، إن الناس خلقوا لأنفسهم كل الخير وكل الشر. حقاً، إنهم لم يستعيروهما ولم يعثروا عليهما، لقد سقطا إليهم كالصورة من السماء.

كان الإنسان في البداية يضع القيم في الأشياء، ليحافظ على نفسه، فخلق أولاً مغزى الأشياء، أي المغزى الإنساني للأشياء! ولهذا سمى نفسه إنساناً، أي الذي يقوم بالتقييم.

إن التقييم يعني الخلق. اسمعوا، أيها الخلاقون! إن التقييم هو الجوهرة الثمينة وكنز جميع الأشياء القيمة، فعبر التقييم ظهرت القيمة لأول مرة، ولولا التقييم لكانت جوزة الوجود خالية. فاسمعوا، أيها الخلاقون!

إن تغير القيم هو تغير الخلاقين. فالذي يُدَمِرُ باستمرار يتوجب عليه أن يكون خلاقاً.

إن الخلاقين الأوائل كانوا شعوباً، ولم يظهر الخلاقون الأفراد إلا في مراحل متأخرة، وحقاً، إن الشخصية المستقلة هي أكثر المخلوقات جدة.

لقد علق الشعوب على صدورهم في أحد الأيام لوحة كتب عليها نص الخير المقدس. فالمحبة التي كانت تطمع بالسيادة، والمحبة التي كانت تطمع بالطاعة قامتا سوية بخلق هذه النصوص المقدسة لنفسيهما.

إن شعور القطيع هو أقدم منشأً من شعور «الأنا»، وطالما بقي الضمير الحي يدعى بالقطيع، فإن الضمير الملوث فقط يقول «أنا».

حقاً، إن «الأنا» الماكر والخالي من المحبة والباحث عن مصلحته في مصالح الآخرين، هو ليس بداية القطيع بل هو فناؤه.

إن المحبين كانوا دائماً خلاقين، لقد خلقوا الخير والشر، ونار المحبة ونار الغضب تتحدثان بأسماء الفضائل كلها.

لقد رأى زرادشت بلداناً كثيرة وشعوباً كثيرة، ولم يجد فوق هذه الأرض سلطة أكبر من أعمال المحبين، التي تدعى بـ«الخير» و«الشر».

حقاً، إن سلطة هذا المديح وهذا الانتقاص هي الوحش. أخبروني يا أخوتي من سيغلب هذا الوحش من أجلي؟ أخبروني من سيضع السلاسل حول رؤوسه الألف؟

حتى الآن كان هناك ألف هدف، وكان يوجد ألف شعب. ولا ينقصنا سوى ألف سلسلة لألف رأس، ينقصنا الهدف الموحد، فما زالت البشرية تفتقر إلى الهدف.

أخبروني يا أخوتي، إذا كانت الإنسانية تفتقر إلى الهدف، فربما ما نزال نفتقر إلى الإنسانية نفسها؟

هكذا تكلم زرادشت.

المحبة تجاه القريب

أنـتم تلتـصقون بالقريـب ولأجـل ذلـك لـديكم كلمـات رائعـة. ولكـنني أقـول لكـم: إن محبتكم تجاه القريب هي محبتكم الرديئة تجاه أنفسكم.

إنكم تسرعون إلى قريبكم هـاربين مـن أنفسكم، راغبين أن تجعلوا مـن ذلك فضيلة، ولكنني أرى بوضوح «خلوكم من الطمع».

«أنت» أكبر سناً من «الأنـا»، و«أنـت» تم الاعـتراف بـه مقدسـاً، ولم يتم الاعتراف بـ «أنـا» بعد، إلى هذا الحد يلتصق الإنسان بقريبه.

هل أنصحكم بالمحبة تجاه القريب؟ بل إنني أنـصحكم بـالهروب بعيـداً مـن القريـب ومحبـة البعيد!

فالذي يعلو على المحبة تجاه القريب هو المحبة تجاه البعيد والمستقبل، وأنا أضع فوق محبة الإنسان المحبة تجاه الأشياء والأشباح.

إن هذا الشبح الذي يحوم أمامك، يا أخي، هو أشد روعة منك، فلماذا لا تعطيه جسدك وعظامك؟ ولكنك تخاف وتهرب إلى قريبك.

أنتم لا تتحملـون أنفسكم ولا تحبـون أنفسكم بدرجة كافيـة، وهـا أنـتم تريـدون إغـراء القريب بمحبتكم، لتطلوا أنفسكم بذهب وهمه.

إنـني أتمنـى أن يـصبح أقـاربكم وجيرانكـم لا يطـاقون بالنـسبة لكـم، وعنـدها يـصبح عليكم أن تخلقوا من أنفسكم الصديق مع قلبه المفعم بالمحبة.

إنكم تحضرون شاهداً عندما ترغبون بامتداح أنفسكم، وعندما جعلتموه يظن بكم ظناً حسناً أصبحتم أنتم أيضاً تحسنون الظن بأنفسكم.

إن الكاذب ليس فقط من يقول قولاً يخالف معرفته، بل الكاذب الأكبر هـو الـذي يقـول قولاً يخالف جهله. فهكذا تتحدثون عن أنفسكم أثناء تعاملكم مـع الآخـرين فتخـدعون الجـار بخصوص أنفسكم.

هكذا يقول المجنون: «إن التعامل مع الناس يفسد الطبع، ولاسيما عندما لا يكون للإنسان طبع».

فهناك من يتجه بحثاً عن نفسه، وآخر يتجه إلى القريب لأنه يريد أن يفقد نفسه. فمحبتكم الرديئة تجاه أنفسكم تجعل من عزلتكم سجناً.

إن البعيدين يدفعون ثمن محبتكم تجاه القريب، وإذا اجتمعتم خمسة أشخاص فعلى السادس دوماً أن يموت.

أنا لا أحب أعيادكم، فقد وجدت فيها عدداً كبيراً من الممثلين، وحتى المشاهدين كانوا يتصرفون كالممثلين.

إنني لا أحدثكم عن القريب، بل أحدثكم عن الصديق. فليصبح الصديق بالنسبة لكم عيداً للأرض وهاجساً تجاه الإنسان الخارق.

إنني أحدثكم عن الصديق وعن قلبه المفعم بالأحاسيس. ولكن يجب أن يتقن الإنسان دور الإسفنج إذا أراد أن يكون محبوباً من قبل القلوب المفعمة بالأحاسيس.

إنني أحدثكم عن الصديق الذي يظهر فيه العالم مكتملاً، مثل كأس الخير. إنني أحدثكم عن الصديق الخلاق، المستعد دائماً لمنح العالم المكتمل.

وكما انكشف العالم أمامه، فإنه ينغلق معه كتحولات الخير والشر، وكنشوء الهدف من المصادفة.

فليكن المستقبل وأبعد الأمور سبب يومك، ويجب أن تحب في صديقك الإنسان الخارق كأساس لوجودك.

يا أخوتي، لست أنصحكم بمحبة القريب، بل أنصحكم بمحبة البعيد.

هكذا تكلم زرادشت.

مسيرة الخلاّق

هل تريد، يا أخي، أن تتجه إلى العزلة؟ هل تريد البحث عن طريق يقودك إلى نفسك؟ انتظر قليلاً واستمع إلي.

«إن الذي يبحث يَفقِد بسهولة، وكل عزلة تعتبر إثماً» هكذا يقول القطيع. وأنت بقيت زمناً طويلاً تنتمي إلى القطيع.

إن صوت القطيع سيبقى يرن في داخلك! وعندما تقول: «لدي أكثر من ضمير معكم» فذلك سيكون شكوى ومعاناة.

انظر، فهذه المعاناة قد تولدت عن الضمير الموحد، وما زال آخر بريق لهذا الضمير يضيء داخل حزنك.

فهل تريد أن تتبع صوت حزنك الذي هو الطريق الموصل إلى نفسك؟

أظهر لي حقك بذلك وقوتك!

فهل تمثل قوة جديدة وحقاً جديداً؟ وحركة بادئة؟ وعجلة ذاتية الدوران؟ وهل تستطيع أن تجعل النجوم تدور من حولك؟

آه، يا لكثرة الطامعين بالعلو! ويا لكثرة تشنجات محبي الرفعة! أثبت لي أنك لست من الطامعين ولا من محبي الرفعة!

آه، كم هي كثيرة الأفكار العظيمة، التي لا تفعل أكثر من منفاخ الحداد، فهي تنفتح وتزيد من فراغ الشيء.

هل تسمي نفسك حراً؟ أريد أن أسمع فكرتك الرئيسية، ولا أريد أن أسمع بأنك نزعت عن نفسك النير.

فهل أنت من الذين يملكون الحق في نزع النير عن أنفسهم؟ فليسوا قلائل من فقدوا قيمتهم الأخيرة عندما تحرروا من عبوديتهم.

حر من ماذا؟ وما شأن زرادشت بهذا! ولكن نظرتك النقية يجب أن تخبرني، لأجل ماذا أنت حر؟ هل تستطيع أن تخلق لنفسك خيرك وشرك وتفرض على نفسك إرادتك كالقانون؟

وهل تستطيع أن تكون قاضياً ومنتقماً لقانونك؟

من المرعب التواجد وحيداً مع القاضي والمنتقم من قانونه الذاتي. فهكذا ترمى النجمة في الفضاء الفارغ وفي أنفاس العزلة المتجمدة.

ما زلتَ حتى اليوم تعاني من الكثرة، أنت المنعزل، وما زلت تحتفظ بكامل رجولتك وآمالك.

ولكنك ستتعب من عزلتك يوماً ما، وسينحني كبرياؤك وتهتز رجولتك يوماً. فتصيح في ذلك اليوم: «إنني وحيد».

في يوم ما لن ترى علوك، وستكون دناءتك قريبة جداً منك، وسيخيفك علوك كما يخيفك الشبح، فتصيح في ذلك اليوم: «كل شيء كذب!».

هناك مشاعر تهدد بقتل المنعزل، فإذا عَجِزَتْ عن قتله، عليها أن تموت! وأنت هل تستطيع أن تكون قاتلاً؟

هل تعرف يا أخي كلمة «الاحتقار»؟ وهل تعرف عذاب عدالتك، في أن تكون عادلاً تجاه الذين يحتقرونك؟

إنك تجبر الكثيرين على تغيير رأيهم بك، فيجعلون هذا الأمر ذنباً من ذنوبك. لقد اقتربت منهم كثيراً وعلى الرغم من ذلك تجاوزتهم متجاهلاً إياهم، ولن يسامحوك على ذلك أبداً.

أصبحت أكثر رفعة منهم، ولكنك كلما صعدت أكثر كلما بدوت أصغر في عيني الحسد، وأكثر ما يكرهونه هو ذاك الذي يطير.

«بأي شكل أردتم أن تكونوا عادلين معي! - يجب أن تقول - فأنا أختار لنفسي ظلمكم كنصيبي المكتوب».

إنهم يرمون الظلم والقذارة في إثر المنعزل. ولكن يا أخي، إذا أردت أن تكون نجمة، فعليك أن تضيء لهم على الرغم من كل شيء!

احذر الطيبين والأتقياء! فهم يحبون صَلْبَ الذين يبتكرون لأنفسهم فضيلتهم الخاصة، إنهم يكرهون المنعزل.

احذر كذلك البساطة المقدسة! فبالنسبة لها يعد كفراً كل ما هو معقد، لأنها تحب اللعب مع النار.

واحذر كذلك نوبات حبك! إذ يسارع المنعزل بمد يده لكل من يصادفه.

فهناك من يجب أن تتجنب مد يدك له، بل عليك أن تمد له كفك، وأود أن يكون لكفك مخالب.

ولكن أخطر أعدائك، من بين جميع الأعداء الذين يمكن أن تصادفهم، ستكون أنت دائماً، فأنت تتربص لنفسك في المغاور والغابات.

أيها المنعزل، إنك تسير في الطريق الذي يقودك إلى نفسك! وطريقك يتقدمك أنت وشياطينك السبعة!

ستكون لنفسك مرتداً ومشعوذاً وعالماً بالغيب ومجنوناً ومرتاباً وكافراً وشريراً.

يجب أن تحرق نفسك في نيرانك الذاتية، فكيف يمكنك أن تتجدد إذا لم تتحول إلى رماد أولاً!

أيها المنعزل إنك تسير على درب الخلاق، وتريد أن تخلق لنفسك رباً من شياطينك السبعة.

أيها المنعزل، أنت تسير في طريق المحب، إذ تحب نفسك ولهذا تحتقر نفسك، كما يحتقر المحبون.

إن المحب يريد الخلق، لأنه يَحتَقِر! فماذا يعرف عن المحبة، الذي لم يتوجب عليه احتقار ما أحب!

احمل محبتك وقوتك الخلاقة وسر نحو عزلتك يا أخي، وبعد ذلك فقط ستتبعك العدالة وهي تعرج.

خذ دموعي معك إلى عزلتك يا أخي، فأنا أحب من يود أن يخلق شيئاً أكبر منه فيموت بهذه الطريقة.

هكذا تكلم زرادشت.

النساء الهرمات والشابات

«لماذا تتسلل بوجل في الظلام يا زرادشت؟ وما الذي تخبئه بعناية داخل معطفك؟

فهل تخبئ كنوزاً مهداة إليك؟ أم تخبئ مولودك الجديد؟ أم أنك أصبحت أيضاً تسير في طريق اللصوص، وبت صديقاً للأشرار؟»

حقاً، يا أخي - أجاب زرادشت - إنه كنز كبير مهدى إلي، إنها حقيقة صغيرة أحملها، ولكنها مقلقة كطفل صغير، ولولا أنني أغلقت فمها لبقيت تصيح بملء فمها.

فعندما سرت اليوم وحيداً في طريقي، وفي ساعة غروب الشمس، التقيت عجوزاً كلَّمت نفسي، فقالت: «قد حدثنا زرادشت عن أمور كثيرة، نحن النساء، ولكنه لم يحدثنا أبداً عن المرأة».

فأجبتها معترضاً: «إن الحديث عن المرأة لا يذكر إلا للرجال».

«وأنا أيضاً يمكنك أن تحدثني عن المرأة - قالت العجوز - فأنا عجوز كفاية لأنسى كل شيء فوراً».

فلبيت طلب العجوز وقلت لها: «كل شيء في المرأة لغز وكل الألغاز في المرأة لها حل ويدعى الحمل.

إن الرجل بالنسبة للمرأة وسيلة، بينما الهدف هو الطفل، ولكن ماذا تمثل المرأة بالنسبة للرجل؟

إن الرجل الحقيقي يرغب بأمرين، المغامرة الخطرة واللعب، ولهذا يريد المرأة كأخطر لعبة. إن الرجل يجب أن يربى لأجل الحرب، والمرأة لأجل راحة المحارب، وكل ما تبقى جنون. إن المحارب لا يحب الثمار شديدة الحلاوة، ولهذا يحب المرأة، فأكثر النساء حلاوة لا زالت تمتلئ مرارة.

إن المرأة تفهم الأطفال أكثر من الرجل، ولكن الرجل هو طفل أكثر من المرأة. إذ يختبئ طفل داخل الرجل الحقيقي، وهذا الطفل يود اللعب. آه، أيتها النساء، اعثرن على الطفل داخل الرجل!

فلتكن المرأة لعبة نقية ورقيقة، كالألماس الذي يلمع بنور الفضائل الخاصة بالعالم الذي لم يأت بعد.

وليشع شعاع النجمة في محبة المرأة! وليكن أملها: «آه، يا ليتني ألد الإنسان الخارق!»

لتتسم محبتها بالشجاعة! ولتَدُسْ بمحبتها على من يشعرها بالخوف.

فلتحمل محبتها الشرف! على الرغم من أن المرأة قليلاً ما تفقه في الشرف. ولكن ليكن شرفها دائماً في أن تفوق محبتها التي تمنحها، المحبة التي تتلقاها، وألا تكن أبداً في المرتبة الثانية.

فليخش الرجل المرأة عندما تحب، لأنها مستعدة لتقديم كل التضحيات، وكل شيء آخر لا يعود له قيمة عندها.

وليخش الرجل المرأة عندما تكره، لأن الرجل ما زال في أعماق نفسه حاقداً، والمرأة ما زالت في أعماق نفسها قبيحة.

من تكره المرأة أشد الكره؟

قال الحديد للمغناطيس: «أنا أكرهك أشد الكره لأنك تجذبني، ولكن قوتك ليست كافية لتسحبني إليك».

إن سعادة الرجل اسمها "أنا أريد"، وسعادة المرأة اسمها "هو يريد".

«انظر، الآن فقط، أصبح العالم كاملاً!» - هكذا تفكر كل امرأة عندما تطيع بكامل محبتها.

يجب على المرأة أن تطيع وأن تعثر على عمق لسطحيتها. فالسطحية هي نفس المرأة المتحركة وهي الطبقة الفوارة الهائجة في الماء الضحل.

«ولكن نفس الرجل عميقة ويسيل سيلها الهائج في المغاور العميقة تحت الأرض، والمرأة تشعر بقوته ولكنها لا تفهمها».

وعندها قالت لي العجوز: «لقد حدثتني يا زرادشت عن الكثير من الأمور الممتعة، ولاسيما بالنسبة للذين ما زالوا في سن الشباب المناسب لهذه الأمور.

غريب، فزرادشت قليلاً ما يعرف المرأة، وعلى الرغم من ذلك فهو محق فيما يتعلق بها، أليس سبب ذلك هو عدم وجود المستحيل عند المرأة؟

فتقبل مني الآن هذه الحقيقة الصغيرة كشكر مني! فأنا أصبحت هرمة جداً بالنسبة لها! لفها جيداً وأغلق فمها، وإلا فإن هذه الحقيقة الصغيرة ستصيح بملء فمها».

«أعطني أيتها المرأة حقيقتك الصغيرة!» - قلت لها.

فقالت العجوز: «هل أنت ذاهب إلى النساء؟ إذاً لا تنس السوط!».

هكذا تكلم زرادشت.

لسعة الأفعى[1]

في إحدى المرات نام زرادشت في ظلال شجرة التين، لأن الجو كان حاراً، ووضع يده فوق وجهه، فزحفت إليه أفعى ولسعته في عنقه، فصاح زرادشت من شدة الألم ثم أبعد يده عن وجهه ونظر إلى الأفعى، فعرفت الأفعى عيني زرادشت، واستدارت بحركة خرقاء ساعية إلى الهرب. «انتظري - قال زرادشت - فلم أشكرك بعد! لقد أيقظتني في الوقت المناسب، فطريقي لا يزال طويلاً». «لقد أصبح طريقك قصيراً - ردت الأفعى بحزن - لأن سمي قاتل». فابتسم زرادشت وقال: «منذ متى كان التنين يموت من سم أفعى؟ ولكن تعالي واسترجعي سمّك! فأنت لست غنية كفاية لتهديني إياه»، وعندها عادت الأفعى وأحاطت بعنقه وأخذت تلعق جرحه.

وعندما روى زرادشت في إحدى المرات هذه القصة لتلاميذه سألوه: «أين هي العِظَة الأخلاقية في قصتك يا زرادشت؟» فأجابهم زرادشت:

- إن الطيبين الأتقياء يدعونني بمدمر الأخلاق، ويسمون قصتي فسقاً.

فإذا كان لديك عدو لا تدفع له ثمن شره بالخير، لأن هذا سيخجله. بل على العكس، أثبت له أنه فعل لك خيراً.

و الأفضل أن تَغضَب من أن تُخجِل! ولا يعجبني أن يلعنكم بعضهم فتظهر لديكم الرغبة بمباركتهم، فالأفضل أن تلعنوا أيضاً قليلاً!

وإذا تعرضتم لظلم كبير، أسرعوا في ارتكاب خمس مظالم صغيرة! فمن المرعب أن ترى كيف يضغط الظلم على شخص معين لوحده.

فهل كنتم تعلمون ذلك؟ فالظلم الذي يتم تقاسمه مع الآخرين يصبح نصف الحق. ويتوجب على من يقدر تحمل الظلم أن يأخذ قسماً منه على نفسه!

إن الانتقام الصغير أكثر إنسانية من غياب الانتقام ككل، وإذا لم يكن العقاب حقاً وشرفاً للظالم، فإنني لا أريد عقابكم.

إن إدانة النفس أكثر نبلاً من تبرئتها، ولاسيما إذا كان الشخص على حق، ولكن هذا الأمر يتطلب أن يكون الإنسان غنياً كفاية.

أنا لا أحب عدالتكم الباردة، ففي عيون فضائلكم يتراءى لي دائماً الجلاد وسكينه الباردة.

أخبروني أين يوجد العدل الذي هو محبة لها عينان تبصران الغيب؟

اعثروا لي على المحبة التي لا تحمل العقوبة فقط، بل وتحمل الذنب أيضاً!

اعثروا لي على العدالة التي تبرئ الجميع ما عدا القضاة!

فهل تريدون أن تسمعوا هذا الأمر أيضاً؟ إن الذي يريد أن يكون عادلاً تماماً، حتى الكذب يتحول عنده إلى محبة تجاه البشرية.

ولكن كيف السبيل لأن أكون عادلاً تماماً! وكيف يمكنني أن أعطي كل إنسان حقه! فأنا يكفيني أن أمنح كل شخص ما هو لي.

وأخيراً يا أخوتي، تجنبوا أن تكونوا ظالمين مع النساك! فكيف يمكن للناسك أن ينسى! وكيف يمكنه أن يجازيك!

إن الناسك يشبه النبع العميق، إذ يسهل رمي الحجر فيه، ولكن إذا سقط الحجر إلى قاع النبع من سيرغب بإعادته؟

تجنبوا الإساءة للناسك! وإذا أسأت له اقتله!

هكذا تكلم زرادشت.

الطفل والقران

لدي سؤال أطرحه عليك يا أخي، أرميه كثقل من الرصاص في أعماق نفسك، لأعرف مدى عمقها.

فأنت شاب وترغب في الزواج وفي إنجاب الأطفال. ولكنني أسألك: هل أنت إنسان لدرجة كافية كي تمتلك الحق في أن ترغب في إنجاب طفل!

فهل أنت منتصر، وهل تغلبت على نفسك، وهل أنت آمر أحاسيسك، وسيد فضائلك؟ هكذا أسألك. أم إنه صوت الحيوان والحاجة؟ أم هو خوف من الوحدة؟ أم عدم الرضا بالذات؟

أنا أريد أن يرغب نصرك وحريتك الطفل بكل قوة، وعليك ببناء تماثيل حية لنصرك وتحررك.

عليك ببناء ما يتفوق عليك، ولكنك أولاً يجب أن تبني نفسك بناء صحيحاً فيما يتعلق بالجسد والنفس.

ويجب ألا ينحصر نموك عرضانياً، بل عليك أن تنمو نحو الأعلى! وليساعدك في ذلك بستان زواجك!

عليك بخلق الجسد الأعلى، أي الحركة البادئة والعجلة ذاتية الدوران، عليك بخلق الخلاق.

القران، هكذا أسمي إرادة اثنين في خلق الثالث، الذي سيتفوق على اللذين خلقاه. إنني أدعو احترامهما العميق لبعضهما بعضاً بصفتهما يرغبان الرغبة ذاتها.. بالقران.

فليكن ذلك مغزى وحقيقة قرانك! أما الذي تدعوه الكثرة الكثيرة من الناس الزائدين بالقران، آه، كيف سأدعوه؟

آه، إنه فقر النفس بين الاثنين! آه، إنه قذارة النفس عند الاثنين! آه، إنه رضا حقير بالذات عند الاثنين!

إنهم يطلقون تسمية القران على كل ذلك، ويدَّعون أن عقود قرانهم أبرمت في السماء.

حسناً، ليكن ذلك، فأنا لا أريد هذه السماء الخاصة بالناس الزائدين! لا، لست بحاجة لهذه الحيوانات العالقة في شراك السماء!

وليبق بعيداً عني الرب الذي يمشي أعرجَ ليبارك ما لم يجمعه!

لا تسخروا من هذه العقود! فأي طفل ليس لديه مسوغ ليبكي بسبب والديه؟

قد بدا لي ذلك الإنسان قديراً وناضجاً أمام مغزى الأرض، ولكنني عندما رأيت زوجته بدت لي الأرض بيتاً للمجانين.

نعم، أود لو أن الأرض تهتز متشنجة عندما يعقد القديس قرانه على إوزة.

أحدهم خرج كالبطل يبحث عن الحقيقة، فحصل لنفسه في النهاية على كذبة صغيرة متشنجة دعاها بالقران.

وآخَر كان حذراً في تعامله ودقيقاً في اختياره، ولكنه في لحظة واحدة أساء إلى معشره وسمى ذلك بالقران.

وثالث كان يبحث عن خادمة لها فضائل الملاك، ولكنه تحول في لحظة واحدة إلى خادم للمرأة، وكان عليه بعد ذلك أن يصبح ملاكاً.

قد وجدت جميع المشترين حذرين، وكانت عيونهم ماكرة. ولكن حتى أمكر الماكرين بينهم كان يشتري لنفسه زوجة دون أن يراها.

إن ما تدعونه بالمحبة هو عدد من لحظات الجنون القصيرة، فيأتي قرانكم كحماقة واحدة طويلة، ليضع نهاية للحظات الجنون القصيرة الكثيرة.

إن محبتك لزوجتك ومحبة الزوجة لزوجها، آه، لو كان بالإمكان أن تتحول إلى رأفة تجاه الآلهة الخفية التي تعاني! ولكن كل زوجين من الحيوانات ينجذبان إلى بعضهما بعضاً دائماً.

وحتى محبتك المثلى ليست إلا رمزاً يمتلئ نشوة وحماساً مريضاً. إن المحبة هي الشعلة التي يجب أن تنير لك دروبك العليا.

في يوم ما ستضطر إلى محبة الأمور التي تتجاوزك! فابدأ بتعلم المحبة! ولهذا عليك أن تشرب كأس محبتك المر.

إن المرارة موجودة في أفضل كؤوس الحب، فبهذه الطريقة توقظ السعي تجاه الإنسان الخارق، وبهذه الطريقة توقظ فيك السعي، أيها الخلاق!

إن السعي في نفس الخلاق هو السهم الموجه نحو الإنسان الخارق، فأخبرني يا أخي هل هذا ما تقصده بالقران؟

مقدسة بالنسبة لي إرادة كهذه ومقدس قران كهذا.

هكذا تكلم زرادشت.

الموت الحر

كثيرون يموتون متأخرين، والبعض يموت قبل الأوان. والأكثر غرابة هو قول: «مُتُّ في الوقت المناسب!»

مُتْ في الوقت المناسب: هكذا يُعلِّم زرادشت.

ومن الطبيعي أن الذي لم يعش أبداً في الوقت المناسب، يستحيل عليه أن يموت في الوقت المناسب، والأفضل له ألا يولد أبداً! هذه نصيحتي للناس الزائدين.

فحتى الناس الزائدون يتبخترون بموتهم، وأكثر ثمرات الجوز خلواً تريد أن يتم قضمها.

الجميع يتعامل مع الموت بجدية، ولكن الموت لم يصبح عيداً بعد، فلم يتعلم الناس بعد تمجيد أكثر الأعياد نوراً.

إنني أريكم الموت المثالي، فهو بالنسبة للأحياء يصبح لدغة وعهداً مقدساً.

إن الذي أكمل طريقه يموت ميتة طبيعية، إذ يموت منتصراً ومحاطاً بالذين يأملون ويتعهدون بالعهد المقدس.

يجب تعلم الموت، ويجب ألا يقام العيد حيث لم يقدس الميت أيمان الأحياء!

إن الموت بهذه الطريقة هو الأمثل، ويتبعه الموت في حالة الصراع وبذل النفس العظيمة.

ولكن المقاتل والمنتصر كليهما يكرهان موتك الذي يكشر عن أنيابه ويتسلل كاللص، وعلى الرغم من ذلك يدخل كالمنتصر.

إنني أمتدح لكم موتي، ذلك الموت الحر، الذي يأتيني لأنني أريده.

فمتى سأرغب بقدوم الموت؟ إن الذي لديه هدف وخَلَف ذاك يريد الموت في الوقت المناسب بالنسبة للهدف والخَلَف.

وبسبب احترامه العميق للهدف والخَلَف فإنه لن يعلق الأكاليل الجافة في معبد الحياة.

حقاً، لا أريد أن أشبه الذين يفلتون الحبل، إنهم يسحبون خيوطهم طولياً، وفي الوقت نفسه يتراجعون باستمرار.

وآخرون يصبحون بالنسبة لحقائقهم وانتصاراتهم هرمين جداً، فالفم الخالي من الأسنان لا يمتلك الحق في الحصول على جميع الحقائق.

وعلى كل راغب بالمجد أن يعرف كيف يودع التكريم في الوقت المناسب ويتقن الفن الصعب، أي المغادرة في الوقت المناسب.

يجب منع الآخرين من التهامك عندما يجدونك لذيذاً بشكل خاص، وهذه الحقيقة يعرفها الذين يريدون أن يكونوا محبوبين لفترة طويلة.

وهناك بالطبع تفاحات حامضة، نصيبها أن تنتظر حتى آخر أيام الخريف، وخلال هذه الفترة تنضج وتصبح صفراء اللون ومتغضنة.

بعضهم تشيخ قلوبهم أولاً، وآخرون تشيخ عقولهم، وبعضهم يكونون هرمين في شبابهم، ولكن الذي يحتفظ بشبابه لعمر متقدم يبقى شاباً لفترة طويلة.

وآخر يفشل في الحياة، لأن الدودة السامة تأكل قلبه، فليسع لقدوم الموت بالطريقة المثلى.

وآخر لا يكون حلو الطعم أبداً، لأنه يتعفن في الصيف، وجبنه وحده يبقيه معلقاً بالغصن.

تعيش الكثرة الكثيرة، وتبقى مدة طويلة جداً عالقة بأغصانها، فلتأتِ العاصفة وتنزع عن الشجرة ما هو عفن تأكله الديدان!

آه، يا ليت دُعاة الموت السريع يأتون! لكانوا عاصفة حقيقية تضرب أغصان الحياة! ولكنني لا أسمع سوى دعوة إلى الموت البطيء وصبراً تجاه ما هو «أرضي».

آه، أنتم تدعون للصبر على كل ما هو أرضي؟ ولكن هذه الأمور الأرضية صار لها فترة طويلة وهي صابرة عليكم، أيها الخارجون عن الدين!

حقاً، لقد مات باكراً ذلك اليهودي، الذي يمجده دعاة الموت البطيء، ومنذ ذلك الحين أصبح موته المبكر مأساة بالنسبة للكثيرين.

لم يعرف غير دموع وحزن اليهودي، مع الكراهية التي يشعر بها الطيبون الأتقياء، وعندها داهمته رغبة شديدة بالموت.

لماذا لم يبق في صحرائه بعيداً عن الطيبين والأتقياء! لربما تعلم الحياة وتعلم محبة الأرض، وإلى جانب ذلك تعلم الضحك.

صدقوني يا أخوتي! لقد مات باكراً جداً، وإلا لكان ارتد بنفسه عن تعاليمه، لو أنه وصل إلى مثل سني! ولكنه كان نبيلاً جداً كي يتنازل عن عقائده!

ولم يكن ناضجاً بعد، فمحبة الشاب غير ناضجة، وكرهه للإنسان والأرض غير ناضج، فما زالت نفسه وجناحاه مقيدين ومثقلين.

ولكن الرجل الناضج هو طفل يفوق الشاب في طفولته، ويقل الحزن في داخله، لأنه يفهم الموت والحياة فهماً أفضل.

الحر تجاه الموت والحر في موته، يقول قول «لا» المقدس، عندما لا يبقى هناك وقت لقول «نعم»، فهكذا يَفهمُ الموتَ والحياةَ.

أرجوا ألا يكون موتكم انتقاصاً للأرض والإنسان، يا أصدقائي، فهذا ما أرجوه من عسل أنفسكم.

يجب أن تبقى روحكم وفضيلتكم متوهجة في موتكم، كما يتوهج شفق المساء على الأرض، وإلا فإن نجاحكم في الموت يكون ضئيلاً.

فأنا أريد أن أموت بهذه الطريقة، كي تزداد يا أصدقائي محبتكم للأرض من أجلي، وأريد أن أعود إلى الأرض كي أجد الراحة عند التي ولدتني.

حقاً، كان عند زرادشت هدف، فقد رمى كرته، فلترِثوا يا أصدقائي هدفي، ومن أجلكم أرمي كرتي الذهبية.

إن أكثر ما أحبه هو النظر إليكم يا أصدقائي عندما ترمون الكرة الذهبية! ولهذا سأبقى لفترة قصيرة بعد فوق هذه الأرض، ولتسامحوني على ذلك!

هكذا تكلم زرادشت.

الفضيلة المانحة

١

عندما ودع زرادشت المدينة التي أحبها قلبه والتي كانت تدعى «البقرة المبرقشة»، تبعه الكثيرون ممن سموا أنفسهم تلاميذاً له، وشكلوا حاشية له. وهكذا ساروا إلى أن وصلوا إلى مفرق طرق، وعندها قال لهم زرادشت إنه يريد متابعة المسير وحيداً، لأنه يحب السير وحيداً. فأعطاه تلاميذه عند الوداع عصى لها مقبض ذهبي عليها أفعى تلتف حول الشمس.

سعد زرادشت بالعصا واستند إليها، ثم قال لتلاميذه:

- أخبروني، كيف أصبح الذهب يحتل مرتبة القيمة المادية العليا؟ لأنه فريد وبلا نفع، براق وقصير في بريقه، إنه دائماً يهب نفسه.

لم يصل الذهب إلى مستوى القيمة العليا إلا كمركز للفضيلة العليا، فنظرة الواهب تضيء كالذهب، وبريق الذهب يعقد السلام بين القمر والشمس.

إن الفضيلة العليا فريدة وعديمة النفع، براقة وقصيرة في بريقها. إن الفضيلة الواهبة هي الفضيلة العليا.

حقاً، إنني أكتشف سعيكم يا تلاميذي، فأنتم مثلي تسعون نحو الفضيلة الواهبة. فما المشترك بينكم وبين الهررة والذئاب؟

إنكم تتعطشون للتضحية بأنفسكم ووهبها، ولهذا ترغبون بجمع الثروات كلها في نفوسكم.

إن أنفسكم تسعى بنهم نحو الكنوز ونحو كل ما هو ثمين، لأن فضيلتكم لا تشبع من رغبتها في العطاء.

إنكم تجبرون جميع الأشياء على الاقتراب منكم والدخول فيكم، كي تعود لتسيل من نبعكم كهبات تهبها محبتكم.

حقاً، يجب أن تتحول هذه المحبة المانحة إلى سارقة لجميع الكنوز، ولكنني أدعو هذه الأنانية بالسليمة والمقدسة.

وهناك أنانية أخرى، بالغة الفقر والجوع، ترغب دائماً بالسرقة، إنها أنانية المرضى والمصابين بمرض الأنانية.

إن هذه الأنانية تنظر بعين السارق إلى كل ما هو براق، وتقيس بمقياس جشعِ الجوع كل من يستطيع أن يأكل أكلاً فاخراً، فهذه الأنانية تزحف دائماً حول موائد الواهبين.

المرض والتعبير غير المرئي ينطقان في هذا الجشع، فجشع السارق عند هذه الأنانية يتحدث حول الجسد المعتل.

أخبروني يا أخوتي، ما الذي تعتبرونه سيئاً وما هو الأشد سوءاً؟ وهل يعد ذلك انحلالاً؟ فنحن نفترض دائماً وجود الانحلال حيث لا تتواجد الأنفس المانحة. إن دربنا يتجه نحو الأعلى من عرق إلى آخر يفوقه علواً، ولكن ما يرعبنا هو الشعور المنحل، الذي يقول: «كل شيء من أجلي».

إن إحساسنا يطير نحو الأعلى، لأنه رمز لجسدنا ورمز لعلونا. فرموز هذا العلو هي مغزى أسماء الفضائل.

هكذا يمر الجسد عبر التاريخ، فهو يولد ويكافح. فما هي الروح بالنسبة للجسد؟ إنها بشيرة معاركه وانتصاراته، إنها الرفيقة والصدى.

إن أسماء الخير والشر كلها رموز، فهي لا تعبر عن شيء، لأنها ليست إشارات. والمجنون فقط من يريد إدراكها.

كونوا منتبهين يا أخوتي إلى كل ساعة ترغب فيها روحكم في التحدث بلغة الرموز، لأنه في تلك اللحظات تتشكل فضائلكم.

عندها علا جسدكم وبُعث من جديد، وبسلوته جذب إليه الروح، حتى أصبحت خلاقة ومُقَدِّرة ومحبة ومحسنة إلى جميع الأشياء.

عندما ينبض قلبكم باتساع وامتلاء، كالسيل الهائج الذي يعد خَيْراً وخَطَراً لمن يحيا على ضفتيه، عندها تتولد فضائلكم.

عندما علوتم فوق المدح والذم وأرادت إرادتكم كإرادة المحب أن تأمر جميع الأشياء، عندها بدأت تتولد فضائلكم.

عندما تحتقرون السرير الناعم وكل ما هو مريح، وفي مقدوركم الاستراحة في مكان بعيد كفاية عن المرفهين، عندها تتولد فضائلكم.

عندما تتوحد إرادتكم، وتسمون هذا التغيير في جميع حاجاتكم بالضروري، عندها تتولد فضائلكم. حقاً، هذا هو الخير الجديد والشر الجديد! حقاً، هذا هو صوت ا لخرير العميق الجديد للنبع الجديد!

إن هذه الفضيلة الجديدة تعتبر سلطة وفكرة مسيطرة، وتحيط بها النفس الحكيمة، فهما كالشمس الذهبية التي تحيط بها أفعى المعرفة.



وهنا سكت زرادشت للحظة ونظر بمحبة إلى تلاميذه، ثم تابع حديثه وتغيرت نبرة صوته:

- ابقوا أوفياء للأرض، يا أخوتي، بكامل سلطة فضيلتكم! ولتخدم محبتكم المانحة ومعرفتكم كلها مغزى الأرض! فهذا ما أطلبه منكم وأستحلفكم به. ولا تسمحوا لفضيلتكم بالتحليق بعيداً عن الأرض وضرب أجنحتها بالجدران الخالدة! آه، دائماً كان هناك الكثير من الفضائل التي طارت بعيداً!

أعيدوا مثلي الفضيلة المبتعدة إلى الأرض من جديد. نعم، أعيدوها إلى جسد الحياة، كي تعطي مغزاها للأرض، ذلك المغزى الإنساني!

مئات المرات طارت الروح والفضيلة وما زالتا تتوهمان حتى اليوم. آه، ما زال الخداع والوهم يعيشان في أجسادكم، وقد تحولا إلى جسد وإرادة.

مئات المرات قامت الروح والفضيلة بمحاولاتهما وما زالتا تتوهمان حتى اليوم. نعم، كان الإنسان هو المحاولة. آه، فالكثير من الجهل والوهم تحولا في داخلنا إلى جسد!

وليس عقل آلاف السنين فقط يشق طريقه فينا، بل وجنون آلاف السنين، فمن الخطر أن تكون وريثاً.

ما زلنا نتصارع خطوة إثر خطوة مع عملاق المصادفة، وما زالت اللامعقولية تسود فوق البشرية كلها حتى الآن.

فلتخدم، يا أخوتي، روحكم وفضيلتكم مغزى الأرض، ولتعيدوا من جديد القيم إلى جميع الأشياء! ولهذا يجب أن تكونوا مصارعين دوماً! ولهذا يجب أن تكونوا خلاقين!

إن الجسد يطهر نفسه عبر المعرفة، فهو يسمو في سعيه تجاه الإدراك، وجميع الدوافع مقدسة عند الساعي إلى الإدراك والمعرفة، ونفس الذي يسمو تصبح مليئة بالفرح.

أيها الطبيب اشف نفسك أولاً وعندها ستشفي مريضك، فأفضل مساعدة للمريض هي أن يرى بأم عينيه شخصاً شفى نفسه.

توجد الآلاف من الطرقات التي لم يمش فيها أحد ويوجد آلاف من الطباع السليمة وجزر الحياة الخفية. فما زال الإنسان وأرض الإنسان لم يكتشفا بصورة كاملة وبكل أسرارهما.

أيها المنعزلون كونوا يقظين وأنصتوا! إذ تهُب من المستقبل ريح خفية، والخبر الطيب يبحث عن آذان منصتة.

أنتم الذين ما زلتم في عزلتكم إلى اليوم، أنتم أيها القاطنون بعيداً، ستكونون شعباً في يوم ما، ومنكم يجب أن ينشأ الشعب المختار، يا من اخترتم أنفسكم، وينشأ الإنسان الخارق من هذا الشعب المختار.

حقاً، سيتوجب على الأرض أن تصبح مكاناً للشفاء! وها قد بدأ أريج جديد ينشر عطره حولها، فيجلب الشفاء والأمل الجديد!



وبعد أن قال زرادشت قوله هذا صمت وكأنه لم يقل كلمته الأخيرة، وبقي يحمل عصاه بتردد فترة طويلة. وأخيراً تحدث وتغيرت نبرة صوته:

- يا تلاميذي، الآن سأغادر وحدي! فغادروا أنتم أيضاً لوحدكم! هذا ما أريده.

حقاً، أنصحكم بمغادرتي وحماية أنفسكم من زرادشت! والأفضل من ذلك أن تخجلوا به! فربما قام بخداعكم.

إن إنسان المعرفة يجب أن يحب أعداءه، وألا يقتصر الأمر على ذلك بل يتجاوزه إلى إتقانه لكرهه لأصدقائه.

إن التلميذ الذي يبقى إلى الأبد تلميذاً يكافئ أستاذه مكافأة سيئة. فلماذا لا ترغبون بانتزاع أزهار إكليلي؟

أنتم تكنون لي الاحترام، ولكن ماذا سيحدث إذا تلاشى احترامكم لي؟ احذروا ألا يقتلكم معبودكم!

أنتم تقولون بأنكم تؤمنون بـ زرادشت؟ ولكن ما الفائدة من زرادشت! أنتم يا أيها المؤمنون بي، ولكن ما الفائدة من جميع المؤمنين!

أنتم لم تبدؤوا بعد بالبحث عن أنفسكم حين وجدتموني. هكذا يتصرف المؤمنون جميعهم لأن كل أنواع الإيمان ضئيلة في أهميتها.

وإنني آمركم الآن بنسياني وإيجاد أنفسكم، وفقط عندما تتخلون عني جميعكم سأعود إليكم.

حقاً، سأبحث حينئذ عن الذين أضعتهم، بعيون مختلفة يا أخوتي، وسأحبكم عندها محبة مختلفة.

وسيتوجب عليكم في يوم ما أن تصبحوا أصدقاء لي وأولاداً لأمل واحد، وعندها سأرغب لثالث مرة في التواجد بينكم، كي أحتفل معكم بساعة الظهيرة العظيمة.

إن ساعة الظهيرة العظيمة هي عندما يقف الإنسان في منتصف طريقه بين الحيوان والإنسان الخارق ويحتفل بدربه نحو المغيب كأمل أعلى لديه، لأنه الطريق إلى صباح جديد.

وعندها يبارك السائر نحو الغروب نفسه لأنه كان درجة انتقالية، وستبقى شمس معرفته عنده في ساعة الظهيرة.

«ماتت جميع الآلهة، والآن نريد أن يعيش الإنسان الخارق» - هكذا يجب أن تكون إرادتنا الأخيرة في ساعة الظهيرة العظيمة.

هكذا تكلم زرادشت.

الجزء الثاني

... فقط عندما تتخلون عني جميعكم، سأعود إليكم.

حقاً، سأبحث حينئذ عن الذين أضعتهم، بعيون مختلفة يا أخوتي،

وسأحبكم عندها محبة مختلفة.

«زرادشت» الجزء الأول

الطفل والمرأة

لقد عاد زرادشت ثانية إلى الجبال، إلى عزلة مغارته، وأخذ يتجنب الناس، فجلس ينتظر كالزارع الذي يزرع البذار. ولكن نفسه كانت تمتلئ بقلة الصبر وبرغبة عنيفة في رؤية الذين أحبهم، لأنه ما زال في مقدوره منحهم الكثير، وهذا الأمر صعب بشكل خاص، أن تشد على اليد الممدودة بمحبة وتحتفظ بالخجل كالمانح.

هكذا مرت الشهور والسنون عند المنعزل، ولكن حكمته كانت تنمو وتسبب له المعاناة بمفردها.

ولكنه في صباح أحد الأيام استيقظ قبل الفجر بفترة زمنية طويلة، وجلس يتذكر أمراً ما فوق سريره، وأخيراً قال في نفسه:

- ما الذي أخافني إلى هذه الدرجة كي يوقظني من نومي؟ ألم يقترب مني طفل يحمل مرآة؟

«آه، يا زرادشت - قال لي الطفل - انظر إلى نفسك في المرآة!»

فنظرت إلى نفسي في المرآة وخرجت مني صيحة وارتعش قلبي، لأنني لم أر نفسي في المرآة، بل رأيت شيطاناً وابتسامته اللاذعة.

حقاً، إنني أفهم جيداً دلالة الأحلام وتحذيراتها، فتعاليمي في خطر، والأعشاب الضارة ترغب في أن تسمى قمحاً.

إن أعدائي أصبحوا أقوياء وشوهوا صورة تعاليمي، فأصبح الذين أحبهم يخجلون من هباتي.

لقد أصبح أصدقائي ضائعين بالنسبة لي، وجاء دوري لأبحث عمن أضعته.

وبعد أن قال زرادشت قوله هذا نهض من مكانه، ولكنه لم ينهض كالخائف الباحث عن الهواء، بل نهض كالنبي والشاعر الذي نزلت عليه الروح. فنظر إليه نسره وأفعته بدهشة، لأن طابع السعادة القادمة غطى وجهه كفجر الصباح.

ما الذي حل بي يا رفيقيَّ؟ - قال زرادشت - ألم أتحول؟ ألم تأت إليَّ الغبطة كالإعصار الهائج؟

إن سعادتي مجنونة، وستتكلم بجنون، إذ ما تزال يافعة، فعاملوها بصبر!

إنني مجروح بسعادتي، وكل المعذبين يجب أن يكونوا أطباء لي!

أستطيع أن أعود من جديد وأنزل إلى أصدقائي وإلى أعدائي كذلك! عاد في مقدور زرادشت من جديد التحدث والعطاء وفعل الخير لأحبائه.

إن محبتي عديمة الصبر، تفيض سيولها الهائجة من الحواف، وتجري من أعالي القمم إلى الوديان، وإلى الشرق والغرب. فمن قمم الجبال الصامتة والسحاب الرعدي للمعاناة، تنزل نفسي بصخب إلى الوديان.

قد قضيت زمناً طويلاً في الحنين والنظر إلى البعيد، وبقيت زمناً طويلاً أنتمي إلى العزلة، فلم أعد أتقن الصمت.

قد تحولت كلياً إلى ثغر وضجيج جدول يسيل من أعالي الصخور، وإلى الأسفل إلى الوديان أريد أن أرمي خطابي.

فليسقط سيل محبتي إلى حيث لا تقود الطرقات! فمن المستحيل ألا يجد السيل طريقه إلى البحر في نهاية المطاف!

مع أنه توجد في داخلي بحيرة منعزلة ومستقلة بذاتها، ولكن سيل محبتي يجرفها معه نازلاً نحو البحر! إنني أسير في طرقات جديدة، ويأتيني حديث جديد، قد تعبت كما يتعب الخلاقون من الأحاديث القديمة ولم تعد روحي راغبة بانتعال أحذية مهترئة للمشي بها.

يبدو لي جريان الأحاديث كلها بطيئاً جداً، إنني أقفز إلى عربتك أيتها العاصفة! وحتى أنت أريد أن أجلدك بغضبي!

أريد أن أقطع البحار البعيدة كالصرخة والبهجة، إلى أن أعثر على جزر الغبطة، التي تأخر فيها أصدقائي. كما أن أعدائي موجودون بينهم!

أصبحت أحب الذين أستطيع التحدث إليهم! وحتى أعدائي أصبحوا ينتمون إلى غبطتي.

وعندما أريد أن أركب صهوة أكثر خيولي برية ووحشية، فإن رمحي يساعدني أفضل مساعدة، فهو في كل وقت خادمٌ مستعدٌ لقَدَمي.

إنه الرمح الذي به أرمي أعدائي! وكم أنا شاكر لأعدائي، لأنني أستطيع أخيراً رمي الرمح!

لقد كان التوتر في غيمتي قوياً جداً، فأردت وسط القهقهة والبرق أن أغطي الوديان بحبات البَرد، عندها سيتنفس صدري عنيفاً متوعداً، وسيوزع عاصفته بعنف في الجبال، فيأتيه الارتياح.

حقاً، تجيء سعادتي وحريتي مجيء العاصفة!

وليظن أعدائي أن الروح الشريرة، تهيج مغتاظة فوق رؤوسهم.

وحتى أنتم يا أصدقائي ستخافون من حكمتي البرية، وربما تهربون منها مع أعدائي.

آه، يا ليتني استطعت استمالة أصدقائي من جديد بلحن مزمار الراعي، ويا ليت حكمة الأسد لدي تتعلم الزئير برقة! فقد تعلمنا الكثير معاً!

إن حكمتي البرية حَمَلَتْ فوق الجبال المنعزلة، وولدت على الحجارة القاسية أصغر أولادها.

والآن أصبحت تركض مجنونة في الصحراء القاسية وتبحث عن أرض مكسوة بالعشب، تلك هي حكمتي البرية العجوز!

على أرض قلوبكم المعشوشبة، يا أصدقائي! وفوق محبتكم أرادت أن تضع طفلها الحبيب!

هكذا تكلم زرادشت.

الغبطة

تتساقط الثمار عن أشجار التين، وهي ثمار حسنة المنظر وحلوة الطعم، وخلال سقوطها تتقشر الجلدة الحمراء عنها. أنا ريح الشمال بالنسبة للثمار الناضجة.

وهكذا، كثمار شجرة التين، تتساقط هذه الإرشادات إليكم يا أصدقائي، فاشربوا عصيرها وكلوا لبها الحلو! إن الخريف من حولنا والسماء صافية والوقت بعد الظهيرة.

انظروا، إلى هذه الوفرة من حولنا! فمن الجيد النظر إلى البحار البعيدة وسط هذه الوفرة.

في السابق كانوا يقولون: «الرب»، عندما كانوا ينظرون إلى البحار البعيدة، ولكنني أعَلِمُكُم الآن أن تقولوا: «الإنسان الخارق».

إن الرب هو افتراض، ولكنني أريد أن يمتد افتراضكم في حدود إرادتكم الخلاقة.

فهل في مقدوركم خلق الرب؟ إذاً لا تحدثوني عن الآلهة! ولكنكم بلا شك تستطيعون أن تخلقوا الإنسان الخارق.

ربما ليس أنتم يا أخوتي ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا من أنفسكم آباء وأسلافاً للإنسان الخارق وليكن ذلك إبداعكم الأكبر!

إن الرب هو افتراض، ولكنني أريد أن يكون افتراضكم في حدود الإدراك.

فهل في مقدوركم إدراك الرب؟ ولكن ليعني ذلك بالنسبة لكم سعياً نحو الحقيقة، كي يتحول كل شيء إلى مدرك بشرياً، ومرئي بشرياً، ومحسوس بشرياً! وعليكم أن تمعنوا التفكير حتى النهاية في أحاسيسكم الذاتية!

والشيء الذي كنتم تدعونه بالعالَم يجب أن تخلقوه أولاً، ويجب أن يصبح هذا العالَم هو عقلكم وصورتكم وإرادتكم ومحبتكم! وحقاً، هذا من أجل غبطتكم أيها المدرِكون!

وكيف في مقدوركم تحمل الحياة من دون هذا الأمل، أيها المدرِكون؟ عليكم ألا تجانسوا وتشابهوا المستحيل وغير العقلاني.

ولكنني أريد أن أفتح لكم قلبي بشكل كامل يا أصدقائي، فلو أن الآلهة كانت موجودة، لما كان في مقدوري ردع نفسي من ألا أكون إلهاً! وبالتالي، فلا وجود للآلهة.

في الحقيقة أنا الذي توصلت إلى هذا الاستنتاج، ولكنه ينقذني الآن.

إن الرب افتراض، ولكن من الذي كان سيشرب كل المعاناة من هذا الافتراض ولا يموت؟ وهل يجب أن نسلب الخلاق إيمانه ونسلب النسر تحليقه في الحدود المعقولة للعلو؟

إن الرب هو فكرة، تجعل كل ما هو مستقيم مائلاً، وكل ما هو ثابت دورانياً. كيف؟ كان الزمن سيختفي وكل ما هو زائل ليس إلا كذبة؟

إن التفكير بهذه الطريقة هو دوران بالنسبة لعظام الإنسان وغثيان بالنسبة لمعدته، حقاً، إن افتراض شيء مماثل أدعوه بمرض الدوار.

إنني أدعو كل هذه التعاليم حول الواحد والممتلئ والثابت والمشبع والدائم، بالشرير والمعادي للإنسان!

إن كل ما هو دائم ليس إلا رمزاً! والشعراء يكذبون كثيراً.

إذ يجب على أفضل الرموز أن تتحدث عن الزمن والتشكل، ويجب أن يكونوا مديحاً ومسوغاً لكل ما هو زائل!

إن الخلق هو خلاص عظيم من المعاناة وتسهيل للحياة. ولكن لتكون خلاقاً يجب أن تتعرض للمعاناة والتحولات الكثيرة.

نعم، يجب أن يكون في حياتكم، أيها الخلاقون، الكثير من الموت المر! فلتكونوا شفعاء ومبرئين لكل ما هو زائل.

ولكي يصبح الخلاق مولوداً جديداً، عليه أن يرغب في أن يكون امرأة نفساء ويعايش آلام الولادة.

حقاً، لقد قطعت طريقي عبر مئات الأنفس، وعبر مئات المهود وآلام الولادة. وودعت مرات كثيرة، وأعرف الساعات الأخيرة المحطمة للقلوب.

ولكن هذا ما رغبت به إرادتي الخلاقة وقدري، وإذا قلت بصراحة هذا هو القدر الذي شاءته إرادتي.

إن كل ما يشعر في داخلي يعاني ويتواجد في زنزانة، ولكن إرادتي دائماً تأتيني كمخلصة ومبشرة بالفرح.

إن الإرادة تحرر، فهذه هي التعاليم الحقيقية حول الإرادة والحرية، وهذا ما يعلمكم إياه زرادشت.

ألاّ ترغبوا في المزيد، وألاّ تُقَدِّروا المزيد وألا تخلقوا المزيد! آه، فليبق هذا التعب العظيم بعيداً عني إلى الأبد!

وحتى في إدراكي لا أشعر بفرح الولادة وفرح تحقق إرادتي، وإذا كان للبراءة وجود في إدراكي، فذلك لأنه يوجد فيه إرادة تجاه الولادة.

بعيداً عن الرب والآلهة كانت تسحبني إرادتي، وما الذي كان سيبقى لنا لنخلقه، في حال كان للآلهة وجود!

ولكن إرادتي الملتهبة في الخلق تشدني دائماً نحو الإنسان من جديد، فهكذا تندفع المطرقة باتجاه الحجر.

أيها الناس، في الحجر يختبئ الشكل بالنسبة لي، وهو شكل أشكالي! آه، يجب أن يغفو في أقسى وأبشع حجر!

والآن تندفع مطرقتي بوحشية ضاربة سجنها، فتتطاير شظايا الحجر بعيداً، وما شأني بذلك؟

أريد أن أنهي هذه الصورة، لأن الظل اقترب مني، الظل الأكثر صمتاً والأخف في الوجود اقترب مني!

جمال الإنسان الخارق اقترب مني كالظل. آه، يا أخوتي! ما شأني الآن بالآلهة!

هكذا تكلم زرادشت.

الرؤوفون

يا أصدقائي! لقد وصلت إلى صديقكم كلمات ساخرة: «انظروا إلى زرادشت! ألا يمشي بيننا كما لو أنه يمشي بين الحيوانات؟»

ولكن كان من الأفضل القول: «إن مكتسب المعرفة يمشي بين الناس كما لو أنه يمشي بين الحيوانات».

ولكن الإنسان نفسه يسمى عند المدرِك، بالحيوان صاحب الخدين الحمراوين.

فمن أين له هذا الاسم؟ أليس لأنه كان مضطراً للخجل كثيراً؟

آه يا أصدقائي! هكذا يقول المدرك: الخجل، ثم الخجل، ثم الخجل، هذا هو تاريخ الإنسان!

ولهذا يفرض الكريم على نفسه ألا يُخجِل الآخرين، ويفرض على نفسه الخجل أمام كل من يعاني.

حقاً، لا أحب الرؤوفين، المغتبطين في رأفتهم، لأنهم خاليين تماماً من الخجل.

فإذا توجب علي أن أكون رؤوفاً، فإنني لا أريد أن أسمى به، وإذا كنت رؤوفاً فمن بعيد فقط.

إنني أحب إخفاء وجهي وأهرب قبل أن يتعرفوا علي، وأنصحكم بفعل ذلك أيضاً يا أصدقائي!

فليأخذني قدري في طريق الذين مثلكم أحرار دائماً من الرأفة، والذين في مقدوري أن أشترك معهم بالأمل والمأدبة والعسل المشتركين!

حقاً، كنت أفعل كلا الأمرين لكل من يعاني، وكان يبدو لي دائماً أن فعلي الأفضل كان خلال تعلمي للفرح أكثر.

فمنذ وجود الناس، قل فرح الإنسان كثيراً، وليس عندنا يا أخوتي سوى هذا الإثم الأول!

وعندما نتعلم الفرح أكثر، عندها سنفقد مقدرتنا على التسبب بالأسى والمصيبة للآخرين وابتكارهما.

ولهذا أريد أن أغسل اليد التي تساعد من يعاني، ولهذا أريد أن أمسح على نفسه أيضاً.

وعندما رأيت صاحب المعاناة يعاني، خجلت منه بسبب خجله، وعندما كنت أساعده، كنت أدوس بلا شفقة على كرامته.

إن الأفضال الكبيرة لا تصنع الشرفاء الكرام، بل تصنع المنتقمين، وإذا لم ينس عمل الخير الصغير، فإنه يتحول إلى دودة متطفلة.

«فلتكونوا لا مبالين عند تقبلكم لشيء ما! وأعيروا انتباهكم لما تقبلون به!» هذا ما أنصح به الذين ليس عندهم شيء يردون به الهدية.

فأنا من الذين يقدمون الهبات، وأنا أحب أن أهدي كما يهدي الصديق أصدقاءه. وليقطف الغرباء والفقراء بأنفسهم الثمار من شجرتي، فذلك يخجلهم أقل.

أما المتسولون فيجب القضاء عليهم بشكل كامل! لأنك حقاً تغضب عندما تعطيهم، وتغضب عندما لا تعطيهم.

ومعهم يجب القضاء أيضاً على الآثمين وعلى تأنيب الضمير! صدقوني يا أصدقائي، إن تأنيب الضمير يعلم عض الآخرين. ولكن أسوأ ما في الوجود هي الأفكار التافهة.

حقاً، من الأفضل أن تقوم بعمل شرير، من أن تفكر بفكرة تافهة!

على الرغم من أنكم تقولون: «إن الفرح الذي يأتينا من فعل ضغينة يخلصنا من القيام بعمل شرير كبير»، فهنا يجب ألاّ تكونوا حريصين.

إن الفعل الشرير يشبه الخُرَّاج، فهو يلتهب ويؤلم ويحك، وهو يتكلم بصراحة.

«انظر فأنا المرض» هكذا يتحدث الفعل الشرير، وفي ذلك تكمن صراحته.

ولكن الفكرة التافهة تشبه القملة، فهي تزحف وتتلوى، ولا تريد التوقف في أي مكان، إلى أن يذبل الجسم بكامله ويترهل بفعل حشرات القمل الصغيرة.

وبالنسبة للذي يسكنه الشيطان، فإنني أهمس في أذنه: «الأفضل أن تربي شيطانك الخاص! فحتى بالنسبة لك ما زال هناك طريق للعظمة!»

آه، يا أخوتي! إنني أعرف الكثير جداً حول كل فرد! والكثيرون يبدون أمامي شفافين؟ ولكننا لا نستطيع اختراقهم بسبب ذلك.

من الصعب العيش مع الناس، لأنه يصعب الاحتفاظ بالصمت.

وليس الذي نشمئز منه هو الذي نظلمه، بل إننا نظلم الذي لا نكترث ولا نبالي بحاله.

فإذا كان لديك صديق يعاني فلتصبح لمعاناته مكان استراحة، ولتكن كذلك سريراً صلباً، وفراش سفر، وبهذه الطريقة تكون أكثر فائدة له.

وإذا أساء إليك صديقك بفعل سيئ، قل له «إنني أسامحك على ما سببته لي، ولكنك لو فعلت ذلك لنفسك، كيف سيكون في مقدوري أن أسامحك!».

هكذا يتحدث كل حب عظيم، فهو يتجاوز حتى السماح والشفقة.

يجب السيطرة على القلب، فما إن تطلق له العنان حتى تفقد رأسك سريعاً وتتهور!

آه، في أي مكان في العالم ارتكب جنون أكبر من الذي ارتكب بين الرؤوفين؟ وما الذي سبب في العالم معاناة أكبر من جنون الرؤوفين؟

الويل لكل المحبين الذين لم يعد أمامهم قمة أعلى من رأفتهم!

قال لي الشيطان مرة: «حتى الرب لديه جحيمه، إنه محبته للناس».

ومنذ فترة قريبة سمعت كيف قال: «الرب مات، لقد مات بسبب رأفته بالناس».

ولهذا أحذركم من الرأفة، فمن هناك تقترب من الناس غيمة سوداء!

حقاً، إنني أعرف علامات الزمن!

تذكروا هذه الكلمات: إن كل محبة عظيمة تعلو فوق الرأفة، لأن ما تحبه هذه المحبة لا تزال راغبة بخلقه!

«إنني أضحي بنفسي من أجل المحبة ومن أجل قريبي ومن أجل الذين يشبهونني» هذا ما يجب أن نقوله لجميع الخلاقين، ولكن الخلاقين حازمون.

هكذا تكلم زرادشت.

القساوسة

في إحدى المرات أعطى زرادشت إشارة لتلاميذه وقال لهم التالي:

- خذوا الكهنة مثلاً، فعلى الرغم من أنهم أعدائي، إلا أنه عليكم المرور بجانبهم صامتين وبأكتاف منزلة! لأنه يوجد بينهم أبطال، والكثيرون منهم عانوا معاناة كبيرة، ولهذا يرغبون في إجبار الآخرين على المعاناة.

إنهم أعداءٌ أشرارٌ وحقودون، ولا شيء أكثر انتقاماً من خضوعهم، ويتدنس بسهولة كل من يهاجمهم.

ولكن دمائي قريبة دمائهم، وأريد أن تُشَرَّف دمائي في دمائهم.

وعندما مروا بجانب المعلم وتلاميذه، غطت الكآبة نفس زرادشت، ولكنه لم يقاومها طويلاً، ثم قال:

- إنني أشفق على هؤلاء القساوسة، فهم يجعلونني أشمئز منهم، ولكنهم بالنسبة لي يمثلون الشر الأصغر منذ أن صرت أعيش بين الناس.

فأنا أعاني وعانيت معهم، فهم بالنسبة لي أسرى وموسومون، والذي يدعونه بالمخلص قيدهم بالقيود:

إنها قيود القيم المزيفة والكلمات المجنونة! آه، لو أن أحداً يخلصهم من مخلصهم!

قد فكروا في يوم ما أن يرسوا سفينتهم إلى جزيرة، عندما كان البحر يرميهم في كل الجهات، ولكن هذه الجزيرة كانت وحشاً نائماً!

القيم المزيفة وكلمات الجنون، هذا هو الوحش الأكثر خطراً على الفانين، فالقدر يغفو وينتظر طويلاً داخل هذه القيم والكلمات.

وأخيراً يأتي هذا الوحش ويستيقظ ويلتهم كل ما أقام على ظهره مسكناً له.

آه، انظروا إلى هذه المساكن، التي بناها لأنفسهم هؤلاء القساوسة! إنهم يدعون بالكنائس مغاورهم العطرة.

آه، يا لهذا النور المزيف وهذا الهواء الخانق! فهنا لا تجرؤ النفس على الصعود إلى علوها!

إذ إن الإيمان يأمرها فيقول: «على ركبكم اصعدوا السلالم، أنتم أيها آثمون!»

حقاً، أُفَضِّل أن أرى عديمي الخجل، من أن أرى عيون الخجل المعوجة وتبجيلها!

فمن الذي خلق لنفسه مغاور وسلالم التوبة هذه؟ أليسوا هم الذين أرادوا الاختباء وخجلوا من السماء الصافية؟

وإلى أن تعود السماء الصافية للظهور فوق الأسطح المهدمة وفوق العشب والخشخاش الأحمر عند الجدران المهدمة، عندها فقط سأوجه قلبي إلى مساكن هذا الرب.

قد دعوا بالرب الشيء الذي ناقضهم وسبب لهم المعاناة، وحقاً، في عبادتهم هذه يوجد الكثير من البطولة!

فلم يقدروا أن يحبوا ربهم إلا بِصَلْبِهم للإنسان!

كالجثث أرادوا أن يعيشوا، وألبسوا جثتهم الثياب السوداء، وحتى من أحاديثهم ما زلت أسمع نتانة القبور.

والذي يعيش بقربهم، يعيش بقرب البرك السوداء، حيث يغني الضفدع أغنيته غارقاً في تفكير حلو.

كان عليهم أن يغنوا لي أفضل الأغاني، كي أتعلم تصديق مخلصهم، إذ يجب أن يبدو الخلاص على تلاميذه!

أردت رؤيتهم عراة، لأن الجَمال يجب أن يدعوا إلى التوبة. ولكن من ذا الذي سيقنعه هذا الحزن المغطى!

حقاً، إن مخلصيهم أنفسهم لم ينطلقوا من الحرية وسماء الحرية السابعة! حقاً، إنهم لم يمشوا أبداً فوق سجاد المعرفة!

إن روح مخلصيهم كانت مكونة من ثقوب، وفي كل ثقب وضعوا جنونهم، ذلك المساعد الذي سموه رباً.

غرقت روحهم في رأفتهم، وعندما كانوا يمتلئون رأفة، كان يسبح على السطح دائماً جنون عظيم.

بغضب وصراخ كانوا يسوقون قطيعهم على دربهم، وكأنه لا يؤدي إلى المستقبل إلا درب واحد! حقاً، حتى هؤلاء الرعاة ما زالوا ينتمون إلى الأغنام!

فعقول هؤلاء الرعاة كانت صغيرة ونفوسهم واسعة، ولكن يا أخوتي، كم كانت أوسع الأنفس حتى اليوم بلداناً صغيرة!

كانوا يكتبون بإشارات الدم على الطريق الذي ساروا فيه، وكان جنونهم يُعلِّمُهم أن الدم شاهد على الحقيقة.

ولكن الدم هو أسوأ شاهد على الحقيقة، فالدم يسمم أنقى التعاليم ويوصلها إلى درجة الجنون وحقد القلوب.

وحتى لو سار أحدهم إلى النار بسبب تعاليمه، فما الذي يبرهنه ذلك! حقاً، الأمر مختلف تماماً، عندما تصدر التعاليم الذاتية عن الاحتراق الذاتي!

القلب الحار والرأس البارد، حيث يلتقيان تنشأ العاصفة الهوجاء المدعوة بـ «المُخَلِّص».

حقاً، كان بين الناس من هو أكثر عظمة وأكثر رفعة في مولده، من الذين سماهم الشعب بالمُخَلِّصين، هذه العواصف الهوجاء التي تسحب كل شيء خلفها!

وما زال أمامكم يا أخوتي أن تتخلصوا من مُخَلِّصين أكثر عظمة من الذين سبقوهم، إذا أردتم أن تجدوا الطريق إلى الحرية!

لم يسبق أبداً أن وُجِد الإنسان الخارق. قد رأيت كليهما عاريين، أكبر إنسان وأصغر إنسان، لا يزالان يشبهان بعضهما بعضاً كثيراً. حقاً، حتى الأعظم بينهما كنت أجده بشرياً جداً!

هكذا تكلم زرادشت.

الفضلاء الأعِفة

يجب التكلم إلى الأحاسيس الرخوة والناعسة بالرعد والنار السماوية.

ولكن صوت الجَمال يتحدث همساً، فهو يخترق أدق النفوس.

اليوم ارتجفت دعامتي وضحكت بصوت خافت، إنه ارتعاش الجمال وضحكه المقدس.

قد سخر جمالي اليوم منكم، أيها الفضلاء. وكان يصلني صوته:«إنهم يريدون أن يُدفَع لهم!»

أتريدون أن يُدفَع لكم، أيها الفضلاء! هل تريدون أن يُدفَع لكم ثمن فضيلتكم، أتريدون السماء مقابل الأرض، والخلود مقابل حاضركم؟

والآن تغضبون مني، لأنني أعَلِمكم أن لا وجود للمجازي؟ وحقاً، لا أعَلِمكم أن تكون الفضيلة مكافأة لذاتها.

آه، هذه هي مأساتي، فقد زُرِع مبدأ الثواب والعقاب في جوهر الأشياء بخبث، كما زُرع في أساس نفوسكم، أيها الفضلاء!

ولكن كناب الخنزير البري يجب أن تشق كلمتي أساس نفسكم، أريد أن أسمى محراثاً عندكم.

فكل ما هو مكنون في جوهركم يجب أن يخرج إلى النور، وعندما تستلقون تحت الشمس، محروثين ومكسرين، سينفصل كذبكم عن حقيقتكم.

إذا كانت هذه هي حقيقتكم، فأنتم أنقياء جداً بالنسبة لقذارة كلمات كالانتقام والعقاب والثواب والجزاء.

أنتم تحبون فضيلتكم، كما تحب الأم طفلها، ولكن أين سمعتم أن ترجو الأم ثمناً مقابل محبتها؟

إن فضيلتكم هي أغلى أطفالكم. ففيكم يوجد تعطش تجاه الخاتم، فلتحقيق الذات من جديد يدور كل خاتم.

وكل فعل من أفعال فضيلتكم يشبه نجمة منطفئة، فنورها دائماً يتواجد في المسير ويطوف، ومتى سينتهي من المسير؟

وكذلك ما زال نور فضيلتكم في رحلته، وحتى بعد أن يتم إتمام العمل، وحتى لو تم نسيان الفضيلة وموتها، فإن شعاع نورها ما زال حياً يطوف في مكان ما.

فلتكن فضيلتكم هي ذاتكم، وليس شيئاً غريباً، ولتكن جلدكم وغطاءكم، فهذه حقيقة كامنة في أساس نفسكم، أيها الفاضلون!

كما يوجد طبعاً الذين يرون الفضيلة على أنها تشنجات أليمة تحت ضربات السوط، وقد شبعتم من سماع صراخهم!

وهناك آخرون يطلقون اسم الفضيلة على الحالة الكسولة لرذائلهم، وإذا استيقظت كراهيتهم وحسدهم، يستيقظ كذلك «عدلهم» ويفرك عينيه الناعستين.

وهناك الذين ينجذبون إلى الأسفل، فشياطينهم تسحبهم. وكلما نزلوا أكثر كلما زادت النار في عيونهم لمعاناً واشتد سعيهم نحو إلههم.

آه، لقد وصلت إلى أسماعكم، أيها الفضلاء، صرخة أخرى تقول: «إن الشيء الذي هو ليس أنا، يكون بالنسبة لي إلهاً وفضيلة!»

وهناك الذين يتحركون بصعوبة ويصدر عنهم صوت كصرير العربات التي تحمل الحجارة إلى الوادي، فهم يكثرون الحديث عن الكرامة والفضيلة، وهم يدعون لجامهم بالفضيلة!

وهناك الذين يشبهون الساعات ذات التشغيل اليومي، فهم ينفذون دقاتهم ويريدون أن تسمى هذه الدقات بالفضيلة.

حقاً، إنهم يسلونني، فأينما وجدت ساعة كهذه، فإنني أشغلها بسخريتي، وعليها أن تفح لي بعد ذلك!

وآخرون يفخرون بحفنة العدل لديهم ويفترون باسمها على كل شيء، بحيث يغرق العالم في ظلمهم.

آه، كم يبدو بشعاً لفظ كلمة «الفضيلة» من أفواههم! وعندما يقولون: «أنا عادل»، يبدو قولهم هذا وكأنهم قالوا: «قد أخذت بثأري!».

إنهم يريدون بفضيلتهم اقتلاع عيون أعدائهم، ولا يعلون إلا ليذلوا الآخرين.

كما يوجد الذين يقبعون في مستنقعهم ويتكلمون من خلف نباتات القصب: «إن الفضيلة تعني الجلوس بهدوء في المستنقع. نحن لا نعُضُّ أحداً ونتجنب الذين يريدون العض، ودائماً نتمسك بالرأي المفروض علينا».

وهناك الذين يحبون الحركات الإيمائية ويظنون أن الفضيلة هي ضرب من الحركات الإيمائية.

إن ركابهم راكعة دوماً، وأياديهم تمتدح الفضيلة، ولكن قلوبهم لا تعرف شيئاً عنها.

وهناك الذين يعتبرون أن الفضيلة هي أن يقولوا: «الفضيلة ضرورية»، ولكنهم في باطنهم يؤمنون فقط بضرورة البوليس.

والكثيرون ممن يعجزون عن رؤية الرفعة في الناس، يطلقون اسم الفضيلة عندما يرون دناءتهم قريبة جداً منهم، فيسمون بالفضيلة عينهم المصيبة بالسوء.

إنهم يريدون أن يتعظوا ويسيروا على الطريق القويم ويدعونه بالفضيلة، وآخرون يريدون التخلي عن كل شيء ويسمون ذلك بالفضيلة أيضاً.

وبهذا الشكل فإن الجميع تقريباً يؤمنون بمشاركتهم في الفضيلة، وجميعهم يريدون أن يكونوا عالمين على الأقل في أمور «الخير» و«الشر».

ولكن زرادشت لم يأتِ ليقول لجميع هؤلاء الكذبة والحمقى: «ما الذي تعرفونه عن الفضيلة! وما الذي يمكنكم أن تعرفوه عنها!».

بل لكي تَمَلُّوا يا أصدقائي من الكلمات البالية التي تعلمتموها من الحمقى والكذبة، ولكي تَمَلُّوا من الكلمات مثل «المكافأة» و«العقاب» و«الانتقام العادل» و«الجزاء»، ولكي تملوا من القول: «إن هذا الفعل جيد لأنه نزيه».

آه، يا أصدقائي! لتنعكس ذواتكم في أفعالكم، كما تنعكس الأم في الطفل، فهكذا يجب أن تكون كلمتكم حول الفضيلة!

حقاً، لقد سلبتكم مئات الكلمات وأغلى خشاخيش فضيلتكم، فتغضبون مني الآن كما يغضب الأطفال.

كانوا يلعبون عند البحر، وفجأة جاءت الأمواج وسحبت ألعابهم في لجة الماء، وهم الآن يبكون.

ولكن الموجة ذاتها يجب أن تحمل لهم ألعاباً جديدة وتنثر أمامهم محاراً مرقشاً جديداً!

هكذا يحصلون على العزاء، وكذلك أنتم يا أصدقائي ستحصلون على عزائكم وعلى محار مرقش جديد!

هكذا تكلم زرادشت.

الحشد

إن الحياة هي منبع الفرح، ولكن حيثما شرب الحشد تصبح جميع الينابيع مسمومة.

إنني أحب كل ما هو نقي، فلا أتحمل رؤية الوجوه الغليظة ذات الأنياب المكشرة وعطش الشياطين.

كانوا ينظرون إلى عمق النبع، فتنظر إلي من النبع ابتسامتهم الكريهة.

لقد سمموا الماء المقدس بشهوانيتهم، وعندما أطلقوا اسم الفرح على أحلامهم القذرة، سمموا كذلك الكلمات.

تستاء النار عندما يضعون قلوبهم الرمادية فوقها، فالروح نفسها تغلي وتدخن عندما يقترب الحشد من النار.

تصبح الثمرة رخوة ومفرطة الحلاوة في أيديهم، ويُفسِدُ نظرهم الشجرة المثمرة ويجففها.

وكثيرون ممن أداروا ظهورهم للحياة، أداروا ظهورهم للحشد فقط، إذ لم يرغبوا بمقاسمة الحشد النبع والنار والثمرة.

وكثيرون ممن رحلوا إلى الصحراء وتحملوا مع الحيوانات المفترسة العطش، لم يرغبوا بالجلوس عند الواحة إلى جانب الجمالين القذرين.

وكثيرون ممن أتوا كالمدمرين وكالبرد على حقول القمح، أرادوا فقط أن يضعوا قدمهم في حنك الحشد ليسدوه بهذه الطريقة.

ومعرفة أن الحياة نفسها تتطلب العداوة والموت وصلبان المعذبين، لم يكن هو اللقمة التي غصصتُ بها أكبر غصة.

ففيما مضى كنت أتساءل وأغص بسؤالي: كيف؟ هل تحتاج الحياة إلى حشد؟

وهل تحتاج الحياة إلى الينابيع المسمومة والنيران النتنة والأحلام القذرة والديدان في خبزها؟

ليست كراهيتي بل اشمئزازي كان يلتهم حياتي بشراهة! آه، كثيراً ما أُرْهِقتُ روحياً عندما كنت أجد الحشد ظريفاً!

أدرت ظهري للسادة عندما رأيت الشيء الذي أصبحوا يطلقون عليه اسم السيادة، أي على التوسط عند الحشد والمساومة معه من أجل السلطة!

عشت وسط الشعوب ساداً أذني، وغريباً عن لغتهم، كي تبقى لغتهم في السمسرة والمساومة على السلطة غريبة عني.

وسرت ساداً أنفي، ساخطاً، عبر كل أيام البارحة واليوم، حقاً، سيئة هي رائحة أيام البارحة واليوم التي يكتبها الرعاع!

كالكسيح الذي أصبح أطرش وأعمى وأبكم، عشت طويلاً كي لا أعيش مع الرعاع الحاكمين والكاتبين واللاهيين.

بحذر وصعوبة كانت روحي تصعد السلالم، وكان فتات الفرح متعة لروحي، وكانت حياة الأعمى تجري مستندة على العصا.

فما الذي حل بي؟ وكيف تخلصت من الاشمئزاز؟ ومن الذي جدد رؤيتي؟ وكيف صعدت إلى العلو الذي ليس فيه حشود تجلس عند النبع؟

أليس اشمئزازي هو الذي خلق لي الأجنحة والقوى التي استهديت بواسطتها إلى النبع؟ حقاً، كان علي أن أحلق إلى قمة العلو، كي أكتسب من جديد منبع الفرح!

آه، قد وجدته يا أخوتي! هنا فوق هذا العلو يسيل لأجلي منبع الفرح! وهنا توجد الحياة التي لا يشرب منها الحشد إلى جانبك!

إنك تجري باندفاع لأجلي يا منبع الفرح! وكثيراً ما تفرغ الكأس راغباً بملئه من جديد!

وعلي أن أتعلم الاقتراب منك بتواضع أكبر، فما زال قلبي ينبض باندفاع شديد نحوك.

إن قلبي حيث يشتعل صيفي القصير والقائظ والحزين والمغتبط بإفراط، كم يتعطش صيف قلبي إلى برودتك!

قد مر حزن ربيعي المتباطئ! ومر غضب ندفي الثلجية في حزيران! فتحولت كلياً إلى صيف وإلى ظهيرة صيف!

في فصل الصيف وفي قمة العلو مع الينابيع الباردة والهدوء المغتبط، آه، تعالوا يا أصدقائي، كي يزداد الهدوء غبطة!

إن هذا العلو علونا وموطننا، فنحن نعيش هنا عالياً جداً، عيشاً منيعاً أمام كل الشياطين وتعطشهم.

ألقوا يا أصدقائي نظركم النقي إلى نبع فرحي! فهل تعكر! سوف يبتسم لكم بنقائه.

إننا نقيم عشنا فوق شجرة المستقبل، ويجب أن يجلب لنا النسور في مناقيرهم الغذاء لنا نحن المنعزلين!

حقاً، فذلك الغذاء يعجز عن تناوله الشياطين! لأنه سيبدو لهم أنهم يأكلون النار، وكانوا سيحرقون أفواههم!

حقاً، نحن لا نقيم هنا مسكناً للشياطين! فسعادتنا كانت ستبدو مغارة متجمدة لجسدهم وروحهم.

إننا كالرياح العظيمة نريد أن نعيش فوقهم، جيراناً للنسور وجيراناً للثلج وجيراناً للشمس، هكذا تعيش الرياح العظيمة.

وكالريح أريد أن أهُبَّ في يوم ما بينهم وأنتزع بروحي أنفاس روحهم، هذا ما يريده مستقبلي.

حقاً، إن زرادشت ريح عظيمة بالنسبة لجميع الأماكن المنخفضة، وهو ينصح جميع أعدائه والذين يبصقون: «احذروا أن تبصقوا بعكس الريح!».

هكذا تكلم زرادشت.

العناكب الضخمة السامة

انظر، هذه حفرة العنكبوت الضخم السام! ألا ترغب في النظر إليه؟ ها هي شبكته معلقة، المسها كي تهتز.

ها هو يسير بإرادته، مرحباً أيها العنكبوت الضخم السام! إن مثلثك الأسود يقبع فوق ظهرك علامة لك، وأنا أعرف كذلك ما الذي يقبع في نفسك.

إن الانتقام يقبع في نفسك، فأينما لسعت ينشأ جرح أسود، فسمك يجعل النفس تدور ساعية للانتقام!

هكذا أحدثكم بالرموز، أنتم يا دعاة المساواة، يا من تجبرون الأنفس على الدوران! إنكم بالنسبة لي عناكب ضخمة سامة ومنتقمون متسترون!

ولكنني سأُخرِج أوكاركم إلى النور، ولهذا أضحك في وجهكم ضحكة العلو.

ولهذا أمزق شبكتكم، كي يخرجكم غضبكم من مغارة كذبكم ولكي يظهر انتقامكم من خلف ستار كلمة «العدالة».

فليتم تخليص الإنسان من الانتقام، فهذا بالنسبة لي الجسر الموصل إلى الأمل الأعلى، وسماء قوس قزح بعد العواصف الرعدية الطويلة.

ولكن العناكب الضخمة السامة تريد شيئاً آخر - «في رأينا أن العدالة تكمن في امتلاء العالم بعواصف انتقامنا الرعدية» - هذا ما يقولونه فيما بينهم.

«العار والانتقام هو مصير كل من لا يشبهنا» - هكذا تُقسِم قلوب العناكب الضخمة السامة.

وأيضاً: «السعي نحو المساواة يجب أن يصبح منذ الآن اسماً للفضيلة، ونطلق صرختنا ضد كل من يملك السلطة!»

أيها الداعون إلى المساواة! إن جنون الطاغية العاجز يصرخ في داخلكم منادياً بالمساواة، هكذا تختبئ رغبتكم المكنونة في الاستبداد وراء الكلمات المتحدثة حول الفضيلة!

الظلام الذي تعب من الانتظار، والحسد المخفي، وربما ظلام وحسد آبائكم، هذا ما ينبعث من داخلكم بنيران الانتقام المجنونة.

فالشيء الذي صمت عنه الأب، يبدأ بالتكلم في الابن، وغالباً كنت أجد في الابن سر أبيه.

إنهم يشبهون المُلْهَمين، ولكن ليس القلب يلهمهم وإنما الانتقام. وإذا أصبحوا ماكرين وباردين، فليس العقل هو الذي يجعلهم ماكرين وباردين، بل الحسد.

إن حسدهم يقودهم حتى إلى درب المفكرين، وهذه هي السمة المميزة لحسدهم، حيث إنه يوصلهم إلى البعيد، ولهذا فإن تعبهم يجب أن يغفو في نهاية الأمر فوق الثلج.

في كل شكوى من شكاويهم يُسمَع الانتقام، وفي كل مديح منهم توجد رغبة في التسبب بالمعاناة، وكونهم قضاة يبدو لهم نعيماً.

ولكنني أنصحكم يا أصدقائي، ألا تثقوا بأحد لديه سعي قوي إلى العقاب!

إنه شعب من صنف سيئ ومنشأ سيئ، فعلى وجوههم ترى الجلاد وكلب البوليس.

لا تثقوا بالذين يتحدثون كثيراً حول عدالتهم! حقاً، إن نفوسهم ينقصها أكثر من مجرد العسل.

وإذا كانوا يسمون أنفسهم بالطيبين والأتقياء، فلا تنسوا أن ما ينقصهم هو السلطة فقط ليصبحوا مرائين!

يا أصدقائي، لا أريد أن يخلطوا بيني وبينهم أو يساووني بهم.

وهناك الذين يدعون إلى تعاليمي حول الحياة، وهم في الوقت ذاته دعاة المساواة والعنكبوت الضخم السام.

إنهم يتحدثون لمصلحة الحياة، هذه العناكب السامة، على الرغم من أنهم يقبعون في مغاورهم مديرين ظهورهم للحياة، إذ إنهم بذلك يريدون التسبب بالمعاناة.

إنهم بذلك يريدون التسبب بالمعاناة لكل من لديه السلطة الآن، لأن هؤلاء تَغلُب لديهم الدعوة إلى الموت.

لو كان الأمر غير ذلك، لأخذت العناكب الضخمة السامة تُعلِّم بطريقة مختلفة، لأنها كانت في يوم ما أسوأ المفترين على العالم ومحرِقة المرتدين.

أنا لا أريد أن يخلطوا بيني وبين دعاة المساواة المعنيين أو أن يساووا بيني وبينهم. لأن العدل يقول لي: «الناس ليسووا متساوين».

ويجب ألاّ يكون الناس متساوين! فأي شيء كانت لتصبح محبتي تجاه الإنسان الخارق، لو أنني قلت غير ذلك؟

فليسعوا إلى المستقبل عبر آلاف الجسور والممرات، وليكن بينهم المزيد من الحروب وعدم المساواة، هكذا تجبرني محبتي العظيمة أن أقول!

عليهم أن يصبحوا مبتكري الصور والأشباح خلال عداوتهم، وبهذه الصور والأشباح يجب أن يقاتلوا في معركتهم الأخيرة!

الطيب والشرير، والغني والفقير، والرفيع والدنيء، وكل أسماء القيم، كل هذا يجب أن يصبح سلاحاً ورمزاً صارخاً وأن يشير إلى أن الحياة يجب دائماً أن تتفوق على نفسها من جديد!

إنها تريد أن تبنى نحو العُلا بمساعدة الأعمدة والدرجات، وهي تريد أن تستكشف الآفاق البعيدة وتنظر إلى كل ما هو جميل وفاتن في غبطته، ولأجل ذلك تحتاج للدرجات وتناقضها ومن يصعد عليها! إن الحياة تريد أن تصعد، وفي صعودها تتفوق على نفسها.

وانظروا يا أصدقائي! فهنا حيث توجد مغارة العنكبوت الضخم السام، يعلو حطام معبد قديم، فانظروا إليه بعيون مستنيرة!

حقاً، إن الذي بنى في يوم ما في هذا المكان الحجري أفكاره نحو الأعلى، كان يعرف سر كل حياة على درجة واحدة مع أعظم حكماء البشر!

إنه يريد أن يعلمنا بأوضح رمز، إنه حتى في الجمال يوجد صراع ولا مساواة، وحرب وسلطة، وسلطة مفرطة.

في هذا المكان تنعكس بصورة إلهية القناطر والأقواس، وكأنها تصارع بعضها بعضاً، كالنور والظل يواجهان بعضهما بعضاً، مندفعين اندفاعاً إلهياً.

فلنكن يا أصدقائي، أعداء بنفس الدرجة من الثقة والروعة! ولنندفع اندفاعاً إلهياً ضد بعضنا بعضاً!

وللأسف! في تلك اللحظة لسعني العنكبوت الضخم السام، عدوي القديم! لسعني في إصبعي بثقة إلهية وروعة!

«لا شك أنه العقاب والعدل» هكذا يفكر العنكبوت، إذ ليس عبثاً أن يُكتَب له هنا غناء الأناشيد على شرف العداوة!

نعم، قد انتقم لنفسه! وللأسف! الآن سيجعل نفسي تدور أيضاً راغبة في الانتقام!

ولكن لكي لا أدور، يا أصدقائي، قيدوني بإحكام إلى هذا العمود! إذ إنني أفضل أن أكون عموداً صغيراً من أن أكون إعصار انتقام!

حقاً، زرادشت ليس إعصاراً وليس عاصفة، وإذا كان راقصاً، فإنه أبداً ليس راقصاً لرقصة العناكب الإيطالية!

هكذا تكلم زرادشت.

الحكماء المشهورون

لقد خدمتم الشعب، وخرافات الشعب، جميعكم أيها الحكماء المشهورون! ولم تخدموا الحقيقة! ولهذا فقط دفعوا لكم إتاوة الاحترام.

ولهذا فقط تحملوا كفركم، لأنه كان طريقاً حاذقاً وغير مباشر إلى الشعب. فهكذا يمنح السيد الحرية لعبيده وبعد ذلك يهزأ من تعندهم.

ولكن من ذا الذي يكرهه الشعب، كما تكره الكلاب الذئب، إنه العقل الحر عدو القيود، الذي لا يصلي بل يعيش في الغابات.

فطرده من مخبئه كان يسمى دائماً عند الشعب «إحساساً بالعدالة»، وما يزال يؤلب عليه أشرس كلابه.

«الحقيقة موجودة، لأن الشعب موجود! والويل لمن يبحث!»

- فهكذا جرت العادة منذ القدم.

لشعبكم أردتم إيجاد العذر والمسوغ في عبادته، ودعوتم ذلك «بالسعي نحو الحقيقة»، أنتم أيها الحكماء المشهورون!

وقلبكم كان دائماً يقول لنفسه: «لقد خرجت من الشعب، ومن هناك نزل علي صوت الرب».

أنتم عنيدون وماكرون كالحمير، وكنتم دائماً شفعاء للشعب.

والكثيرون من الحكام، الذين رغبوا العيش في وفاق مع الشعب، قاموا بتقييد جحش صغير أمام خيولهم، الجحش الذي هو حكيم مشهور.

والآن، أيها الحكماء المشهورون، أتمنى لو ترمون عن كاهلكم جلد الأسد بصورة نهائية!

الجلد المبرقش لحيوان مفترس وخصلات الشعر المتلبد للباحث والمستقصي والفاتح!

آه، كي أتعلم الإيمان بـ «صدقكم» عليكم أولاً أن تتنازلوا عن سعيكم نحو العبادة.

إنني أطلق لقب الصادق على الذي يسير في الصحراء حيث لا وجود للآلهة، ويحطم قلبه المستعد للعبادة.

فوق الرمل الأصفر الذي تلفحه الشمس، ينظر خلسة وبجشع وشراهة إلى ينابيع الجزيرة الغنية، حيث ترتاح جميع الأحياء في ظلال الأشجار.

ولكن عطشه لا يمكنه أن يجبره على التحول لشبيه لهؤلاء الراضين المرتاحين، إذ إنه حيث توجد الواحات توجد الأصنام.

أن يكون جائعاً وقوياً ومنعزلاً وكافراً، هذا ما تريده إرادة الأسد.

أن يكون حراً من سعادة العبيد، وبعيداً عن الآلهة وعبادتها، وعديم الخوف مرعباً للآخرين، وعظيماً ومنعزلاً، هكذا هي إرادة الصادق.

في الصحراء عاش الصادقون منذ القدم، وكانوا أحرار العقل كأسياد الصحراء، في حين يعيش في المدن البدينون وكأنهم رُبُّوا للتسمين، هؤلاء الحكماء المشاهير دواب النقل.

إنهم دائماً يجرون كالحمير عربة الشعب!

ولست غاضباً منهم على ذلك، ولكنهم يبقون خدماً في نظري وأناساً مطقمين كدواب النقل، حتى وإن لمعت عدة تقييدهم بالذهب.

فكثيراً ما كانوا خدماً جيدين، مستحقين للمديح.

ن الفضيلة تقول: «إذا كان عليك أن تكون خادماً، فابحث عن الذي تفيده في خدمتك أكبر إفادة!»

«فروح سيدك وفضيلته يجب أن تنمُوا بفضل كونك خادماً له، وبهذه الطريقة تنمو معه ومع روحه وفضيلته!»

حقاً، أنتم أيها الحكماء المشهورون، يا خدمة الشعب! نموتم مع روح الشعب وفضيلته، ونما الشعب من خلالكم! وأقول ذلك تكريماً لكم!

ولكنكم تبقون شعباً في نظري، وحتى في أعمالكم الفاضلة تبقون شعباً عديم التبصر، لا يعرف ماهية الروح!

إن الروح هي الحياة، التي تستحق أن تحيا من أجلها، إذ تضاعف بمعاناتها الذاتية معارفها الذاتية، فهل كنتم تعلمون ذلك؟

وسعادة الروح في أن تعتلي العرش وتقدس لتكون دموعاً للعذاب والهلاك، فهل كنتم تعلمون ذلك؟

فعمى الأعمى وبحثه لمساً يشهدان على قوة الشمس، التي نظر إليها، فهل كنتم تعلمون ذلك؟

بمساعدة الجبال يجب أن يتعلم المُدرِك البناء! إذ لا يكفي أن الروح تحرك الجبال، فهل كنتم تعلمون ذلك؟

إنكم لا تعرفون غير شرارات الروح، ولكنكم لا ترون السندان، وماهيته وصلابة مطرقته!

حقاً، إنكم لا تعرفون عزة الروح! ولكن ما يصعب عليكم تحمله هو تواضع الروح، لو أنها رغبت في يوم ما أن تتحدث!

ولم يسبق لكم أن استطعتم إيقاع روحكم في حفرة مليئة بالثلج، فلستم أصحاب حمية كافية لذلك! ولهذا تجهلون ابتهاج برده.

وأعتقد أنكم تتعاملون مع الروح ببساطة شديدة في كل الأمور، وغالباً ما تجعلون من الحكمة بيت إحسان ومستشفى لأسوأ الشعراء.

أنتم لستم نسوراً، ولهذا لم تشعروا بالسعادة لحظة خوف الروح. ومن ليس طيراً، يجب عليه عدم التحليق فوق الهاوية.

تبدون دافئين، ولكن البرد يصدر عن كل معرفة عميقة. فأعمق ينابيع الروح باردة كالجليد، وهي متعة للأيدي الساخنة وللفاعلين.

ها أنتم تقفون مبجلين ومكرمين وصارمين، بظهور مستقيمة، أيها الحكماء المشهورون! ولا تدفعكم الريح الجبارة والإرادة القوية.

فهل رأيتم يوماً شراعاً في البحر، تدفعه الريح فيرتجف من شدة العاصفة؟

كالشراع المرتجف من شدة عاصفة الروح، تمر حكمتي عبر البحر، إنها حكمتي البرية!

ولكن أنتم يا خدمة الشعب، أنتم أيها الحكماء المشهورون، كيف كنتم لتستطيعوا السير معي!

هكذا تكلم زرادشت.

أنشودة ليلية

في الليل فقط تتحدث بصوت أعلى كل الينابيع الجياشة، ونفسي أيضاً ينبوع جياش.

في الليل فقط تستيقظ جميع أناشيد العاشقين، ونفسي أيضاً أنشودة عاشق.

شيء ما في داخلي عطش لم يرتوِ أو يمل أو يتعب، إنه يريد الكلام. يوجد في داخلي تعطش للحب، وهو يتحدث بلغة الحب.

أنا النور، آه، يا ليتني أكون ليلاً! ففي ذلك عزلتي، لأنني مطوق بالنور.

آه، لو أنني أكون ليلاً مظلماً! لكم ارتويت من حلمات النور!

وحتى أنتن كنت سأباركُكن، أيتها النجمات اللامعات، كالديدان المضيئة في السماء! ولكنت سعيداً من هبات نوركن.

ولكنني أعيش في نوري الذاتي، وأبتلع النار الصادرة عني من جديد.

أنا لا أعرف سعادة الآخذ، وكثيراً ما حلمت بأن السرقة يجب أن تكون أكثر غبطة ومتعة من الأخذ.

إن فقري يتلخص في أن يدي لا ترتاح أبداً من العطاء، ويتلخص حسدي في أنني أرى عيوناً مليئة بالترقب وليالي يضيئها عطش الرغبات.

يا لمصيبة الذين يمنحون! يا لكسوف شمسي! يا لعطش الرغبات! يا للجوع العنيف وسط الشبع!

إنهم يأخذون مني، ولكن هل ألمس نفوسهم؟ فهاوية كاملة تمتد بين «العطاء» و«الأخذ»، ويصعب رمي الجسر فوق أصغر الهاويات.

الجوع ينمو من جمالي، ووددت لو أسبب المعاناة للذين أنير دروبهم، وأن أنهب الذين منحتهم، هكذا أطمع بالضغينة.

وددت لو أنني أسحب يدي عندما تمتد إليها يد الآخر، وأن أتباطأ كالشلال المتباطئ في سقوطه، هكذا أطمع بالضغينة.

هذا هو الانتقام الذي تفكر به وفرتي، وهذا هو الغدر الذي يولد من عزلتي.

إن سعادتي في العطاء جمدت فيه، وتعبت فضيلتي من نفسها ومن وفرتها!

إن الذي يمنح باستمرار، يتهدده خطر فقدان الخجل، والذي يعطي باستمرار، تتصلب يده وقلبه من العطاء المستمر.

إن عينيّ لم تعودا تدمعان أمام خجل السائلين، ويدي أصبحت شديدة الخشونة بالنسبة لرجفان الأيدي الممتلئة.

فأين ذهبت الدموع من عينيّ والرقة من قلبي؟ يا لعزلة الذين يمنحون! ويا لصمت الذين ينيرون!

شموس كثيرة تدور في الفضاء الفارغ، فيحَدِثن كل ما هو عاتم بحديث نورهن، ولكنها صامتة بالنسبة لي.

آه، هنا تكمن عداوة النور لكل ما هو نير، فتسير هذه العداوة بلا رحمة في طريقها.

إن الشمس ظالمة في أعماق نفسها تجاه كل ما هو نير، ولا مبالية تجاه الشموس الأخرى، هكذا تتحرك كل شمس.

كالعواصف تسرع الشموس في مساراتها، وفي ذلك تكمن حركتها. إنهن يتبعن إرادتهن الصارمة، وفي ذلك تكمن برودتهن.

آه، هذه أنتن أيتها الليالي الحالكة، تخلقن الدفء من كل ما هو نير! آه، أنتن فقط تشربن الحليب واللذة من حلمات النور!

آه، إن الجليد من حولي، ويدي تحترق من لمس الجليد! آه، العطش في داخلي، يتحسر على عطشكم!

آه، أيها الليل، لماذا علي أن أكون نوراً! وعطش الظلام! وعزلة!

أيها الليل، الآن تندفع رغبتي كالينبوع، إنها رغبة في الكلام.

أيها الليل، الآن تعلو أصوات جميع الينابيع الجياشة، ونفسي أيضاً ينبوع جياش.

أيها الليل، الآن تستيقظ جميع أناشيد العشاق، ونفسي أيضاً أنشودة عاشق.

هكذا أنشد زرادشت.

الأنشودة الراقصة

في إحدى الأمسيات مر زرادشت مع تلاميذه في الغابة، وأثناء بحثه عن النبع خرج إلى مرج أخضر، محاط بأشجار وشجيرات صامتة، وكانت الفتيات ترقصن فوقه. وعندما تعرفت الفتيات إلى زرادشت توقفن عن الرقص، ولكن زرادشت اقترب منهن بوجه بشوش ولطيف وقال لهن:

ـ لا تتوقفن عن الرقص، أيتها الفتيات اللطيفات! فالذي اقترب منكن ليس عدواً للعب ولا صاحب نظرة شريرة ولا عدواً للفتيات.

فأنا وكيل الرب أمام الشيطان، وهو روح الثقل. فكيف يمكنني يا سريعات الأرجل، أن أكون عدواً للرقصات الإلهية؟ أو للأرجل النسائية الصغيرة ذات الأصابع الجميلة؟

علماً بأنني غابة مليئة بالظلام الناشئ عن أشجارها المظلمة، ولكن الذي لن يخاف من عتمتي، سيجد الورد الجوري في ظلال أشجار السرو عندي.

وسيجد إلهاً صغيراً، تستلطفه الفتيات، وهو يستلقي بهدوء عند البئر مغلقاً عينيه.

حقاً، قد غفا في وسط النهار، ويا له من كسول! ألم يفرط في ملاحقته للفراشات؟

لا تغضبن مني، أيتها الراقصات الفاتنات، إذا عاقبت قليلاً هذا الإله الصغير! وربما صاح وبكى، ولكنه مستعد للضحك حتى عندما يبكي!

فيرجوكن بأداء رقصة وعيناه دامعتان، وأنا سأنشد أنشودة لرقصته.

أنشودة راقصة وساخرة من روح الثقل، شيطاني الأعظم والأقوى، الذي يدعونه بسيد العالم.

وهذه هي الأنشودة التي أنشدها زرادشت خلال رقصة إله الحب مع الفتيات:

قد نظرت في عينيك منذ مدة، أيتها الحياة! وبدا لي أنني أغوص فيما لا يُدرك كنهه.

ولكنك اصطدتني بصنارة ذهبية وضحكت ساخرة عندما دعوتك بالتي لا يدرك كنهها.

«هكذا تقول جميع الأسماك - أجبتني - فالشيء الذي تعجز الأسماك عن إدراكه يكون هو الذي لا يدرك كنهه.

ولكنني لست سوى متقلبة وبرية، وامرأة في كل شيء وكما أنني لست فاضلة.

وعلى الرغم من إنني أدعى لديكم، أيها الرجال، بالعمق وبالإخلاص وبالأبدية وباللغز.

ولكنكم أيها الرجال تسبغون علينا دائماً فضائلكم الذاتية، آه، أيها الفاضلون!»

هكذا سخرت المستحيلة، ولكنني لا أثق بها وبضحكتها أبداً، عندما تتحدث بسوء عن نفسها.

وعندما تحدثت حديثاً مباشراً مع حكمتي البرية، قالت لي بغضب: «أنت ترغب، وتتعطش، وتحب، ولهذا فقط تمدح الحياة!»

وكدت أجيبها بسوء وأقول الحقيقة للغاضبة، وليس هناك إجابة أسوأ من قول الحقيقة للحكمة الذاتية.

هكذا تسير الأمور بيننا نحن الثلاثة. فأنا أحب الحياة فقط من أعماق قلبي، وحقاً، تشتد محبتي لها إلى أقصى الحدود عندما أكرهها!

ولكنني إذ أحببت الحكمة، وغالباً ما أحبها كثيراً، فلأنها تذكرني كثيراً بالحياة!

فلديها عينا الحياة وضحكتها وصنارتها الذهبية. فبما أذنبت إذا كانتا تشبهان بعضهما كل هذا الشبه؟

وعندما سألتني الحياة مرة: «ما هي الحكمة؟» أجبتها بحرارة: «آه، نعم! إنها الحكمة! إنها ما يشتهيه الآخرون ولا يرتوون بها، وينظرون من خلال أغطيتها ويصطادونها بالشباك. فهل هي جميلة؟ كيف لي أن أعلم! ولكن أكبر أسماك الشبوط سناً ما تزال تعلق على طُعمِها.

إنها متقلبة وعنيدة، وكثيراً ما رأيت كيف كانت تعض شفتيها وتشبك بالمشط شعرها.

ربما هي شريرة وماكرة، وفي كل شيء هي امرأة، ولكنها عندما تتحدث بسوء عن نفسها، تزداد فتنتها وسحرها».

وعندما قلت ذلك للحياة، ابتسمت بشر وأغلقت عينيها. «عمن تتحدث أنت؟ - سألت هي - ألست تتحدث عني؟

وحتى ولو كنت محقاً، أيجوز أن تقول ذلك في وجهي مباشرة! ولكن الآن أخبرني عن حكمتك!»

آه، قد فتحتِ عينيك ثانية، أيتها الحياة الحبيبة! وبدا لي أنني أغوص من جديد فيما لا يدرك كنهه.

هكذا أنشد زرادشت. ولكن عندما انتهت الرقصة وغادرت الفتيات، صار زرادشت حزيناً.

«الشمس غربت منذ زمن بعيد - قال أخيراً - والمرج أصبح رمادياً ، وتلفحنا البرودة القادمة من الغابات.

شيء مجهول يحيط بي وينظر بانشغال. كيف! أما زلت حياً يا زرادشت!

لماذا؟ ولأي غاية؟ ومن أجل من؟ وإلى أين؟ وفي أي مكان؟ وكيف؟ أليس من الجنون العيش في هذه الحياة؟

آه، يا أصدقائي، إنه المساء يستجوبني. فاغفروا لي حزني!

لقد حل المساء، فاغفروا لي، حلول المساء!».

هكذا تكلم زرادشت.

أنشودة الضريح

«هنـاك توجـد جزيـرة القبـور الـصامتة، وهنـاك توجـد قبـور شـبابي، وإلى هنـاك سـأحمل إكليل الحياة دائم الخضرة».

بهذه النية ركبت البحر.

آه، يا صور ورؤى شبابي! ويا نظرات الحب واللحظات الإلهية! كم مضيتم سريعاً!

إنني أتذكركم اليوم وكأنكم متّم بالنسبة لي.

منكم يا أمواتي الغالين، ينزل إليّ الشذا الحلو، يغسل قلبي بالدموع فيخفف عنه. حقاً، إنه يلمس القلب عميقاً ويزيل الهم عن قلب السباح الوحيد.

وعلى الرغم من ذلك فأنا الأغنى والأكثر جذباً لحسد الآخرين لي، أنا الأكثر عزلة! إذ إنكم كنتم عندي، في حين أنني ما زلت عندكم.

أخبروني، لمن تساقطت التفاحات الموردة عن الشجرة كالتي تساقطت إليَّ؟

وأنا على الرغم من كل شيء هدف لمحبتكم ووريث يزدهر بذكرى عنكم بالفضائل البرية المرقشة، أنتم يا أحبتي!

آه، قد خلقنا لنبقى على مقربة من بعضنا بعضاً، أنتن أيتها العجائب اللطيفة الغريبة عن هذه المناطق، فلَمْ تقتربن مني ومن رغبتي كاقتراب الطيور الخائفة، لا بل أتيتم كالواثقات بي إلى الواثق بكن!

نعم، قد خُلِقتن لأجل الإخلاص، مثلي، ومن أجل الخلود الرقيق، فهل علي أن أدعوكن الآن باسم خيانتكن، أنتن يا نظرات الحب واللحظات الإلهية، فلم أتعلم اسماً آخر.

حقاً، قد مُتنَّ باكراً بالنسبة لي، أيتها الهاربات. ولكنكن لم تفرن مني، ولم أهرب منكن، لسنا مذنبين أمام بعضنا بعضاً في خيانتنا.

لأجل قتلي حاولوا خنقكن، أنتن يا عصافير آمالي الغريدة! نعم، فيكن يا أحبتي، أطلق الحقد سهامه كي يصيب قلبي!

وقد أصاب! إذ إنكن كنتن دائماً الأقرب إلى قلبي، وكنتن كل ما أملكه وكل ما

يملكني، ولهذا كان عليكن الموت شابات وباكراً جداً!

قد أطلقوا سهامهم نحو أغلى ما لدي والأكثر انجراحاً وألماً، وهو أنتن اللواتي تشبه بشرتكن الزغب الرقيق والابتسامة التي تموت من نظرة واحدة إليها!

ولكنني سأقول لأعدائي: «ماذا يعني قتل الإنسان بالمقارنة بما فعلتموه لي!

قد سببتم لي شراً أكبر من قتل إنسان، قد أخذتم مني مالا يسترجع»- هذا ما أقوله لكم يا أعدائي. ألم تقتلوا رؤاي وأغلى عجائب شبابي! ألم تسلبوني رفاق لعبي، تلك الأرواح المغتبطة! تذكاراً لهم أضع هذا الإكليل وهذه اللعنة.

إنها لعنة لكم يا أعدائي! ألم تجعلوا خلودي أقصر، كما ينكسر الصوت في الليلة الباردة، في لحظة واحدة!

هكذا تحدث نقائي في أحد الأيام في ساعة طيبة: «يجب أن تكون جميع الأحياء ربانية بالنسبة لي».

وعندها هاجمتموني بأشباحكم القذرة، آه، إلى أين ذهبت تلك الساعة!

«جميع الأيام يجب أن تكون مقدسة بالنسبة لي» هكذا قالت حكمة شبابي في يوم من الأيام، وحقاً، إنه حديث حكمة مرحة!

وعندها يا أعدائي سرقتم لياليَ واستبدلتموها بعذاب الأرق. آه، إلى أين ذهبت تلك الحكمة المرحة؟

فيما مضى كنت أبحث عن علامات السعادة بمراقبتي للطيور، وعندها أرسلتم في طريقي وحشاً مقرفاً هو البومة. آه، إلى أين ذهب حينها سعيي الرقيق؟

فيما مضى قطعت عهداً بالتبرؤ من كل اشمئزاز، وعندها حولتم المقربين مني وأقرب الناس إلى جروح متقيحة. آه، إلى أين ذهب حينها عهدي الأكثر نبلاً؟

كالأعمى سرت فيما مضى عبر طرقات الغبطة، وعندها رميتم الوحل في طريق الأعمى، والآن يشعر بالاشمئزاز من طريق الأعمى القديم.

وعندما كنت أفعل الأصعب بالنسبة لي وأحتفل بالنصر والتغلب على الصعوبات، عندها أجبرتم الذين أحبوني، أن يصيحوا بأنني أسبب لهم أسى كبيراً.

حقاً، تصرفتم دائماً بهذه الطريقة، فقد كنتم تسممون أحسن أنواع العسل لدي وجهود أحسن نحلاتي.

كنتم ترسلون إلى أعمالي الخيرية أوقح المتسولين، وقد أجبرتم الماجنين وعديمي الخجل أن يحيطوا برأفتي دائماً، وهكذا طعنتم فضائلي في إيمانها.

وإذا قمت بالتضحية بما هو أكثر قداسة لدي، في اللحظة ذاتها كان «تدينكم» يضيف إلى تضحيتي هداياه الفاخرة، بحيث كان يخفت وسط دخان حمِّكم الخانق كل ما كان لدي أكثر قداسة.

ومرة أردت أن أرقص كما لم أرقص من قبل، فأردت أن أرقص فوق علو جميع السماوات، وعندها أقنعتم أحب المغنين إلى قلبي، فبات يغني أغنية حزينة كئيبة، آه، كان ينفخ في أذنيّ، كالبوق الحزين!

أيها المغني القاتل، يا سلاح الحقد، إن ذنبك أقل من ذنوب الآخرين! كنتُ واقفاً ومستعداً لأداء أفضل الرقصات، فقتلتَ بأصواتك بهجتي!

في الرقص فقط يمكنني التحدث بالرموز حول أرفع الأمور، والآن بقي أملي الأعلى غير متجسدٍ في حركات جسدي!

بقي الأمل الأعلى في داخلي غير متجسد ولا محطم! وماتت كل الصور وأنواع العزاء في شبابي!

فكيف استطعتُ تحمل ذلك؟ وكيف تحملتُ وتغلبتُ على هذه الجروح؟ وكيف انبعثتْ نفسي من هذه القبور؟

نعم، يوجد فيّ شيء لا يمكن طعنه أو دفنه، ذلك الشيء الذي يستطيع أن يُفَجِّر الصخور، إنني أدعوه بإرادتي، التي تقطع السنين بصمت وثبات.

فإرادتي العجوز تريد أن تمشي في طريقها على رجليّ، وشعورها عديم الشفقة منيع.

فأنا منيع في كتفي فقط، وأنتِ ما زلت حية ومخلصة لنفسك، أنت الأكثر صبراً! فقد كنت دائماً تمرين عبر كل القبور!

ما زال حياً فيك كل ما ليس له حل من شبابي، وكالحياة والشباب تجلسين هنا، آملة مترقبة على أنقاض القبور الصفراء.

نعم، ما زلت بالنسبة لي مدمرة جميع القبور، فالسلام عليك يا إرادتي! وفقط حيث توجد القبور يوجد البعث.

هكذا أنشد زرادشت.

التغلب على الذات

أتطلقون اسم «السعي نحو الحقيقة» على ما يحرككم ويجعلكم حاري الطبع، يا أعظم الحكماء؟

وأنا أسمي إرادتكم، سعياً لإدراك جميع الموجودات!

ترغبون أولاً في جعل كل الموجودات قابلة للإدراك، لأنكم تشُكُّون شكاً طيباً في قابلية إدراكها.

ولكنها يجب أن تخضع وتستسلم لكم! هذا ما تريده إرادتكم. إذ يجب أن تصبح ملساء وتخضع للروح كمرآته وما ينعكس فيها.

فإرادتكم بكاملها، يا أيها الحكماء العظماء، تتلخص في السعي إلى السلطة، حتى عندما تتحدثون حول الخير والشر وحول تقييم القيم.

فما زلتم تريدون خلق العالم الذي يمكنكم أن تحنوا رقابكم أمامه، وهذان هما أملكم وحماسكم الأخيرين.

ولكنكم لستم حكماء، إنكم رعاع، فأنتم تشبهون النهر الذي يبحر فوقه قارب، وفي هذا القارب تجلس تقاييم القيم المهيبة صاحبة الملابس الفاخرة.

قد وضعتم إرادتكم وقيمكم فوق نهر التكوين، فالسعي القديم نحو السلطة ينكشف فيما يؤمن به الشعب على أنه خير وشر.

وأنتم يا أعظم الحكماء من أجلستم هؤلاء الضيوف في هذا القارب ومنحتموهم البريق والأسماء الشامخة، أنتم وإرادتكم الحاكمة!

والآن يتابع النهر في دفع قاربكم، إذ عليه أن يدفعه، وليس مصيبة إذا كانت الموجة المنكسرة ترغو وتقاوم قارينة القارب بغضب!

ليس النهر هو الخطر عليكم ونهاية خيركم وشركم، يا أعظم الحكماء، ولكنها هذه الرغبة، الرغبة في السلطة، الرغبة التي لا تنضب والرغبة الخلاقة، إنها الرغبة في الحياة.

ولكي تفهموا حديثي حول الخير والشر، سأقول لكم كلمتي حول الحياة وخاصية كل ما هو حي.

قد راقبت جميع الأحياء، وسرت في دروب عظيمة وصغيرة، كي أدرك تلك الخاصية.

وأخذت ألتقط نظرة الحياة بمرآة شديدة الدقة، عندما كان ثغرها صامتاً، لكي تحدثني نظرتها وقد حدثتني نظرتها.

ولكن حيثما وجدتُ الأحياء، كنت أسمع حديثاً حول الطاعة، فجميع الأحياء تمثل الخضوع.

وثانياً، يؤمر الذي يعجز عن إطاعة ذاته، هذه هي خاصية جميع الأحياء.

وثالثاً، ما سمعته هو أن إصدار الأوامر أصعب من تقديم الولاء والطاعة. وليس السبب وحده في أن الآمر يحمل عبء جميع المطيعين وفي أن هذا العبء يمكن أن يسحقه بسهولة.

فقد بدا لي كل أمر محاولة جريئة، ويخاطر كل حي بنفسه عندما يأمر.

وحتى عندما يأمر الآمر نفسه، عليه أولاً أن يكفر عن أمره، فيجب عليه أن يصبح قاضياً ومنتقماً وضحية لقانونه الذاتي.

«ولكن كيف يحدث هذا!» - سألت نفسي. فما الذي يدفع جميع الأحياء إلى الطاعة، والطاعة عند إصدار الأمر؟

فاسمعوا كلمتي، يا أعظم الحكماء، وتأكدوا بجدية، إن كنت قد نفَذت إلى قلب الحياة وجذوره!

فحيثما وجدتُ الأحياء، وجدتُ إرادة نحو السلطة، وحتى في إرادة المستخدم وجدتُ رغبة في السيادة.

فلكي يخدم الضعيف القوي تدفعه إلى ذلك إرادته، التي تريد أن تسود على من هو أضعف منها، وهذا هو الفرح الوحيد الذي تعجز عن الاستغناء عنه.

وكالصغير يمنح نفسه للكبير، لكي يفرح الأخير ويمتلك السلطة على الصغير، كذلك يضحي الكبير بنفسه، ويضع حياته على المحك في سبيل السلطة.

إن تضحية العظيم تكمن في وجود الجرأة والخطر واللعب من أجل الحياة أو الموت خلاله.

وحيثما وُجِدَت التضحية والخدمة ونظرات الحب وُجِدت إرادة السيادة. يمر الضعيف بطرق عوجاء ليصل إلى قلعة وقلب القوي، ويخطف منه السلطة.

وإليكم هذا السر الذي باحت لي به الحياة. «انظر - قالت الحياة - فعلي دائماً التغلب على نفسي. ولا شك أنكم تسمون ذلك رغبة في الخلق أو سعياً إلى الهدف وإلى الأعلى والأرفع والأبعد والأعقد، ولكن ذلك كله يشكل سراً موحداً.

والأفضل لي أن أموت على أن أتخلى عن ذلك، وحقاً، حيث يوجد المغيب وتساقط الأوراق، هناك تضحي الحياة بنفسها من أجل السلطة!

علي أن أكون صراعاً وتشكلاً وهدفاً وتناقضاً للأهداف. آه، فالذي يخمن إرادتي، يخمن الطرق العوجاء التي يجب أن تسير فيها!

فمهما خلقت وكيفما أحببت ما خلقتُ، علي بعد فترة قصيرة أن أصبح عدوة له وعدوة لحبي، فهذا ما تريده إرادتي.

وحتى أنت، أيها المُدْرِك، لست سوى درباً وأثراً لإرادتي. حقاً، إن رغبتي في السلطة تتعقب آثار رغبتك في معرفة الحقيقة!

طبعاً، لم يحصل على الحقيقة من أرسل في أثرها كلمة حول «إرادة الوجود»، فلا وجود لإرادة كهذه!

إذ إن ما هو غير موجود، لا يمكنه الرغبة في شيء، والموجود كيف يمكنه أن يرغب في الوجود.

فحصراً حيث توجد الحياة توجد الإرادة، وهي ليست إرادة تجاه الحياة، ولكنها إرادة تجاه السلطة!هذا ما أعَلِّمُك إياه.

إن الحي يقيِّم الكثير من الأمور أعلى من تقييمه للحياة نفسها، وفي تقييمه بحد ذاته تتكلم الرغبة في السلطة!»

هكذا علمتني الحياة فيما مضى، ومنطلقاً من ذلك يا أعظم الحكماء أحل لغز قلبكم.

حقاً، أقول لكم: لا وجود للخير والشر الذين ليسا زائلين! إذ يجب أن يتعقبا نفسيهما دائماً وباستمرار.

فبمساعدة قيمكم وكلماتكم حول الخير والشر تصنعون الظلم، أنتم يا مقيِّمي القيم، في هذا تكمن محبتكم الخفية وبريقكم وهلعكم وانفعال نفسكم.

ولكن الظلم الأكبر والتغلب الجديد ينموان من قيمتكم، وبهما تتكسر البيضة وقشرتها.

والذي يجب أن يكون خالقاً في الخير والشر، عليه حقاً أن يكون مدمراً أولاً، ومحطماً للقيم.

وهكذا ينتمي الشر الأعظم إلى الخير الأعظم، وهذا الخير هو خيرٌ إبداعيٌّ.

فلنتحدث عنه فقط، أنتم يا أعظم الحكماء، على الرغم من صعوبة الأمر. ولكن السكوت أشد سوءاً، فجميع الحقائق التي يُسكت عنها تصبح سامة.

ولينكسر كل ما يمكنه الانكسار على جدران حقائقنا! فما زال هناك الكثير من الأبنية تستحق البناء!

هكذا تكلم زرادشت.

الأعلون

هادئة أعماق بحري، فمن ذا الذي يمكنه التخمين بأن هذه الأعماق تخفي وحوشاً مضحكة!

حازمة أعماقي، ولكنها تلمع بالألغاز السابحة فيها والضحك.

قد رأيت اليوم شخصاً رفيعاً ومهيباً، وذا روح توابة، آه، كم ضحكت نفسي من قبحه!

بصدر مرفوع، كالذين يحاولون ملء رئتيهم بالهواء، وقف صامتاً ورفيعاً.

علق على نفسه حقائقه القبيحة، غنائم صيده، وكان غنياً بالثياب الممزقة، وتدلت من ملابسه أشواك كثيرة، ولكنني لم أر وردة جورية واحدة.

لم يتعلم الضحك والجمال بعد، فقد عاد هذا الصياد متجهماً من غابة المعرفة.

لقد عاد بعد قتاله مع الحيوانات البرية، وأطل من خلال صرامته حيوان بري لم يُغلَب بعد!

ما زال واقفاً كالنمر المستعد للقفز، ولكنني لا أحب هذه الأنفس المتوترة، فلا يعجبني هؤلاء المنصرفون.

فهل تقولون لي يا أصدقائي، إن لا جدال في الأذواق؟ ولكن الحياة كلها ليست إلا جدالاً في الأذواق!

الذوق، إنه في الوقت ذاته الثقل والمكيال والشخص الذي يكيل، والويل لكل الأحياء لو أرادوا العيش بلا جدال حول الثقل والمكيال والذي يكيل!

فلو أن هذا الرفيع قد تعب من رفعته، لبدأ عندها جماله، وعندها فقط كنت سأتذوقه وأجده لذيذاً.

وفقط عندما يحول نظره عن نفسه، عندها حقاً سيقفز من فوق ظله إلى شمسه مباشرة.

قد طال جلوسه في الظل، وشحب خدا صاحب الروح التوابة، وقارب على الموت جوعاً في ترقبه.

ما زال الاحتقار في نظراته، والاشمئزاز مختبئ على ثغره. وعلى الرغم من أنه يرتاح الآن، إلا أن استراحته هذه ما زالت خارج حدود نور الشمس.

كان عليه أن يعمل كالثور، وكان على سعادته أن تنفح بعطر الأرض، وليس باحتقار الأرض.

رغبت برؤيته ثوراً أبيض، يمشي ناخراً وخائراً أمام المحراث، وعلى خوارِه أن يمتدح كل ما هو أرضي!

ما زال وجهه متجهماً، وظل اليد يمر فوقه، ورؤية عينيه قاتمة.

ما زال عمله ظلاً فوقه، فاليد تجعل من يعمل بها قاتماً، فلم يتغلب بعد على عمله.

كم أحب فيه قفا الثور، ولكنني أود الآن أن أرى فيه نظرة الملاك.

كذلك عليه نسيان إرادة البطل فيه، وعليه أن يصبح بالنسبة لي ممجداً عالياً، وليس سامياً فقط، الأثير نفسه يجب أن يمجده خالياً من الإرادة!

قد غلب الوحوش وفك الألغاز، ولكن ما زال عليه التغلب على وحوشه الذاتية وفك ألغازه، وأن يحولهم إلى أطفال السماء.

لم يتعلم إدراكه بعد كيفية الابتسام والعيش بلا حسد، ولم يخمد بعد تيار ولعه الجارف بالجمال.

حقاً، ليس في الشبع يجب أن تصمت رغبته وتغرق، بل في الجمال! فالجمال يخترق سماحة الذين يعتزمون على السمو.

واضعاً يده فوق رأسه، يجب أن يرتاح البطل، هكذا عليه أن يتغلب على راحته.

ولكن بالنسبة للبطل تحديداً يكون الجمال أصعب الأشياء، إذ يستحيل على كل إرادة قوية إدراك الجمال.

أكثر بقليل أو أقل بقليل، هذا ما يتردد كثيراً هنا، وهذا ما يعني هنا الأكثر من كل شيء.

إبقاء العضلات في بطالة وتحرير الإرادة من حملها، هذا هو الأصعب بالنسبة لكم جميعاً، أيها السامون!

فعندما تصبح السلطة كريمة وتنزل إلى المرئي، فإنني أطلق لقب الجميل على هذا النزول.

ولا أطالب أحداً بالجمال، كما أطالبك أنت، أيها القوي، فلتكن طيبتك هي تغلبك الأخير على ذاتك.

إنني أعتبرك قادراً على فعل أي شر من الشرور، ولهذا أطالبك بالخير.

حقاً، كثيراً ما سخرت من الضعفاء، الذين يتوهمون أنفسهم طيبين، لأن أيديهم عاجزة.

عليك أن تسعى إلى عمود الفضيلة، وكلما ارتفع هذا العمود أكثر، كلما زاد جمالاً ورقة، وزادت في داخله الصلابة وقوة التحمل.

نعم، أيها السامي، في يوم ما عليك أن تصبح جميلاً وتمسك المرآة أمام جمالك الذاتي.

وعندها سترتعش نفسك من جراء الرغبات الربانية، وستكون العبادة في زهوك!

هذا هو سر النفس، فعندما يهجره البطل، يقترب منه في منامه البطل الخارق.

هكذا تكلم زرادشت.

بلد الثقافة

حلقت بعيداً في المستقبل، فغمرني الرعب.

ونظرت من حولي، فرأيت أن الزمن كان معاصري الوحيد.

وعندها ركضت عائداً إلى بيتي، وأسرعت قدر المستطاع. هكذا وصلت إليكم، يا أبناء الحاضر، إلى بلد الثقافة.

لأول مرة نظرت إليكم كما يجب وبنوايا طيبة، حقاً، لقد جئتكم بحنين في قلبي.

ولكن ما الذي حل بي؟ فمهما كان رعبي شديداً، كان علي أن أضحك! فلم تشاهد عيناي يوماً شيئاً أكثر تلوناً!

فتابعت الضحك، في حين كانت رجلاي وقلبي يرتجفون فقلت: «نعم، هنا موطن جميع قدور الطلاء!».

بوجوه مطلية بخمسين لوناً، جلستم يا أبناء الحاضر، لدهشتي العظيمة!

وخمسون مرآة أحاطت بكم، تتملقكم وتقلد لعبة ألوانكم!

حقاً، يستحيل عليكم وضع قناع أفضل من وجوهكم الذاتية، يا أبناء الحاضر! فمن ذا الذي يمكنه التعرف عليكم!

كُتِبت عليكم رموز الماضي، وطليت هذه الرموز برموز جديدة، هكذا اختبأتم من كل المفسرين!

وحتى لو كان الفرد باحثاً في البواطن، من ذا الذي سيصدق أن لديكم بواطن! إذ تبدون مصنوعين من الألوان والأوراق الملصقة ببعضها.

كل العصور والشعوب تنظر بفوضى من تحت أغطيتكم، وكل العادات والعقائد تتحدث بفوضى في حركاتكم.

ولو أن أحداً حرركم من أغطيتكم وأرديتكم وألوانكم وحركاتكم، فإنه سيبقى لديه الكثير ليخيف به الطيور.

حقاً، إنني نفسي طير خائف رآكم يوماً عراة وبلا ألوان، فطرت بعيداً عندما أخذ الهيكل العظمي يرسل إلي إشارات المحبة.

إذ اشتدت رغبتي في أن أكون أجيراً مياوماً في العالم السفلي وأخدم ظلال الماضي! فسكان العالم السفلي أكثر سمنة وامتلاء منكم!

إن مرارة باطني، في أنني لا أحتملكم سواء كنتم عراة أو مرتدين لملابسكم، أنتم يا أبناء الحاضر!

كل شيء يُقلِق في المستقبل، والشيء الذي كان يخيف الطيور المهاجرة فيما مضى، يوحي حقاً بثقة أكبر من «واقعكم».

إذ إنكم تقولون: «نحن الواقع بكامله، ومن دون إيمان ووساوس» هكذا تتفاخرون، آه، مع عدم امتلاككم لشيء تفخرون به!

وكيف يمكنكم أن تؤمنوا أيها المطليون بغلظة! أنتم يا صور كل ما آمنتم به فيما مضى!

أنتم، الدحض المتنقل للإيمان نفسه ونثار الأفكار. يا عديمي الأصالة، هكذا أدعوكم، يا لسان حال الواقع!

كل الأزمان تتحدث في عقولكم ضد بعضها بعضاً، ولكن أحلام وهذيان العصور كانت أقرب للواقع من يقظتكم!

أنتم عقيمون، ولهذا ينقصكم الإيمان. ولكن الذي عليه أن يبدع في الخلق، ذلك كانت لديه دائماً أحلامه النبوية ونجوم فأله، وكان يؤمن بالإيمان!

أنتم، أبواب نصف مفتوحة، ينتظر أمامها حفارو القبور. وواقعكم هو في أن: « كل شيء يستحق الفناء».

آه، إنكم تقفون أمامي، أيها العقيمون، والهياكل العظمية الحية! وكثيرون منكم فهموا ذلك جيداً.

وقالوا: «يبدو أن الرب سلبني شيئاً أثناء نومي؟ حقاً، ذلك يكفي لصنع امرأة منه! مثير للدهشة نحف أضلاعي!» - هكذا قال الكثيرون من أهل الحاضر.

نعم، إنكم تستدعون سخريتي، يا أهل الحاضر! وبخاصة عندما تعجبون من أنفسكم.

والويل لي لو أنني عجزت عن السخرية من تعجبكم واضطررت لابتلاع كل ما هو كريه في قدوركم!

ولكنني أريد أن أعاملكم بخفة، إذ علي أن أحمل شيئاً ثقيلاً، وما شأني إذا جلست الحشرات والذباب فوق حملي!

حقاً، لن يصبح أثقل من جراء ذلك! وليس من طرفكم، يا أهل الحاضر، يجب أن يأتي إلي التعب العظيم.

آه، إلى أين يمكنني أن أصعد مع رغبتي! ومن فوق كل الجبال أستطلع موطن آبائي.

ولكنني لم أجد موطناً في أي مكان، ولم أستقر في أي مدينة، فخرجت من جميع الأبواب.

إن أهل الحاضر غُرباء عني وموضع لسخريتي، وإليهم كان يدفعني قلبي منذ فترة قريبة، وقد طُرِدتُ من موطن آبائي.

ولهذا لم أعد أحب إلا موطن أبنائي، المجهول والموجود في أبعد البحار، فلتبحث عنه سفني.

بأولادي أريد أن أكفر عن كوني سليلاً لآبائي، وأن أكفر بكل ما هو مستقبلي عن هذا الحاضر!

هكذا تكلم زرادشت.

الإدراك الذي لا تشوبه شائبة

البارحة طلع القمر، فظننت أنه يريد أن يلد الشمس، ولكنه خدعني، ولهذا زاد إيماني بالرجل فوق القمر مما هو بالمرأة.

ولاشك في أن هذا الحالم الليلي الخجول قليل الشبه بالرجل. حقاً، إنه يتسكع فوق السطوح بضمير ملطخ.

إنه مليء بالمطامع والشك، هذا الراهب فوق القمر، وحريص على الأرض وكلّ أفراح العشاق.

لا، أنا لا أحبه، هذا الهر فوق السطوح! فأنا أشمئز من كل الذين يتسللون خفية إلى النوافذ المشقوقة!

يتسكع فوق سجاد النجوم بتدين وصمت، ولكنني لا أحب أقدام الرجال التي تدوس متسللة، والتي لا ترن عليها حتى المهاميز.

فخطوات كل صادق تتحدث، ولكن الهرة تمشي على الأرض خلسة. انظر، القمر يطلع بلا أمانة كالهرة.

إن هذه المقارنة ألصقها بكم، أيها المنافقون الحساسون، أيها الباحثون عن «الإدراك النقي»! وأنتم من أدعوكم بالشهوانيين!

كذلك تحبون الأرض وكل ما هو أرضي، قد كشفتكم تماماً! ولكن الخجل في محبتكم والضمير الملطخ، فأنتم تشبهون القمر!

قد أقنعتم روحكم باحتقار كل ما هو أرضي، وليس باطنكم وهو الأقوى فيكم!

والآن تخجل روحكم لأنها تهدد باطنكم، وتتسلل عبر مسالك الكذب والخداع، كي لا تلتقي مع خجلها الذاتي.

«بالنسبة لي كانت السعادة العظمى - هكذا تقول لنفسها روحكم الكاذبة - أن أنظر إلى الحياة بلا مطامع، وليس كالكلب بلسان متدل.

الكـون سـعيد في التأمـل، بـإرادة ميتـة، وبـلا نوبـات الأنانيـة وجـشعها، الأنانيـة البـاردة والرمادية فوق الجسم بكامله، ولكن بعيني القمر الثملتين!

بالنسبة لي كان المصير الأفضل - هكذا يغوي نفسه المَغوِي - أن أحب الأرض كما يحبها القمر، وألا ألامس جمالها إلا بعيني.

وأنا أدعو بالإدراك الذي لا تشوبه شائبة كل الأشياء، عندما لا أريد منها شيئاً، باستثناء الاستلقاء أمامها كالمرآة بمئة عين».

أنـتم أيهـا المنـافقون الحـساسون! أنـتم الـشهوانيون! تنقـصكم البـراءة في رغبـاتكم، ولهـذا تفترون على الرغبة!

حقاً، إنكم لا تحبون الأرض كما يحبها الخلاقون والمنتجون والفرحون بالخلق!

فـأين توجـد البـراءة؟ إنهـا حيـث توجـد إرادة الـولادة. والـذي يريـد أن يخلـق مـا هـو أبعـد مـن نفسه، فذاك لديه في نظري أنقى إرادة.

وأين يوجد الجمال؟ إنه حيث يجب أن أرغب بكامل إرادتي، حيث أريـد أن أحـب وأمـوت، كي لا تبقى الصورة صورة فقط.

المحبة والفناء، ذلك يتطابق مع الخلود. والرغبة في المحبة تعني كذلك الرغبة في الموت. هكذا أقول لكم، يا صغار الأنفس!

ولكن نظراتكم قذرة ومدللة، وتريد أن تكون «تـأملاً»! والـشيء الـذي يمكـن ملامسته بعين جبانة، يجب أن يلقب باسم «الرائع»! أنتم يا مدنسي الأسماء الكريمة!

إن لعنتكم، أنـتم يـا مـن لا عيـب فيكم، والبـاحثين عـن الإدراك النقـي، أنكـم لـن تلـدوا أبداً، على الرغم من استلقائكم فوق الأفق!

حقـاً، إن أفـواهكم مليئـة بـالكلمـات الكـريمـة، وعلينـا أن نـؤمن بـأن قلـوبكم مليئـة إلى حوافها، أنتم أيها الكذابون؟

ولكـن كلمـاتي هـي كلمـات خشنة ومزدريـة وبسيطة، وأحـب أن ألـتقط مـا يتـساقط مـن طاولاتكم أثناء الاحتفالات.

ففي مقدوري أن أقول بها الحقيقة للمنافقين! نعم، فعظامي السمكية ومحـاراتي وأوراقـي الشائكة يجب أن تدغدغ أنوف المنافقين!

إن الرائحة الكريهة تحيط بكم وباحتفالاتكم دائماً، إذ إن أفكاركم الشهوانية وكذبكم وزيفكم معلقة في الهواء!

فغامروا أولاً في تصديق أنفسكم، وتصديق بواطنكم! فمن لا يصدق نفسه يكذب دائماً.

قد تسترتم بقناع الرب أمام أنفسكم، أنتم أيها «الطاهرون»، واختبأت دودتكم الحلقية الكريهة داخل قناع الرب.

حقاً، إنكم تَخدعون، «أيها المتأملون»! وحتى زرادشت خُدِعَ في يوم ما بمظهركم الخارجي الإلهي، ولم يكتشف أي أفاعٍ تملأ جوف هذا المظهر الخارجي.

قد حلمت يوماً برؤية النفس الربانية وهي تلعب ألعابكم، أنتم أيها الباحثون عن المعرفة النقية! ولم أحلم يوماً بفن أفضل من فنكم!

قذارة الأفاعي والرائحة النتنة خبأهما لي البعد، ومكر السحلية كان يزحف بشهوانية هنا.

ولكنني اقتربت منكم أكثر، وعندها حل علي النهار، والآن يحل عليكم أيضاً، لقد انتهت مغامرات الهلال.

انظروا إليه! ها هو واقف مباغَتٌ شاحبٌ أمام فجر الصباح!

إن النجم الناري أصبح قريباً، ومحبته تقترب من الأرض! فالبراءة وعطش الخالق هما عشق كل شمس!

فانظروا إليه، كيف يصعد بلا صبر فوق البحر! ألا تشعرون بأنفاس حبه الساخنة المتعطشة؟

إنه يريد أن يرتوي بالبحر حتى السكر، ويسحب أعماق البحر إلى علوه، وبألف صدر ينهض إليه البحر الملتهب.

إذ إنه يريد، أن تقبله الشمس وترتوي به، فهو يريد أن يصبح هواء وعلواً وطريق نور ونوراً بذاته!

حقاً، كالشمس أحب الحياة وكل البحار العميقة.

ويكمن الإدراك بالنسبة لي، في أن يرتفع كل ما هو عميق إلى علوي!

هكذا تكلم زرادشت.

العلماء

أثناء نومي جاءت النعجة وأكلت إكليل اللبلاب فوق رأسي، وقالت وهي تلتهمه: «لم يعد زرادشت عالماً بعد الآن».

قالت قولها هذا وابتعدت جانباً باستخفاف، فأخبرني طفل بذلك.

إنني أحب الاستلقاء هنا، حيث يلعب الأطفال عند الجدار المهدم وسط نباتات الحسك والخشخاش الأحمر.

ما زلت عالماً في أعين الأطفال، وكذلك بالنسبة لنباتات الحسك والخشخاش الأحمر، فهم بريئون حتى في غضبهم.

ولكنني بالنسبة للخراف لم أعد عالماً، هذا ما يريده قدري، فليُبارَك!

إن الحقيقة في أنني خرجت من بيت العلماء وأوصدت الباب خلفي.

قد جلست نفسي طويلاً وراء طاولتهم وهي جائعة، ولم أتعلم مثلهم كيفية كسر الجوز.

أحب المكان الرحب والهواء فوق الأرض الطرية، كما أنني أُفَضِّلُ النوم فوق جلود الثيران، على النوم فوق ألقابهم ومراسمهم التي يمنحونها.

فأنا حار جداً وأحترق من أفكاري الذاتية، وكثيراً ما تُحبَس أنفاسي. وعندها احتاج للمكان الرحب بعيداً عن جميع الغرف المغبرة.

ولكنهم يتكاسلون في الأماكن الظليلة الباردة، ويريدون أن يكونوا مشاهِدين فقط في كل شيء ويتجنبون الجلوس حيث تحرق الشمس درجات السلالم.

كالذين يقفون في الشوارع ويحملقون إلى المارة، هكذا يقفون هم ويحملقون إلى الأفكار التي أنتجها الآخرون.

وإذا لمستهم بيديك، سينتشر من حولهم الغبار، كما ينتشر الطحين في الهواء عند لمس أكياس الطحين، ولكن من ذا الذي سيظن أن غبارهم يأتي من الحبوب ومن هبات الحقول الذهبية؟

فعندما يدَّعون بأنهم حكماء، أشعر بالحَمِّ من أقوالهم المأثورة التافهة وحقائقهم المزيفة، فغالباً تصدر عن حكمتهم رائحة المستنقعات، وحقاً إنني سمعت نقيق الضفادع في حكمتهم!

إنهم حاذقون وأصابعهم ماهرة، فما هي بساطتي بالمقارنة مع تعدد مؤهلاتهم! فأصابعهم تتقن فنون النسيج والحياكة، وهكذا يحيكون جوارب الروح!

إنهم أجهزة ساعات ممتازة، وعليك فقط أن تديرهم جيداً! عندها يظهرون الوقت بلا خطأ ويصدرون أثناء ذلك ضجيجاً خفيفاً.

إنهم يعملون كالطواحين ويدقون، وعليك فقط أن ترمي لهم حبوبك! وهم سيطحنونها ويصنعون منها غباراً أبيض.

إنهم ينظرون بانتباه إلى أصابع بعضهم بعضاً وهم لا يثقون بالآخَر. إنهم يبتدعون الحيل الصغيرة ويتربصون بالذين تعرج معرفتهم، كما تتربص العناكب.

قد شاهدت كيف يحَضِّرون السم بحذر وعناية، ويرتدون دائماً قفازات زجاجية أثناء ذلك.

كذلك يتقنون اللعب بكعاب النرد المزيفة، وقد صادفتهم يلعبون بحماس شديد لدرجة أنهم كانوا يعرقون أثناء ذلك.

إننا غريبون عن بعضنا بعضاً، وفضائلهم كريهة عندي أكثر من المكر ومن كعاب نردهم المزيفة.

وعندما عشت عندهم، كنت أعيش فوقهم، ولهذا لم يحبوني.

فهم يرفضون سماع صدى خطواتٍ تمشي فوق رؤوسهم، ولهذا وضعوا الخشب والتراب والنثار بيني وبين رؤوسهم.

هكذا كانوا يخمدون ضجيج خطواتي، وقد قل استماع أكثر العالِمين بينهم لي.

كانوا يكدسون كل أخطاء وعيوب الناس بيني وبينهم، وكانوا يسمون ذلك في بيوتهم بأرض الغرفة السوداء.

وعلى الرغم من ذلك ما زلت أمشي مع أفكاري فوق رؤوسهم، وحتى لو أردت أن أمشي فوق أخطائي الذاتية، فإنني كنت سأبقى فوقهم وفوق رؤوسهم.

إن الناس ليسوا متساوين، هكذا يقول العدل. والشيء الذي أريده، ليس من حقهم أن يرغبوا بمثله!

هكذا تكلم زرادشت.

الشعراء

«منذ أن تعرفت على الجسد أكثر - قال زرادشت لأحد تلاميذه - أصبحت الروح بالنسبة لي روحاً لا أكثر، فكل ما لا يتصف بصفة الزوال لا يعدو أكثر من رمز».

«قد سمعت ذلك منك مرة - أجاب التلميذ - وقد أضفت يومها: «ولكن الشعراء يكذبون كثيراً». فلماذا قلت إن الشعراء يكذبون كثيراً؟».

«لماذا؟ - كرر زرادشت - أتسأل لماذا؟ ولكنني لست من الذين يمكنك أن تسألهم: لماذا».

فهل بدأتْ انفعالاتي البارحة؟ وقد عايشت منذ زمن بعيد أسس آرائي.

ولو أنني أردت الاحتفاظ بجميع أسس آرائي لاضطررت لأكون برميل ذاكرة!

لقد أصبح احتفاظي بآرائي كبيراً جداً علي، وكثير من الطيور بدأ يهاجر.

فأجد بين الطيور في برج حماماتي طائراً صغيراً عرج باحثاً عن مأوى، وهو غريب عني ويرتجف عندما أضع يدي عليه.

ولكن ما الذي قاله لك زرادشت مرة؟ هل قال إن الشعراء يكذبون كثيراً؟ ولكن زرادشت شاعر أيضاً.

فهل أنت واثق من أنه أخبرك الحقيقة؟ ولماذا تصدق كلامه؟»

فأجاب التلميذ: «إنني أؤمن بزرادشت».

ولكن زرادشت هز برأسه وابتسم.

- «الإيمان لن ينقذني - قال زرادشت - ولاسيما الإيمان بي.

ولكن لنفترض أن أحدهم قال بجدية تامة، إن الشعراء يكذبون كثيراً، فإنه محق تماماً لأننا نكذب كثيراً.

إننا نعرف القليل جداً ونتعلم بغير اجتهاد ومثابرة، ولهذا علينا أن نكذب.

ومن منا، نحن الشعراء، لم يمزج خمره بالماء؟ فالكثير من الخلائط السامة حضرت في أقبيتنا، والكثير مما لا يمكن وصفه حدث هناك.

وبما أننا نعرف القليل جداً، فإنه يعجبنا بشكل خاص فقراء النفس وبخاصة إذا كن نساءً شابات.

كما أننا حريصون على ما تحكيه العجائز لبعضهن بعضاً في المساء، ونحن ندعو ذلك بالأنوثة الخالدة في داخلنا.

وكأنما يوجد مدخل خاص وسري إلى المعرفة، المخفي عن الذين يتعلمون شيئاً ما، فهكذا نؤمن بالشعب و"حكمته".

فجميع الأدباء يؤمنون بأن الاستلقاء فوق العشب في حرج منعزل وإرهاف السمع، يمكن أن يُعْلِمك بأشياء موجودة بين السماء والأرض.

وعندما ينزل على الشعراء المزاج الرقيق، فإنهم يعتقدون دائماً أن الطبيعة نفسها مغرمة بهم، وأنها تتسلل إلى آذانهم، كي تهمس لهم بأحاديث غامضة وعاشقة ومتملقة، وبهذا يتفاخرون ويتباهون أمام كل الفانين!

آه، هناك الكثير جداً من الأشياء بين السماء والأرض، والتي لم يتجرأ على الحلم بها إلا الشعراء! ولاسيما التي هي أعلى من السماء، إذ إن كل الآلهة هي في جوهرها رموز من صنع خيال الشعراء!

حقاً، إننا مشدودون دائماً نحو الأعلى، نحو مملكة الغمام، وفوق الغمام نُجلِسُ المدللين المبرقشين عندنا وندعوهم عندها بالآلهة وبالبشر الحقيقيين، إذ إنهم خفيفو الوزن بالنسبة لهذه العروش! كل هذه الآلهة والبشر الحقيقيون.

آه، كم تعبت من كل ما هو مستحيل، ويريد حتماً أن يصبح حدثاً! آه، كم تعبت من الشعراء!

وطوال تحدث زرادشت بهذه الطريقة، كان تلميذه غاضباً منه، ولكنه بقي صامتاً. لذلك صمت زرادشت، ولكن نظره كان موجهاً إلى الداخل، وكأنما كان ينظر إلى العمق البعيد، وأخيراً تنهد.

ـ أنا ابن اليوم وابن الماضي ـ قال بعدها ـ ولكن يوجد فيَّ شيء من الغد ومن بعد غد ومن اللاوجود.

قد تعبت من الشعراء، القدامى والجدد، فهم جميعهم سطحيون بالنسبة لي، وهم بالنسبة لي أماكن ضحلة في البحر.

فقد قصّروا في تمعنهم للعمق، ولهذا لم يصل إحساسهم إلى القاع.

فما زالت أفضل أفكارهم تقتصر على القليل من الشهوة والقليل من الملل، لا أكثر.

وتبدو لي أصوات قيثاراتهم نسمة وعَدْوَاً للأشباح، فما الذي عرفوه حتى الآن عن الوهج النفسي المولد للأصوات!

إنهم بالنسبة لي ليسوا مرتبين كفاية، وجميعهم يعكرون مياههم، كي تبدو عميقة.

وهم يحبون تقديم أنفسهم على أنهم مصلحون وموفِقون بين الناس، ولكنهم يبقون بالنسبة لي بشراً غير مرتبين، ووسطاء وحالة وسط تعكر كل شيء!

آه، إنني أرمي شباكي في بحارهم، راغباً اصطياد سمك جيد، ولكنني دائماً أسحب رأس أحد الآلهة القدامى.

هكذا كان البحر يقدم حجراً للجائع. ويبدو لهم أنهم نشؤوا من البحر.

وبلا شك، تجد لديهم اللآلئ، وبخاصة لأنهم يشبهون المحارات الصلبة، وكثيراً ما وجدت لديهم عوضاً عن النفس وحلاً مالحاً.

قد تعلموا من البحر غروره، أوليس البحر طاووس الطواويس؟

فهو يفرد ذيله أمام أقبح الجواميس، ولا يتعب أبداً من اللعب بمروحته من زراكش الدنتلا والحرير والفضة.

وينظر الجاموس عابساً، وهو الأقرب في نفسه إلى الرمل، وأكثر قرباً من الوحل، ويزداد قرباً من المستنقع.

فما همه بالجمال والبحر وأناقة الطاووس! هذه المقارنة أطبقها على الشعراء.

حقاً، إن روحهم نفسها هي طاووس الطواويس وبحر من الغرور.

فروح الشاعر تطالب بالمشاهدين، حتى وإن كانوا جواميس! ولكنني تعبت من هذه الروح، وأتوقع وقتاً تتعب فيه من نفسها.

سبق لي أن رأيت الشعراء متغيرين وموجِّهين أنظارهم ضد أنفسهم. ورأيت قرب مجيء التوابين في الروح، فقد نشؤوا منهم.

هكذا تكلم زرادشت.

الأحداث العظيمة

توجد جزيرة في البحر، على مقربة من جزر الغبطة، جزر زرادشت، يُدخن فوقها دائماً جبل ينفث النار، ويقول الناس ولاسيما النساء العجائز عن هذا الجبل، إنّه وُضِعَ كالحجر، أمام أبواب العالم السفلي، وتمر عبر الجبل نفسه طريق ضيقة، تقود إلى أبواب هذا العالم السفلي.

وحدث أنّه في الفترة التي كان فيها زرادشت يتواجد في جزر الغبطة، أن رست سفينة عند الجزيرة التي يقوم عليها جبل الدخان، ونزل ركابها إلى الشاطئ كي يصطادوا الأرانب، وعند الظهيرة اجتمع القبطان ومرافقيه من جديد، ورأوا فجأة شخصاً قادماً إليهم في الهواء، وصوت قال بوضوح: "آن الأوان! منذ زمن بعيد آن!" وعندما اقتربت منهم الرؤى كثيراً، مرت بجانبهم مسرعة كالظل، إلى حيث كان يقوم جبل النار، وعندما علموا ولحيرتهم الشديدة، أنّه كان زرادشت، إذ إنهم جميعهم سبقوا أن رأوه، باستثناء القبطان، وكانوا يحبونه كما يحبه الشعب، مازجين بالتساوي بين المحبة والخشية.

"انظروا - قال الربان العجوز - إنه زرادشت متجه إلى الجحيم!

وفي الفترة نفسها التي رسا فيها أصحاب السفينة والبحارة إلى جزيرة النار، انتشر خبر اختفاء زرادشت، وعندما سُئِلَ أصدقاؤه عنه، كانوا يقولون إنّه ركب سفينة ليلاً، ولم يقل إلى أين سيتجه.

وهكذا نشأت بلبلة، وبعد ثلاثة أيام انضمت إلى هذه البلبلة قصة ركاب السفينة، وصار الناس جميعهم يقولون إن الشيطان أخذ زرادشت. ورغم أن تلاميذ زرادشت كانوا يسخرون من هذه الأقاويل، حتى أن أحدهم قال: "أعتقد أن زرادشت هو الذي أخذ الشيطان"، ولكن الجميع كانوا في أعماق أنفسهم مهمومين وراغبين في رؤيته بأقرب فرصة، ولكم كان فرحهم عظيماً، عندما ظهر زرادشت وسطهم في اليوم الخامس.

وهذه قصة الحديث الذي جرى بين زرادشت والكلب الناري.

ـ الأرض ـ قال هو ـ لها غلاف، وهذا الغلاف مصاب بالأمراض، وأحد هذه الأمراض يدعى "الإنسان". والمرض الآخر يدعى "الكلب الناري"، وحوله ألّف الناس الكثير من الأكاذيب وسمحوا بالكذب حوله.

ولأكتشف هذا السر، قطعت البحر مشياً، ورأيت الحقيقة عارية، حقاً! كانت عارية من رأسها حتى قدميها.

والآن أعرف ما هو هذا الكلب الناري، وكذلك جميع شياطين الفوران والاستياء، التي لا تخشاهم النساء العجائز فحسب.

"اخرج، أيها الكلب الناري، من هاويتك! ـ صحت ـ واعترف، كم يبلغ هذا العمق؟ ومن أين يأتي ما تنفثه للأعلى؟

إنك تشرب من البحر حتى ترتوي، وهذا واضح من ملح فصاحتك! حقاً، إنك بالنسبة لكلب من الهاوية تأخذ الكثير جداً من الغذاء من السطح!

إنني أعتبرك أكبر المتحدثين من جوف الأرض، وفي كل مرة كنت أسمع فيها أحاديث شياطين الاستياء والفوران، كنت أجدهم يشبهونك، بكل ملحك وكذبك وسطحيتك.

أنتم تتقنون الزئير والطمر بالرماد، كما أنكم متبجحون كبار وقد درستم جيداً فن تسخين الوحل.

فحيث أنتم، يجب أن يجاوركم الوحل حتماً والكثير مما يشبه الإسفنج المسامي المكبوس، كل هذا يريد الحرية.

"الحرية". تولولون جميعكم برغبة، ولكنني لم أعد أؤمن "بالأحداث العظيمة"، إذ يكثر حولها الكثير من الضجيج والدخان.

وصدقني، فضجيج الجحيم حدث عظيم، وهذه ليست أكثر ساعاتنا صخباً، بل هي أكثر ساعاتنا هدوءاً.

فالعالم لا يدور حول صانعي الضجيج الجديد، بل يدور حول صانعي القيم الجديدة، إنه يدور بصمت.

واعترف فحسب! بأن ما تحقق كان يبدو دائماً ضئيلاً بعد أن يتشتت ضجيجك ودخانك. حسناً، فماذا يهم في تحول المدينة إلى حطام وتساقط الأعمدة وسط الوحل!

وهذا ما سأقوله لمحطمي الأعمدة، فلا شك بأن في عملهم جنون كبير، وهو رمي الملح في البحر والأعمدة في الوحل.

فقد استلقى العمود في وحل احتقاركم، ولكن هذا هو قانونه، فبالنسبة له تنبثق من الاحتقار حياة جديدة وجمال حي!

والآن ينهض العمود في هالة ربانية، وهو أشد إغراءً في معاناته، وحقاً! إنه سيشكركم بعد، لأنكم أسقطتموه، أيها المخربون!

والنصيحة التي أسديها للقياصرة والكنائس وإلى كل ما هرم بتأثير العمر والفضيلة - اسمحوا بإسقاطكم! كي تعودوا ثانية إلى الحياة وكي تعود إليكم الفضيلة!"

هكذا تحدثت أمام الكلب الناري، ولكنه قاطعني بغضب وسألني: "الكنيسة؟ من تكون؟"

"الكنيسة؟ - أجبته - إنها نوع من الدولة، وهي النوع الأشد زيفاً وكذباً. ولكن اصمت، أيها الكلب الناري! فأنت تعرف نوعك أفضل من الآخرين!

فمثلما أنت، كذلك هي الدولة كلب نفاق، ومثلك تحب الدولة التكلم وسط الدخان والضجيج، كي تجبر على تصديق أنها مثلك تتحدث من بواطن الأشياء.

إنها تود حتماً أن تكون أهم حيوان فوق الأرض، ويصدقونها في هذا الأمر أيضاً"

وما إن قلت ذلك، حتى أخذ الكلب الناري يتلوى كالمسعور من شدة الحسد. "كيف ذلك - صاح هو - أهم حيوان على الأرض؟ ويصدقونه في ذلك؟" - وكم خرج من الدخان والصراخ المرعب من حلقه، حتى أنني ظننت بأنه سيختنق من شدة الغيظ والحسد.

وأخيراً صمت، وقل لهاثه، ولكنه وما إن صمت، حتى قلت ضاحكاً.

"أنت تغضب، أيها الكلب الناري، إذاً فأنا محق بخصوصك!

ولكي أبقى محقاً، استمع إلى قصة كلب ناري آخر، فهو يتحدث فعلاً من جوف الأرض.

فأنفاسه فعلاً من ذهب ومن مطر ذهبي، فهكذا يريد قلبه. فما له وللرماد والدخان والزبد الساخن!

انطلقت ضحكته من داخله، كالغمام المرقش الصغير، إنه يشمئز من تذمرك واستخفافك وأحشائك الممزقة!

ولكنه يأخذ الذهب والضحك من قلب الأرض، لأنه ولعلمك أخيراً، فإن جوف الأرض من الذهب".

وعندما سمع الكلب الناري ذلك، لم يحتمل أن يسمعني حتى النهاية، فقد لوى ذنبه مخزياً، ونبح بجبن! وزحف عائداً إلى عمق مغارته.

هكذا حَدَّثَ زرادشت، ولكن تلاميذه كانوا بالكاد يستمعون إليه، فرغبتهم الهائلة كانت في إخبار زرادشت عن أصحاب السفينة وعن الأرانب والرجل الطائر.

"ليس علي التفكير بذلك! - قال زرادشت - فهل أنا شبح؟

ولكنه ربما كان ظلي. فأنتم بلا شك سمعتم شيئاً ما حول الرحالة وظله؟

وأمر واحد ليس فيه شك، علي بإمساك ظلي بقوة أكبر، وإلا فإنه سيفسد سمعتي وشهرتي".

ثمّ هز زرادشت رأسه مرة ثانية وقال مستغرباً: "ما ظني بذلك! - كرر قائلاً - حسناً، هل آن الأوان منذ زمن بعيد؟"

هكذا تكلم زرادشت.

المتنبئ

ورأيت كيف حلت الكآبة العظيمة بين الناس وتعب أفضلهم من أعمالهم.

وقد فُسِرَت التعاليم، وسار إلى جانبها الإيمان بها: "كل شيء فارغ، والأمر سواء لأن كل شيء حدث في السابق!".

وردد الصدى من جميع التلال: "كل شيء فارغ، والأمر سواء لأن كل شيء حدث في السابق!".

على الرغم من أننا جمعنا المحصول، ولكن لم تعفنت واسودتْ ثمارنا؟ وما الذي سقط من الهلال الحاقد في آخر ليلة؟

عبثاً كان كل جهد وعمل، فقد تحول خمرنا إلى سم، وأحرقت عين السوء مزارعنا وقلوبنا.

جميعنا أصبنا بالهزال، ولو أن النار سقطت علينا، لكنا تناثرنا كالرماد، ولكننا أرهَقنا حتى النار.

جميع الينابيع جفت، وحتى البحر تراجع. الأرض تريد أن تنشق، ولكن الهاوية لا تريد أن تبتلع!

"آه، هل بقي من البحار بحر يمكن الغرق فيه" ـ هكذا تنطلق شكوانا فوق المستنقعات المنبسطة.

حقاً، قد تعبنا كفاية كي نموت، وما زلنا في يقظة ونستمر في الحياة في ضرائحنا!"

هكذا سمع زرادشت حديث أحد المتنبئين، فتغلغلت تنبؤاته في قلب زرادشت وغَيَّرته، فصار يتسكع حزيناً ومتعباً، وصار يشبه الذين تحدث عنهم المتنبئ.

ـ حقاً ـ قال لتلاميذه ـ بعد قليل سيحل الغسق الطويل. آه، كيف سأنقذ ضوئي منه!

كي لا ينطفئ وسط هذا الحزن! عليه أن يبقى نوراً للعوالم البعيدة ولأبعد الليالي!

هكذا، بقي زرادشت يسير حزيناً في نفسه، وثلاثة أيام بقي بلا طعام وشراب لا يجد السكينة، وفقد القدرة على النطق. وأخيراً غرق في نومٍ عميق، وكان تلاميذه جالسين حوله، مستيقظين طوال الليالي الطويلة، ينتظرون بقلق استيقاظه وتكلمه وشفاءه من حزنه.

وهذا هو الحديث الذي قاله زرادشت عندما استيقظ، وكان صوته يصل إلى تلاميذه وكأنه آتٍ من بعيد:

"استمعوا إلى الحلم الذي رأيت، يا أصدقائي، وساعدوني في اكتشاف مغزاه!

فما زال هذا الحلم لغزاً بالنسبة لي، ومغزاه مخفي فيه ولم يحلق بعد بحرية فوقه.

قد حلمت بأنني اعتزلت الحياة بكل ما فيها، وأصبحت حارساً ليلياً للقبور في قصر الموت، القائم فوق جبل منعزل.

وهناك كنت أحرس توابيتها، وكانت القناطر الحزينة مليئة بمغانم انتصاراته، ومن داخل التوابيت الزجاجية كانت تنظر إلي الحياة المغلوبة.

كنت أتنشق رائحة الخلود المغبر، إنني محبط ونفسي مغبرة. ومن ذا الذي في مقدوره أن يحرر نفسه هناك!

وكان ضوء منتصف الليل دائماً من حولي، وكانت العزلة تجلس القرفصاء إلى جانبه، وكان هناك أيضاً صمتٌ ميتٌ مبحوح، هو الأسوأ من بين كل الأصحاب.

كنت أحمل المفاتيح معي، أكثر المفاتيح صدأ، وكنت أتقن فتح أشد الأبواب صريراً بهذه المفاتيح الصدئة.

كالنقيق المشؤوم، كانت تنطلق الأصوات عبر الممرات الطويلة، عندما كنت أرفع مزاليج الأبواب، هذا الطير كان يصيح صيحة شؤم، وكان يستيقظ رغماً عنه.

ولكن الأمر الأشد رعباً، والذي كان يزيد قلبي انقباضاً، هو عندما يصمت كل شيء وينتشر الصمت في كل مكان، وأنا وحدي كنت جالساً وسط هذا الصمت المشؤوم.

ولكم كان سير الوقت بطيئاً، هذا إذا كان لا يزال للوقت وجود، فكيف لي أن أعرف ذلك! ولكن أخيراً حدث شيء أيقظني.

فقد طُرِقت الأبواب ثلاث مرات كالرعد، وثلاث مرات دوت وزمجرت القناطر رداً على الطرق، وعندما توجهت إلى الأبواب.

"ألبا! ـ صرخت ـ من ذا الذي يحمل رفاته صاعداً بـه الجبـل؟! ألبـا! ألبـا! مـن ذا الـذي يحمـل رفاته صاعداً به الجبل؟"

وأخذت أضغط على المفتاح وأشد على الباب كي أفتحه، ولكنه كان عصياً على الفتح.

وعندها فتحت الرياح العاصفة شقي الباب، ورمت لي تابوتاً أسود وهي تصفر وتزعق وتشق الهواء.

ووسط الضجيج والصفير والزعيق الحاد، انشق التابوت، ودوى من داخله ضحك بألف نوع.

وألـف مظهـر للأطفـال والملائكـة والبـوم والحمقـى والفراشـات بحجـم الطفـل، كـانوا يضحكون ويستهزئون بي ويندفعون نحوي.

فأصبت بهلع شديد وسقطت أرضاً، وصرخت من شدة الفزع، كما لم أصرخ من قبل.

ولكن صرختي أيقظتني، فعدت إلى وعيي".

هكـذا روى زرادشـت حلمـه ومـن ثـم صـمت! إذ إنـه لم يـزل جـاهلاً بدلالـة حلمـه. ولكـن التلميذ الذي كان يحبه زرادشت أكثر من البقية، نهض مسرعاً، وأمسك بيد زرادشت وقال:

"إن حياتك نفسها تفسر لنا هذا الحلم، يا زرادشت!

ألست أنت هو هذه الرياح، التي تفتح بصفيرها أبواب قصر الموت؟

ألـست أنـت هـو هـذا التـابوت، الممتلئ بالغضب الملون بجميـع الألـوان وبالمظـاهر الملائكيـة للحياة؟

حقاً، كضحك الأطفال بألف طريقة، يقتحم زرادشت جميع الأضرحة، ساخراً من حراس الليل والقبور ومن كل من يقعقع بالمفاتيح الصدئة.

ستخيفهم وترميهم أرضاً بضحكك، وسيثبت الإغماء والاستيقاظ سلطتك عليهم.

وحتـى عنـدما يحـل الغسق الطويـل والتعـب القاتـل، لـن تغـرب مـن سمائنـا، أنـت، يـا حـامي الحياة!

لقد أريتنا النجوم الجديدة، وروعة الليل الجديدة، حقـاً لقـد بـسطت فوقنـا الـضحك خيمـة ملونة.

منذ اللحظـة سـينبثق ضـحك الأطفـال دومـاً مـن جـوف القبـور، ومنـذ اللحظـة سـتهب الريـاح الجبارة دوماً، الرياح المنتصرة على التعب القاتل، فأنت كفيلنا ونبينا في ذلك!

حقاً، إنك رأيت أعداءك أنفسهم في حلمك، وكان ذلك هو الكابوس الأكبر بالنسبة لك!

ولكن مثلما أفقت منهم واستعدت وعيك، كذلك عليهم أن يفيقوا من أنفسهم، ويأتوا إليك!"

هكذا تحدث التلميذ، وكان البقية يتدافعون إلى زرادشت، ويمسكون يديه ويريدون إقناعه بترك فراشه وحزنه والعودة إليهم. في حين كان زرادشت جالساً، متكئاً في فراشه وتبدو في عينيه نظرة موحشة. كالعائد بعد غياب طويل، كان ينظر إلى تلاميذه، ويتفرس في وجوههم، وما يزال لا يتعرف عليهم. ولكنهم عندما رفعوه وأوقفوه على قدميه، تغيرت نظرته فوراً، وفهم كل ما حدث، وقال بصوت صلب وهو يمسد لحيته:

"حسناً، سيأتي ذلك في وقته، ولكن احرصوا يا تلاميذي على أن يكون لدينا طعام غداء جيد، وأسرعوا في تحضيره! فأنا أنوي بهذه الطريقة التكفير عن كوابيسي!

ويجب أن يأكل المتنبئ ويشرب إلى جانبي، حقاً، إنني سأريه البحر الذي يمكنه الغرق فيه!"

هكذا تكلم زرادشت.

ونظر طويلاً في وجه تلميذه، الذي فسر له حلمه، وكان يهز برأسه أثناء ذلك.

الخلاص

مرة عندما كان زرادشت يمشي فوق جسر كبير، أحاط به الكُسْحان والمتسولون، وقال له رجل أحدب:

«انظر، يا زرادشت! حتى الشعب يقتدي بك ويكتسب الإيمان بتعاليمك، ولكن لكي يؤمن بك الشعب تمام الإيمان، تحتاج لأمر آخر، عليك أن تقنعنا نحن الكُسْحان أيضاً! وأمامك هنا مجال رائع للاختيار، وحقاً إنها فرصة ممتازة لاختبار قدراتك على أكثر من رأس! ففي مقدورك أن تشفي العميان وتجعل العرج يركضون، وفي مقدورك أن تخفف عن الذي لديه الكثير خلفه، وأعتقد أنها طريقة رائعة لتجعل الكُسْحان يؤمنون بك!».

ولكن زرادشت اعترض على كلام الأحدب بقوله: "عندما تُخلِّص الأحدب من حدبته، فإنك تخلصه من روحه، هذا ما تعلمنا إياه الحكمة الشعبية. وعندما تعيد للأعمى بصره، فإنه يرى على الأرض الكثير من السوء فيلعن من شفاه. والذي يجعل الأعرج يركض يسبب له ضرراً كبيراً، إذ من المستبعد أن يقدر على الركض بسرعة تبعده عن عيوبه ورذائله التي تسبقه، هذا ما تعلمنا إياه حكمة الشعب حول الكُسْحان. فلم لا يتعلم زرادشت من الشعب، إذا كان الشعب يتعلم من زرادشت؟

ولكنني ومنذ أن صرت أعيش بين الناس، أصبح ما أراه هنا هو الشر الأصغر بالنسبة لي، فأحدكم تنقصه العينان، وآخر تنقصه الأذن، وثالث تنقصه الرجلان، ولكن هناك من فقدوا اللسان أو الأنف أو الرأس.

إنني أرى ورأيت أموراً أشد سوءاً، والكثير مما هو شنيع، لدرجة تجعلني أبتعد وأنفر عن التحدث في بعض الأمور، كالناس الذين ينقصهم كل شيء باستثناء فائض الوفرة لديهم، وعن الناس الذين ليسوا سوى عين كبيرة واحدة، أو فم كبير واحد، أو بطن كبير واحد، أو شيئ كبير واحد، إنني أدعوهم بالكسحان حتى أعماقهم.

وعندما خرجت من عزلتي وسرت لأول مرة فوق هذا الجسر، لم أصدق عيني، وبقيت أمعن النظر، وأخيراً قلت: "هذه أذن! إنها أذن بحجم إنسان!" وأمعنت النظر أكثر، وبالفعل خلف الأذن كان يتحرك شيء آخر، صغير لدرجة الشفقة، ومسكين وضعيف. وحقاً، كانت

أذن مرعبة تتربع على عود صغيرة ونحيفة، وهذه العود كانت هي الإنسان! فتسلح بالنظارات، ويمكنك أن ترى وجهاً صغيراً حسوداً، ونفساً منفوخة، تهتز فوق هذا العود. بينما قال لي الشعب، إن الأذن الكبيرة هي ليست الإنسان فحسب، بل هي الإنسان العظيم والعبقري. ولكنني لم أصدق الشعب يوماً عندما تحدث عن العظماء، وبقيت مقتنعاً بأن ذلك هو الكسيح حتى أعماقه، والذي لديه القليل جداً من كل شيء، والكثير جداً من شيء واحد فقط".

قال زرادشت ذلك للأحدب وللذين كان الأحدب بالنسبة لهم مفسِراً وشفيعاً. ثم التفت إلى تلاميذه بامتعاض شديد وقال:

- حقاً يا أصدقائي، إنني أسير بين الناس، كما أسير بين الحطام وبين الأجزاء المنفصلة من الإنسان!

والأمر الأشد فظاعة في نظر ي هو رؤية الإنسان محطماً ومجزّأ، وكأنما خرج من معركة دامية.

وإذا نقلت نظري ما بين الحاضر والماضي، فإنني أجد الأمر ذاته في كل مكان، الحطام وأجزاء منفصلة من الإنسان والمصادفة المرعبة، ولا أجد إنساناً واحداً!

الحاضر والماضي فوق الأرض! آه، يا أصدقائي، هذا هو الأمر الذي لا يطاق بالنسبة لي، وكنت سأعجز عن الاستمرار في الحياة، لو لم أكن متنبئاً بما سيأتي.

فالمتنبئ الراغب والخلاق، هو المستقبل وهو الجسر إلى المستقبل، وآه، كالكسيح فوق هذا الجسر، هذا كله زرادشت.

وكذلك سألتم أنفسكم كثيراً: "من هو زرادشت بالنسبة لنا؟ وكيف علينا أن ندعوه؟" وكأجوبتي كانت أجوبتكم أسئلة.

فهل الواعِد موجود؟ أو المنفذ؟ أو المنتصر؟ أو الوارث؟ أو الخريف؟ أو المحراث؟ أو الطبيب؟ أو المتماثل للشفاء؟

أهو شاعر؟ وهل يقول الحقيقة؟ وهل هو المخلص؟ أو الفاتح؟ أو الطيب؟ أو الشرير؟

إنني أسير بين الناس، وكأنني بين حطام المستقبل، ذلك المستقبل الذي أراه.

ويتلخص إبداعي وسعيي، في جمع وتوحيد كل ما هو حطام ولغز ومصادفة رهيبة.

وكيف كان في مقدوري أن أكون إنساناً، لو لم يكن الإنسان شاعراً وحلاً للغز ومخَلِّصاً من المصادفة!

أن أنقذ الذين في الماضي، وأحول كل "كان" إلى "هكذا أريد أن يكون"، فهذا فقط ما يمكنني أن أدعوه خلاصاً!

"الإرادة" هكذا يُدعى المخلص وبشير الفرح، هكذا علمتكم، يا أصدقائي! والآن تعلموا أيضاً أن الإرادة نفسها ما زالت سجينة.

"أريد" تحرر، ولكن كيف يسمى الشيء الذي يقيد المُخَلِّصَ بالسلاسل؟

"كان" هكذا يدعى صرير الأسنان، والمأساة المكتومة للإرادة، العاجزة أمام ما تم، أصبحت متفرجة حقودة على الماضي وأحداثه.

إن الإرادة لا يمكن أن ترجع للوراء، لأنها تعجز عن التغلب على الوقت وإيقاف حركة الزمن، وفي هذا تكمن المأساة الكبرى للإرادة.

"الرغبة" تُحرِرُ، ولكم تبتكر الإرادة من حيل، كي تتحرر من مأساتها وتسخر من سجانها؟!

آه، يصبح كل سجين مجنوناً! وعن طريق الجنون تحرر الإرادة السجينة نفسها.

إن سخطها نابع من استحالة إعادة الزمن للوراء، "كان" هكذا يدعى الحجر الذي تعجز عن دحرجته.

وها هي تدحرج الحجارة من شدة غيظها وحنقها وتنتقم من الذي لا يشعر مثلها بالغيظ والحنق.

وهكذا صارت الإرادة المُخَلِّصة، تسبب المعاناة، وتنتقم من كل ما يمكنه المعاناة، لأنها عاجزة عن الرجوع إلى الزمن الذي مضى.

وهذا هو الانتقام الخالص، اشمئزاز الإرادة من الزمن ومن ماضيها المدعو "كان".

حقاً، إن جنوناً عظيماً يعيش في إرادتنا، وعندما تعلم هذا الجنون امتلاك الروح، أصبح لعنة على البشرية جمعاء!

روح الانتقام يا أصدقائي، كانت حتى الآن أفضل فكرة عند الناس، وحيثما كانت المعاناة كان يتوجب دائماً حضور العقاب.

"العقـاب" هـذا هـو الاسـم الـذي يطلقـه علـى نفـسه الانتقـام، وهـو يتنكـر في زيّ الـضمير الشريف بمساعدة الكلمة الكاذبة.

وبما أن المعاناة موجودة في الراغب نفسه، لأنه لا يستطيع توجيه رغبته نحو الماضي، فإن الإرادة والحياة ذاتهما يجب أن تكونا عقاباً!

وها قد تجمعن غيمة تلو أخرى فوق الروح، إلى أن بدأ الجنون يخطب أخيراً: "كل شيء يأتي، ولهذا فكل شيء يستحق المجيء!".

"ويعد قانون الوقت عدلاً مثبتاً، لأنه يلتهم أولاده"، هكذا خطب الجنون.

"أخلاقياً وُزِّعَ كل شيء إلى حق وعقاب. آه، أين الخلاص من سيل الأشياء ومن عقاب "الوجود"؟ - هكذا خطب الجنون.

"فهل للخلاص وجود، إذا كان الحق الخالد موجوداً؟ آه، ثابتٌ حجرُ "كان"، وكذلك يجب أن تكون جميع العقوبات خالدة!" - هكذا وعظ الجنون.

"لا وجود لفعل لا يمكن القضاء عليه، وكيف يمكن ألا يتم الفعل من خلال العقاب! فذلك هو الخلود المحدد في العقاب "أي الوجود"، وهو أن الوجود يجب أن يبقى أبداً فعلاً وعقاباً!

"إلى أن تتخلص الإرادة أخيراً من ذاتها وتصبح إنكاراً للإرادة"، ولكنكم تعلمون، يا أخوتي، أمثولة الجنون هذه!

قد أخذتُكم بعيداً عن هذه الأماثيل، عندما كنت أعلمكم: "أن الإرادة هي الخلاقة".

وكل "كان" حطام ولغز ومصادفة مركبة، إلى أن تضيف الإرادة الخلاقة: "ولكنني أردته هكذا!".

- إلى أن تضيف الإرادة الخلاقة: "ولكنني أريده هكذا! هكذا أريد!"

ولكن هل سبق لها أن قالت ذلك؟ ومتى كان يحدث ذلك؟ وهل تحررت الإرادة من جنونها الذاتي؟

وهل أصبحت الإرادة مُخَلِّصة لنفسها وبشيرة فرح؟ وهل نسيت روح الانتقام وكل صرير للأسنان؟

ومن الذي علمها التصالح مع الوقت وما هو الأعظم من أي تصالح؟

يجب على الإرادة أن تسعى إلى ما هو أعظم من أي تصالح، تلك الإرادة التي تسعى إلى السلطة، ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك معها؟ ومن الذي سيعلمها الرغبة في الأمر المعاكس؟"

وفي هذا المكان من حديث زرادشت، حدث أنه صمت فجأة وصار بهيأة المرعوب، ونظر إلى تلاميذه بعينين خائفتين، وكان نظره يخترق أفكارهم وهواجسهم الخفية كالسهم، ولكن سرعان ما عاد بعد لحظة إلى الضحك وقال بلطف:

"يصعب العيش مع الناس، لأنه يصعب الاحتفاظ بالصمت، وخاصة بالنسبة للثرثار".

هكذا قال زرادشت. ولكن الأحدب كان يستمع إلى حديثه وقد غطى وجهه بيديه، وعندما سمع ضحك زرادشت، نظر إليه بفضول وقال ببطء:

"لماذا يحدثنا زرادشت بطريقة تختلف عن حديثه مع تلاميذه؟"

فأجاب زرادشت: "ما الغريب في هذا الأمر! فمع الحُدْبِ يجب التحدث بلغة الحُدْب!"

"حسناً - قال الأحدب - ومع التلاميذ يجب التحدث بلغة المدارس".

"ولكن لماذا يتحدث زرادشت مع تلاميذه بطريقة تختلف عن حديثه مع نفسه؟"

الحكمة الإنسانية

ليس العلو بل الانحدار هو الشيء المرعب!

الانحدار، حيث يسقط النظر سريعاً للأسفل، واليد تمتد للأعلى، وعندها يرتعش القلب من جراء رغبته المزدوجة.

آه، يا أصدقائي، هل تخمنون رغبة قلبي المزدوجة؟

إن الانحدار والخطر بالنسبة لي، يكمنان في أن نظري مشدود للأعلى، ويدي تريد أن تتمسك وتستند إلى العمق! فإرادتي تتمسك بالإنسان، وبالقيود أقيد نفسي إلى الإنسان، لأنني أشعر بانجذاب شديد نحو الأعلى، إلى الإنسان الخارق، إذ إن إرادتي الأخرى تسعى إليه.

ولهذا السبب أعيشُ أعمى بين الناس، وكأنني لا أعرفهم، كي لا تخسر يدي نهائياً إيمانها بشيء صلب.

أنا لا أعرفكم، أيها الناس، فهذا الظلام وهذا العزاء يحيطان بي في أغلب الأوقات.

إنني أجلس أمام بوابة على طريق السفر، سهل المنال لكل محتال، وأسأل: من يريد خداعي؟

إن حكمتي الإنسانية الأولى في أنني أسمح بخداع نفسي، كي لا أكون على حذر من المخادعين.

آه، لو أنني كنت على حذر من الإنسان، كيف يمكن عندها للإنسان أن يكون مرساة لمنطادي! ولكان سهلاً جداً أن أنفصل عن الأرض ليحملني الإعصار بعيداً!

فالعناية الإلهية بقدري، في أنه علي أن أكون من دون تنبؤ.

والإنسان الذي لا يريد الموت عطشاً، يجب أن يتعلم الشرب من جميع الكؤوس، والذي يريد أن يبقى نظيفاً، يجب أن يتقن الاستحمام في الماء القذر.

وكثيراً ما قلت لنفسي معزياً: هيا، انهض، أيها القلب العجوز! فقد فشلت في التعرض للمأساة، فاستمتع بذلك كسعادة خاصة بك!".

وحكمتي الإنسانية الثانية في أنني أرحم المغرورين أكثر مما أرحم المتكبرين.

أليس الغرور المهان هو أُمُّ المآسي كلها؟ ولكن حيثما يهان الكبرياء، هناك ينبثق شيء أفضل من الكبرياء.

للاستمتاع بالنظر إلى الحياة، يجب أنْ تُلعبَ لعبتها جيداً، ولكن ذلك يتطلب ممثلين جيدين.

ووجدت جميع المغرورين ممثلين جيدين، فهم يمثلون ويريدون أن يشاهدهم الجميع باستمتاع، فروحهم بكاملها كامنة في هذه الرغبة.

إنهم يتخيلون أنفسهم ويخترعون أنفسهم، وأحب أن أنظر إلى الحياة وأنا بالقرب منهم، فذلك يشفي من الكآبة والحسرة.

إنني أرأف بالمغرورين، لأنهم أطباء كآبتي وحسرتي ولأنهم يربطونني بالإنسان كمشهد.

ومن ثم من ذا الذي سيقيس في المغرور عمق تواضعه! فأنا أحبه وأشفق عليه بسبب تواضعه.

إنه يريد أن يتعلم منكم إيمانه بنفسه، إنه يتغذى بنظراتكم، ويأكل المديح من أيديكم.

إنه يصدق كذبكم، عندما تكذبون مادحين إياه، لأن قلبه يتساءل متنهداً في الصميم: "من أنا؟"

وإذا كانت الفضيلة الحقيقية هي التي لا تعرف بوجودها الذاتي، فإن المغرور لا يدري بوجود تواضعه!

وتتلخص حكمتي الإنسانية الثالثة في أن هلعكم لا يجعل بالنسبة لي رؤية البشر الأشرار أمراً مقززاً.

إنني سعيد برؤية الأعاجيب التي تولدها الشمس الحارة، كرؤيتي للنمر والنحلة والأفاعي ذات الجلجل.

كذلك بين الناس يوجد مواليد رائعون للشمس الحارة، وحتى الأشرار لديهم الكثير من الروعة.

وكما لم يبدُ لي أكثر حكمائكم كذلك، فإنني وجدت حقد الناس أفضل بكثير مما يتحدثون عنه.

وكثيراً ما تساءلت، هازاً برأسي: "لأي غاية تجلجلن دائماً، أيتها الأفاعي ذات الجلجل؟" حقاً، حتى بالنسبة للشر ما زال هناك مستقبل!

وما يزال الجنوب الأكثر حرارة مجهولاً بالنسبة للإنسان.

لَكم من الأمور الكثيرة يسمونها اليوم بالحقد الأسوأ، والتي هي بعرض اثنتي عشرة خطوة وبطول ثلاثة أشهر! ولكن سيأتي في يوم ما إلى هذا العالم تنانين أكبر بكثير.

ولكي لا يُحْرَم الإنسان الخارق من تنينه الخارق، الذي يستحقه، يجب أن تبقى الشمس المضيئة تتوهج فوق الغابة الرطبة العذراء لزمن طويل بعد!

ويجب في البداية أن تتولد من هرركم البرية نمور، ومن ضفادعكم السامة تماسيح، إذ إن الصياد الجيد يجب أن يصطاد صيداً جيداً!

وحقاً، أنتم طيبون وأتقياء! ويوجد فيكم الكثير مما هو مضحك، ولاسيما خوفكم مما كنتم تسمونه حتى الآن "بالشيطان"!

إن نفسكم غريبة عن كل ما هو عظيم، لدرجة أن الإنسان الخارق نفسه كان سيكون مرعباً في طيبته!

وأنتم، أيها الحكماء والعارفون، كنتم تهربون من قيظ الشمس في تلك الحكمة، التي كان الإنسان الخارق يغسل فيها عريه بفرح.

أنتم، أيها الناس الأعلون، الذين صادفهم بصري! في ذلك تكمن عدم ثقتي بكم وسخريتي الخفية منكم، وإنني أحزر، فأنتم كنتم لتسموا إنساني الخارق شيطاناً!

آه، كم تعبت من هؤلاء الأعلين والأفضلين، فمن "علوهم" شعرت بشوق إلى ما هو أعلى منهم بكثير، وأكثر بعداً عنهم، إلى الإنسان الخارق!

قد أصابني الهلع، عندما رأيت هؤلاء الناس الأفضلين عراة، وعندها نبت لدي الجناحان، كي أطير بعيداً إلى المستقبل البعيد.

إلى المستقبل البعيد، وبلاد الجنوب البعيدة، التي لم يحلم بها أي رسام. إلى حيث تخجل الآلهة من الثياب!

ولكنني أريد رؤيتكم متنكرين، أيها الناس، الأخوة والمقربون مني، متزينين ومغرورين ومتكبرين، كما يتوجب على "الطيبين والمتكبرين" أن يكونوا.

وأريد أن أجلس أنا نفسي متنكراً بينكم، كي لا أتعرف عليكم وعلى نفسي. هذه هي حكمتي الإنسانية الأخيرة.

هكذا تكلم زرادشت.

السكينة "الهدوء"

ما الذي أصابني، يا أصدقائي؟ فأنتم ترونني متكدراً ومنبوذاً وخاضعاً رغماً عن إرادتي ومستعداً للمغادرة، آه، المغادرة بعيداً عنكم!

نعم، يجب على زرادشت أن يعود مرة واحدة أخرى إلى عزلته، ولكن وفي هذه المرة يعود الدب إلى وجاره بلا رغبة!

ما الذي أصابني؟ من الذي يفرض علي ذلك؟ آه، هذا ما تريده آمرتي الغضوب، فهي تتحدث إلي، وهل ذكرت لكم يوماً اسمها؟

في الأمس مساءً تحدثت إلى آمرتي المدعوة بالسكينة، هذا هو اسم آمرتي المرعبة.

وقد حدث ذلك، إذ إنه علي أن أخبركم بذلك، كي لا تقسو قلوبكم على المنصرِف فجأة!

فهل تعرفون فزع المستغرق في النوم؟

إنه يفزع وصولاً إلى أصابع قدميه، لأن التربة تذهب من تحت قدميه، ويبدأ الحلم.

إنه أخبركم بذلك للمقارنة. فالبارحة في ساعة الهدوء العميق، ذهبت التربة من تحت قدمي، وبدأ الحلم.

فانزاح عقرب الساعة، ووقفت ساعة حياتي، كي ترتاح، ولم يسبق لي أبداً أن أحاطني هدوء كهذا، لدرجة أن قلبي فزع.

وعندها كلمتني السكينة بصمت: "هل تعلم ذلك، يا زرادشت؟".

فصرخت من شدة الخوف لدى سماعي هذا الهمس، وهرب الدم من وجهي، ولكنني بقيت صامتاً.

وعندها وللمرة الثانية قالت لي بصمت: "أنت تعرف ذلك، يا زرادشت، ولكنك لا تتحدث حول ذلك!".

وأجبت أخيراً كالعنيد: "نعم، أنا أعرف ذلك، ولكنني لا أريد التحدث به!"

وعندها قالت لي ثانية بصمت: "هل ترفض ذلك، يا زرادشت؟ هل صحيح هذا؟ لا تختبئ في عنادك!"

وكنت أبكي وأرتجف، كالطفل، وأخيراً قلت: "آه، كنت أود ذلك، ولكن هل أستطيع ذلك! اعفني من ذلك! فهذا يفوق طاقتي!".

فعادت وقالت لي بصمت: "ما شأنك فيما سيحل بك، يا زرادشت! قل كلمتك ومت!"

وكنت أجيب: "آه، أهذه هي كلمتي؟ من أنا؟ فأنا أنتظر الأكثر جدارة، وأنا لست جديراً حتى أن أموت من أجله".

وعندها عادت وقالت لي بصمت: "ما شأنك فيما سيحل بك؟ فأنت لست وديعاً كفاية بالنسبة لي. فالوداعة لديها الجلد الأكثر سماكة في الوجود".

وكنت أجيب: "أبَقي شيء لم يتحمله جلد وداعتي! فأنا أعيش عند سفح علوي، فكم هو علو قممي؟ لم يخبرني أحد بذلك حتى الآن، ولكنني أعرف ودياني جيداً".

وعندها عادت وقالت لي بصمت: "آه يا زرادشت، إن الذي وجب عليه تحريك الجبال، ذاك يحرك الوديان والوهاد كذلك".

وأجبت: "ما زالت كلمتي عاجزة عن تحريك الجبال، وكلامي لا يصل أسماع الناس. وعلى الرغم من أنني كنت أسير إلى الناس، ولكنني لم أصل إليهم بعد".

فعادت وقالت لي بصمت: "ما الذي تعرفه عن ذلك! فالندى يتساقط على العشب، عندما يكون الليل في أقصى حدود صمته".

فأجبتها: "كانوا يسخرون مني، عندما وجدت طريقي الخاص وسرت فيه، وحقاً، كانت رجلاي ترجفان.

وكانوا يقولون لي: "قد أضعتَ الطريق، والآن بت لا تعرف حتى المشي!"

وعندها عادت وقالت لي بصمت: "ما لك ولسخريتهم! فأنت هو ذاك الذي أضاع مقدرته على الطاعة، وعليك الآن أن تأمر!

أيعقل أنك لا تعرف الذي يحتاجه الجميع أكبر حاجة؟ إنه الذي يأمر بالأفعال العظيمة.

يصعب القيام بالأعمال العظيمة، ولكن الأصعب هو إصدار الأمر بالقيام بالأعمال العظيمة.

إن الأمر الأعظم الذي لا يُغفَر لك هو أنك تمتلك السلطة، وترفض أن تمارس صلاحياتك السلطوية".

وكنت أجيب: "ينقصني صوت الأسد، كي آمر".

في حين رن همس خافت، همست به السكينة في نفسي: "إن أخفض الكلمات صوتاً هي تلك التي تجلب العاصفة. فالأفكار القادمة قدوم الحمامة تتحكم بالعالم.

آه، يا زرادشت، عليك أن تسير كظل الشيء القادم. هكذا ستأمر وستسير في المقدمة وأنت تأمر".

وكنت أجيب: "يمنعني الخجل".

وعندها عادت السكينة وقالت لي بصمت: "عليك أن تصبح طفلاً، كي لا يزعجك الخجل.

إن كبرياء الشاب ما زالت تثقل عليك، قد تأخرت في استعادة شبابك، ولكن الذي يريد أن يتحول إلى طفل، عليه أن يتجاوز شبابه".

فأخذت وقتاً طويلاً لأقرر ووقفت وأنا أرتجف. وأخيراً قلت، ما قلته في المرة الأولى: "أنا لا أريد".

وعندها انتشر الضحك من حولي. آه، كان هذا الضحك يقطع أحشائي ويمزق قلبي!.

وللمرة الأخيرة قالت لي: "يا زرادشت لقد نضجت ثمارك، ولكنك لم تنضج بعد لهذه الثمار!

ولهذا عليك أن تنعزل من جديد، إذ عليك أن تكمل نضجك".

ومن جديد علا الضحك وأخذ يبتعد عني شيئاً فشيئاً، وعندها عم الصمت من حولي وكان صمتاً مزدوجاً. وكنت أستلقي فوق الأرض، والعرق يتساقط عن جسدي.

ـ لقد سمعتم جميعكم الآن، لما علي العودة إلى عزلتي. فأنا لم أخفِ شيئاً عنكم يا أصدقائي.

ولقد سمعتم كل هذا الكلام مني، أنا الأكثر صمتاً من بين جميع الناس، وأريد أن أبقى كذلك!

آه، يا أصدقائي! باستطاعتي أن أقول لكم الكثير بعد، وباستطاعتي إعطاءكم الكثير! فلماذا لا أعطي؟ وهل أنا بخيل؟

وعندما نطق زرادشت بهذه الكلمات، غمره حزن عظيم لقرب فراقه لأصدقائه، فبكى بصوت عالٍ، ولم يستطع أحد تعزيته! وفي الليل غادر وحيداً تاركاً أصدقاءه.

الجزء الثالث

إنكم تنظرون للأعلى عندما تسعون للارتقاء،

بينما أنظر للأسفل، لأنني علوت.

من منكم يستطيع أن يضحك ويرتقي في آن واحد؟

إن الذي يصعد أعلى القمم الجبلية،

يسخر من كل مآسي المسرح والحياة.

" زرادشت ـ الجزء الأول "

الرحالة

كان الوقت منتصف الليل عندما انطلق زرادشت في رحلته عبر سلسلة جبال الجزيرة، كي يصل في الصباح الباكر إلى الشاطئ المقابل، إذ إنه أراد ركوب السفينة هناك. ففي ذلك المكان توضع مرفأ رائع، كانت ترسو فيه السفن الأجنبية بسرور، وكانوا يأخذون معهم من أراد السفر بحراً من جزر الغبطة. وأثناء صعوده للجبل تذكر زرادشت رحلاته الكثيرة التي سافر فيها وحيداً منذ شبابه الباكر، وتذكر العدد الكبير للسلاسل الجبلية والقمم التي اضطر لصعودها وقطعها.

- أنا رحالة وجوال جبلي - قال لنفسه - فأنا لا أحب الوديان، ويبدو أنني لا أستطيع المكوث طويلاً في مكان واحد.

ومهما كان قدري والشيء الذي سأضطر لمعايشته، فإنه سيحتوي دائماً على الترحال وصعود الجبال، فنحن في نهاية الأمر نتجاوز ذواتنا فقط.

قد ولى ذلك الزمن عندما كانت المصادفات تعترض طريقي، وماذا يمكن أن يحدث معي الآن، غير ما هو مُلكي؟

إن ذاتي تعود إلي، إنها عائدة أخيراً إلى بيتها، وتعود جميع أجزائها التي قضت وقتاً طويلاً في غربتها وتبعثرت بين الأشياء و المصادفات.

وهناك أمر آخر أعرفه، فأنا أقف الآن أمام آخر قمة لي وأمام شيء خصص لي منذ زمن بعيد. آه، علي أن أبدأ الآن أصعب درب سأخطو فيه! آه، لقد بدأت أكثر رحلاتي عزلة!

ولكن الذي يشبهني، سيعجز عن اتقاء هذه الساعة، الساعة التي تقول له: "الآن فقط أصبحت تسير على درب عظمتك! فالقمة والهاوية اتحدتا في كلٍ موحد!

إنك تسير في طريق عظمتك، وما كان حتى الآن يدعى بالخطر الأعظم لديك، أصبح الآن ملجأك الأخير!

إنك تسير على درب عظمتك، والآن يجب أن يكون الدعم الأفضل لك هو إدراكك بعدم وجود درب خلفك!

إنـك تـسير علـى درب عظمتـك، وهنـا لـيس في مقـدور أحـد التـسلل خلـف آثـار قـدميك! فخطواتك كانت تمحي الدرب خلفك، وكتب فوقه: "المستحيل".

وإذا لم يعد لديهم أي سُلُّم، عليك أن تتعلم تسلق رأسك، وإلا فكيف تريد الصعود؟

عليك أن تصعد إلى رأسـك وتتجـاوزه إلى قلبـك! ويجـب أن يتحـول كـل مـا هـو شـديد الرقـة فيك إلى الأشد صرامة.

إن الذي بالغ في حرصه على نفسه واعتنائه بنفسه، سيعتل في نهاية الأمر من حذره المفرط. فالمديح لكل ما يصقل ويقوي! فأنا لا أمدح البلدان التي يسيل فيها العسل والسمن!

فلكـي ترى الكثير عليك أن تتعلم عدم النظـر إلى نفسـك، فهـذه الـصرامة ضـرورية لكـل من يريد تسلق الجبال.

وإذا بحث شخص عن المعرفة بعين ملحاحة، فكيف سيرى في الأشـياء أكثـر مـن أسـبابها الخارجية؟

ولكن أنت يا زرادشت، أردت أن ترى الأسـاس ومغزى الأشياء، ولهذا عليـك أن تتفـوق علـى نفسك، وتعلو أكثر فأكثر، إلى أن تصبح نجومك تحتك!"

نعم! النظر إلى الأسفل، إلى نفسك وإلى نجومك، فهذا فقط ما أدعوه بقمتي، وهـذا هـو مـا تبقى لي كقمة أخيرة لي!

هـكذا تحدث زرادشـت مـع نفسه، وهـو يصعد الجبـل وكـان يعـزي قلبـه بـالأقوال المـأثورة الـصارمة، إذ إن قلبـه كـان يتحـسر كمـا لم يـسبق لـه أن تحـسر مـن قبـل. وعنـدما وصـل قمـة السلسلة الجبلية، رأى بحراً آخر، انبسط أمامه، فتوقف وصمت صمتاً طويلاً. وكان الليل فوق هذا العلو بارداً وصافياً ومزيناً بالنجوم.

ـ إنني أتعرف على قدري ـ قال بحزن أخيراً ـ حسناً! أنا جاهز. لقد بدأت عزلتي الأخيرة.

آه، هـذا البحـر الحـزين الأسـود تحـتي! آه، هـذا الانزعـاج الليلـي الثقيـل! آه، هـذا القـدَر والبحر! إليكما يجب أن أنزل الآن.

إنني أقف أمام أعلى جبل لي وأمام أطول رحلة لي، ولهذا علي أن أنزل أخفض ممـا صعدته في يوم ما.

ـ وعلي أن أغوص في المعاناة أعمق مما صعدت في يوم مـا، إلا أشـد الأمـواج سـواداً! هـكـذا أراد قدري. حسناً! أنا مستعد.

"من أين تأتي أعلى الجبال؟" ـ هكذا تساءلت يوماً، وعندها تعلمت أنها تخرج من البحر.

فهذا ما تشهد عليه أجوافها ومنحدرات سفوحها، فمن أخفض الأشياء يجب أن تنهض أعلى القمم.

هكذا تحدث زرادشت فوق قمة الجبل، حيث كان البرد قارساً، ولكنه عندما صار على مقربة من البحر ووقف وحيداً وسط الصخور، غمره التعب من السفر والحنين وكانا أشد من قبل.

ـ والآن ما يزال كل شيء نائماً ـ قال زرادشت ـ فالبحر نائم كذلك، وتنظر إلي عينه الغريبة الناعسة.

ولكنني أشعر بأنفاسه الدافئة، وأشعر بأنه يحلم. إنه يتقلب في حلمه فوق الوسائد القاسية.

اسمع! كيف يئن من ذكرياته الأليمة! أم من هواجسه المتشائمة؟

آه، إنني أشاركك حزنك، أيها الوحش الغامض، وبسببك آسف على نفسي.

آه، لما لا يوجد في يدي ما يكفي من القوة! حقاً، كنت لأخلصك بسرور من أحلامك المزعجة!

وخلال تحدث زرادشت بهذه الطريقة، كان يضحك بأسى وحزن ساخراً من نفسه.

ـ كيف! يا زرادشت! ـ قال لنفسه ـ أما زلت تفكر بتعزية البحر؟

آه، يا لك من أحمق عطوف، يا زرادشت، فأنت مفرط الغبطة في ثقتك! ولكنك كنت دائماً كذلك، ودائماً كنت تقترب بثقة شديدة من كل ما هو فظيع.

كنت راغباً بملاطفة كل الوحوش. فالأنفاس دافئة وقليل من الفراء الناعم على الأطراف. وكنت مستعداً لتحب الوحش وتجذبه إليك.

إن المحبة خطر على المنعزل، المحبة تجاه كل شيء، شريطة أن يكون حياً! حقاً، تستحقان السخرية، جنوني وتواضعي في الحب!

هكذا تحدث زرادشت وضحك ثانية، وهنا تذكر أصدقاءه الذين تركهم، وكأنما شعر بالذنب أمامهم نتيجة أفكاره، فانزعج من نفسه لتفكيره هذا. فبكى الذي كان يضحك، من شدة الغضب والحزن بكى زرادشت.

الشبح واللغز

١

عندما انتشر بين البحارة خبر تواجد زرادشت فوق السفينة، لأنه ركب معه في الوقت نفسه شخص قدم من جزر الغبطة، وغمر الجميع فضول عظيم وترقب. ولكن زرادشت بقي صامتاً ليومين وكان بارداً وأصماً من شدة حزنه، لدرجة جعلته لا يجيب على نظرات وأسئلة الآخرين. وعند حلول مساء اليوم الثاني فتح أذنيه، مع بقائه صامتاً، إذ إنه كان بالمقدور سماع الكثير مما هو خطير وغير عادي على متن هذه السفينة، القادمة من بعيد، والمتوجهة إلى ما هو أبعد من ذلك. وكان زرادشت يحب كل من يسافر رحلات طويلة ولا يستطيع العيش من دون مخاطر. وهكذا، وخلال استماعه للآخرين، انحلت عقدة لسانه وذاب جليد قلبه، وعندها بدأ يتحدث فقال:

- لكم، أيها الباحثون الشجعان، المغامرون والمختبرون وكل من سافر يوماً تحت الأشرعة الخبيثة عبر البحار المخيفة.

- لكم، أيها الثملون بالألغاز، يا محبي الغسق، من تنجذب أنفسكم إلى صوت الناي في كل لجة خادعة!

- إنكم لا تريدون تلمس الخيط بيد جبانة، وحيث يمكنكم أن تحزروا، هناك تحتقرون البحث والاستقصاء.

- لكم وحدكم سأحكي اللغز الذي رأيته، الشبح، الذي ظهر أمام أشد الناس عزلة.

سرت متجهماً منذ فترة قريبة وسط الغسق الشاحب شحوب الموت، مشيت متجهماً وصارماً، بشفتين مطبقتين بشدة، وقد غربت أكثر من شمس واحدة بالنسبة لي.

وكان الدرب يتموج متقلباً بين الصخور، حانقاً، وحيداً، رافضاً العشب والحشائش، كان هذا الدرب الجبلي يقرقع تحت قدمي الجسورة.

سرت صامتاً وسط ضجيج الصخور الساخر، ساحقاً الحجارة إلى غبار، عندما تتعثر قدمي بهم، هكذا كنت أصعد الجبل بطيئاً.

نحو الأعلى، خلافاً للروح، التي كانت تشدني للأسفل، روح الثقل، ماردي وعدوي اللدود.

نحو الأعلى، على الرغم من جلوسه فوقي، نصف قزم ونصف خلد، أعرج، جاعلاً إياي أعرج أيضاً، صاباً الرصاص في أذني، وأفكاراً رصاصية في عقلي.

"آه يا زرادشت، أنت حجر الحكمة، أنت قرص لامع، أنت مُدَمِر النجوم! لقد شمخت عالياً، ولكن كل حجر مرمي، مكتوب له السقوط!

مكتوب عليك أن ترمي نفسك بالحجارة، يا زرادشت، قد رميت الحجر بعيداً، ولكنه سيسقط عليك!"

ثم صمت القزم، وطال صمته، وكان صمته يضغط علي، وحقاً تكون عزلة الإنسان مضاعفة مع شخص آخر، عما هي عليه مع نفسه!

وكنت أصعد وأصعد، وأحلم، وأفكر، ولكن كل شيء كان يضغط علي. كنت أشبه المريض، الذي ينومه ثقل معاناته، والذي يعود ويوقظه كابوس أكثر وطأة من سابقه.

- ولكن يوجد في نفسي شيء أدعوه بالمروءة، وكانت تقتل حتى الآن في نفسي الكآبة. وهذه المروءة أجبرتني أخيراً على التوقف والقول: "يا أيها القزم! إما أنت! وإما أنا!".

إن المروءة هي أفضل الأسلحة فتكاً، مروءة المهاجم، لأنه في كل هجوم توجد موسيقى النصر.

إن الكائن البشري هو أكثر الحيوانات مروءة، وبها تغلب على جميع الحيوانات، فبفضل موسيقى النصر تغلب على كل معاناة، ومعاناة الإنسان هي أعمق أنواع المعاناة.

فالمروءة تتغلب على الدوار عند حافة الهاوية، وأين لا يقف الإنسان على حافة الهاوية! أليس النظر إلى الذات هو نظر إلى الهاوية؟

إن المروءة هي أفضل الأسلحة فتكاً، فالمروءة تقتل حتى الرأفة، مع أن الرأفة هي أعمق هاوية، لأنه كلما تعمق نظر الإنسان إلى الحياة، كلما تعمق نظره إلى المعاناة.

إن المروءة هي أفضل الأسلحة فتكاً، مروءة المهاجم، إنها تقتل الموت نفسه، وهي تقول: "أكانت تلك هي الحياة؟ حسناً! لتعاد مرة ثانية!".

ففي هذه الكلمات تسمع موسيقى النصر الصاخبة، والذي لديه أذنان فليسمع.



"قف، أيها القزم! ـ قلت له ـ فإما أنا أو أنت! ولكنني الأقوى بيننا، وأنت لا تعرف أعمق فكرة عندي! وتعجزعن حمل عبئها"

وهنا حدث أمر أراحني، فقد قفز القزم الملحاح عن كتفي! وجلس منكمشاً على نفسه فوق حجر أمامي، وكان الطريق الذي توقفنا فيه، يمر عبر بوابة.

"انظر إلى هذه البوابة، أيها القزم! ـ قلت له ـ فلديها وجهان. هنا يلتقي طريقان، لم يجتزهما أحد إلى النهاية حتى الآن.

فهذا الدرب الطويل خلفنا يمتد امتداداً أبدياً، وهذا الدرب الطويل أمامنا هو امتداد أبدي آخر.

إن هذان الدربان يناقضان بعضهما بعضاً، وهنا بالضبط، عند هذه البوابة، يلتقيان. وقد كتب اسم هذه البوابة في الأعلى وهو: "اللحظة".

ولكن إذا تابع شخص سيره في أحد الطريقين، فهل تظن أيها القزم، أن هذين الطريقين سيناقضان بعضهما بعضاً إلى الأبد؟".

"إن كل ما هو مستقيم يتمدد مستلقياً ـ تمتم القزم بازدراء ـ وكل حقيقة مائلة، والوقت نفسه يمثل دائرة".

"روح الثقل ـ قلت بغضب ـ لا تتظاهر بأن الأمر سهل إلى هذا الحد! وإلا سأتركك هنا، حيث تجلس، أيها القبيح الأعرج، فأنا الذي حملتك إلى الأعلى!

انظر ـ تابعت ـ إلى هذه اللحظة! فمن بوابة اللحظات هذه تذهب طريق طويلة، طريق خالدة إلى الوراء، وخلفنا تتوضع الأبدية.

ألا يتوجب على كل من يستطيع المشي، أن يكون قد اجتاز هذا الدرب مرة في السابق؟ ألا يجب أن يكون كل ما يمكنه الحدوث أن يكون قد حدث وتم وانتهى مرة في السابق؟

وإذا حدث كل شيء في الماضي، فما رأيك، أيها القزم، بهذه اللحظة؟ ألا يجب أن تكون هذه البوابة موجودة فيما مضى؟

أليست الأشياء جميعها مرتبطة مع بعضها بعضاً ارتباطاً متيناً، مما يجعل هذه اللحظة تسحب وراءها كل ما هو آت؟ وبالتالي أليست تسحب نفسها أيضاً؟

ألا يتوجب على كل من يمكنه المشي أن يجتاز هذا الدرب الطويل إلى الأمام مرة أخرى!

وهذا العنكبوت المتباطئ، الزاحف تحت نور القمر، وهذا النور نفسه، وأنا وأنت، الهامسين أمام البوابة، نتهامس حول الأشياء الخالدة، ألم نعش مرة في الماضي؟

ـ أليس علينا أن نعود لنجتاز هذا الطريق الآخر أمامنا، هذا الطريق المحزن الطويل، أليس علينا أن نعود باستمرار؟"

هكذا كنت أقول، وكان صوتي يخفت تدريجياً، لأنني كنت أخاف من فكرتي ودلالتها الخفية. وفجأة سمعت على مقربة مني عواء كلب.

ألم أسمع عواء هذا الكلب مرة في الماضي؟ إن فكرتي اندفعت إلى الماضي. نعم! عندما كنت طفلاً، في طفولتي الباكرة.

ـ عندها سمعت عواء كلب، ورأيته محتدماً غيظاً وقد رفع وجهه للأعلى ووقف شعر جسمه، في تلك الساعة الهادئة من منتصف الليل، عندما تؤمن الكلاب بوجود الأشباح.

ـ وأشفقت عليه، وكان البدر المكتمل قد صعد تواً إلى أعالي السماء فوق البيت، في سكون تام، وتوقف كرة نارية مستديرة فوق السطح المستوي، كاللص فوق أملاك الغير.

وعندها سيطر الهلع على الكلب، لأن الكلاب تؤمن باللصوص والأشباح. وعندما سمعت ثانية هذا العواء، شعرت بالشفقة عليه.

فأين ذهب القزم! والبوابة؟ والعنكبوت؟ وهمساتنا؟ أكان ذلك حلماً؟ أم حقيقة؟ ورأيت فجأة أنني أقف وسط الصخور الموحشة، وحيداً، يغمرني ضوء القمر الميت.

وعلى مقربة مني استلقى إنسان! وكان الكلب بشعره المنتصب يقفز ويزعق، وعند رؤيته لي واقترابي منه عاد للعواء ثانية ثم صرخ، فهل سبق لي أن سمعت كلباً يصرخ طلباً للمساعدة؟

وحقاً إنه لم يسبق لي أن رأيت شيئاً مماثلاً، فقد رأيت راعياً شاباً، يختنق وجسده يتلوى ووجهه شوهه الألم، ومن فمه تدلت أفعى سوداء ثقيلة.

فهل رأيت يوماً كل هذا الاشمئزاز ورعب الموت على وجه واحد؟ ربما كان نائماً؟ فزحفت الأفعى إلى فمه وغرزت أنيابها في حلقه.

فشدت يدي الأفعى، وأعادت الكرة مرة ثانية، ولكن عبثاً! لم تستطع إخراج الأفعى من فمه، وعندها اندفعت صرخة من فمي: "أقضمها بأسنانك"!

اقطع رأسها! ـ هكذا صاح رعبي من داخلي، واتحدت كراهيتي واشمئزازي وشفقتي وكل ما هو خيّر وشرير في نفسي في صرخة واحدة.

أنتم، أيها الشجعان الذين تحيطون بي! أنتم الباحثون والمجربون والمستكشفون، وكل من يسبح تحت أشرعة الغدر في البحار المجهولة! أنتم يا عشاق الألغاز!

فسروا لي اللغز الذي رأيت، واشرحوا لي الشبح الذي ظهر أمام أكثر الناس عزلة!

لقد كان شبحاً ونبوءة، فما الذي رأيته يومها في الرمز؟ ومن هو الذي يتوجب عليه أن يأتي في يوم ما؟

من هو هذا الراعي، الذي زحفت الأفعى إلى حلقه؟ من هو هذا الإنسان الذي يزحف إلى حلقه كائن هو الأثقل والأشد سواداً؟

فقضم الراعي رأس الأفعى، كما نصحته صرختي! وبصقه بعيداً، ونهض في حركة سريعة على قدميه.

ولم يعد أمامي لا راع ولا إنسان، فقد وقف أمامي شخص متغير ومستنير، وهو يضحك! ولم يسبق أن ضحك إنسان فوق وجه الأرض كما كان يضحك!

آه، يا أخوتي، لقد سمعت الضحك الذي لم يكن ضحك إنسان، والآن يتآكلني العطش والرغبة التي لن تهدأ أبداً في داخلي.

إن الرغبة في ذلك الضحك تملؤني، آه، كيف سأتحمل الحياة بعد الآن؟ وكيف سأتحمل الموت!

هكذا تكلم زرادشت.

الغبطة الخارجة عن الإرادة

مع هذه الألغاز ومرارة في القلب أبحر زرادشت عبر البحر. ولكنه في اليوم الرابع من ترحاله، وبعد أن ابتعد كثيراً عن جزر الغبطة وعن أصدقائه، تغلب على حزنه.

فعاد يقف منتصراً وبقدم ثابتة على دربه المصيري. وهكذا خاطب زرادشت يومها ضميره المغتبط.

- عدت وحيداً من جديد وأريد أن أكون وحيداً، وحيداً مع السماء الصافية والبحر الحر، ومن جديد تحيط بي فترة ما بعد الظهيرة.

ففي فترة ما بعد الظهيرة من أحد الأيام التقيت أصدقائي لأول مرة، والتقيت بهم مرة ثانية في فترة ما بعد الظهيرة أيضاً، في تلك الساعة التي تهدأ فيها جميع الأنوار.

آه، يا فترة ما بعد الظهيرة في حياتي! مرة نزلت سعادتي إلى الوادي باحثة عن مأوى، لأن جزئيات السعادة ما تزال شاردة بين السماء والأرض تبحث لنفسها عن مأوى في النفس الصافية، والآن أصبح كل نور أهدأ بتأثير السعادة.

آه، يا فترة ما بعد الظهيرة من حياتي! مرة نزلت سعادتي إلى الوادي باحثة عن مأوى، ويومها وجدت هذه الأنفس الصريحة المضيافة.

آه، يا فترة ما بعد الظهيرة من حياتي! كنت لأقدم أي شيء لأمتلك شيئاً واحداً هو المتعة الحية لأفكاري وفجر صباح أملي الأكبر!

بحث الخلاق يوماً عن أتباعه وعن أولاد لآماله، وتبين أنه عاجز عن إيجادهم، ولا يمكنه إلا أن يخلقهم لأول مرة.

وبنفس الطريقة أتواجد وسط عملي، سائراً إلى أولادي وعائداً من عندهم، من أجل أولاده يتوجب على زرادشت أن يُكَمِّل نفسه.

إذ إن الإنسان يحب من أعماق قلبه ولده وعمله، وحيثما وجد الحب العظيم تجاه الذات، فإنه يرمز إلى الحَمْل، هذا ما لاحظته.

ما زال أولادي يزدهرون بربيعهم الأول، وهم يقفون قريبين من بعضهم بعضاً، إنهم أشجار بستاني والأرض المثلى، سوية تحركهم الرياح.

وحقاً! حيث تقوم أشجار كهذه قريبة من بعضها بعضاً، هناك تقوم الجزر المغتبطة!

ولكنني في يوم ما سأخرجهم من تربتهم وأزرع كل شجرة في مكان، كي يتعلموا العزلة والإصرار والحذر.

يجب أن تقوم كل شجرة منهم كثيفة الأغصان ومنحنية انحناءً صلباً عند شاطئ البحر، منارة حية للحياة التي لا تقهر فوق تلك الصخور.

هناك، حيث تسقط العواصف في البحر وتشرب شفاه الجبال الماء، هناك يجب أن تقوم كل شجرة منهم، في النهار والليل، حارسة، كي تختبر وتدرك ذاتها.

يجب أن تختبر وتدرك ذاتها، كي تعرف إن كانت من سلالتي ومنشئي، وهل تستطيع التحكم بالإرادة العنيدة، وهل هي صامتة، حتى أثناء الكلام، وهل تتظاهر بأنها تأخذ وهي تعطي.

- فلكي يصبح في يوم ما مطارداً لي وخلاقاً ومحتفلاً مع زرادشت، بحيث يكتب إرادتي على ألواح نصوصي المقدسة، للإتمام الأمثل لجميع الأشياء.

من أجله ومن أجل أمثاله علي إيصال نفسي إلى الكمال، ولهذا أهرب الآن من سعادتي وأصبح ضحية لجميع المصائب، كي أختبر وأدرك نفسي للمرة الأخيرة.

وحقاً، آن أوان رحيلي، وظل الرحالة والوقت المتأخر والصمت، كلهم يقولون لي: "آن الأوان منذ زمن!"

لقد اخترقت الرياح ثقب الباب وقالت: " لنذهب!" فانفتح الباب بهدوء وقال: "اذهب".

ولكنني كنت مستلقياً، مقيداً بالمحبة إلى أولادي، فرغبتي بالمحبة وضعت علي هذه القيود، ولهذا أصبحت ضحية أولادي، وبسببهم خسرت نفسي.

فالرغبة تعني بالنسبة لي خسارة الذات، ولدي أنتم، يا أولادي! وفي هذه الملكية يجب أن يكون كل شيء ثقة ولا شيء رغبة.

ولكن شمس محبتي كانت تتوهج فوقي، وعندها مر الظل والشك فوقي.

كنت أنتظر الصقيع والشتاء: "آه، لو أن الصقيع والشتاء يجعلانني أرتجف ثانية من شدة البرد فتطقطق أسناني!" - تنهدت وعندها خرج مني الضباب المتجمد نحو الأعلى.

إن ماضي فض قبوره، واستيقظ كم هائل من المعاناة التي كانت قد دفنت حية، لا إنها كانت في سبات فحسب، مختبئة في أكفانها.

وهكذا كان كل شيء يصرخ إلي بالإشارات فيقول: "آن الأوان!" ولكنني لم أكن أصغي، إلى أن تحرك جحيمي في نهاية الأمر وعضتني فكرتي.

آه، أيتها الفكرة التي لا قعر لك، أنت فكرتي! فمتى سأجد في نفسي القوة لأستمع إليك وأنت تنبشين، دون أن أرتجف ثانية".

وصولاً إلى حلقي يدق قلبي، عندما أسمع كيف تنبشين! فحتى صمتك يخنقني، إنك صامتة كالهاوية!

لم أجرؤ يوماً من قبل على استدعائك إلى الخارج، يكفيني أنني كنت أحملك معي! لم أكن بعد قوياً كفاية لأظهر آخر شجاعة للأسد وجرأة.

إن ثقلك كان دائماً مرعباً بالنسبة لي، ولكن ما زال علي أن أعثر على قوة وصوت الأسد، الذي سيستدعيك إلى الخارج!

وعندما أتغلب على هذا الأمر في نفسي، عندها سأتغلب على أمر أكبر، ويجب على النصر أن يكون ختم اكتمالي!

وإلى ذلك الحين سأبقى أطوف في البحار المجهولة، فالصدفة تتملقني وتداعبني، إنني أنظر أمامي وخلفي ولا أرى نهاية.

لم تحن بعد ساعة صراعي الأخير، أو أنها على وشك البدء فقط؟ حقاً، بروعة خبيثة ينظر إلي البحر والحياة!

آه، يا فترة ما بعد الظهيرة من حياتي! أيتها السعادة المبشرة بالمساء! أيها المرفأ إلى البحر المفتوح! أيها العالم في المجهول! لكم أنا غير واثق بكم!

حقاً، إنني لا أثق بروعتكم الغدّارة! فأنا أشبه العاشق، الذي لا يثق بالبسمة المخملية.

ومثل ذاك الغيور، الذي يدفع عنه حبيبته ويبقى رقيقاً حتى في قسوته، كذلك أنا أدفع عن نفسي هذه الساعة السعيدة.

اذهبي بعيداً عني، أيتها الساعة السعيدة! فمعك جاءتني الغبطة رغماً عني، إنني أقف هنا مستعداً لأعاني معاناتي الكبرى، فقد أتيت في وقت غير مناسب!

ابتعدي عني، أيتها الساعة السعيدة! فالأفضل أن تبحثي لنفسك عن مأوى هناك، عند أولادي! أسرعي! وباركيهم حتى المساء بسعادتي!

ها هو المساء يقترب، والشمس تغرب. لقد غادرت سعادتي!

هكذا تكلم زرادشت، وبقي ينتظر شقاءه طوال الليل، ولكنه عبثاً انتظر، فقد بقي الليل صافياً وهادئاً، وبقيت السعادة تقترب منه أكثر فأكثر. وعند الصباح ضحك زرادشت في نفسه وقال ساخراً: "السعادة تجري خلفي، لأنني لا أجري خلف النساء، ولأن السعادة امرأة".

قبل شروق الشمس

آه، أيتها السماء من فوقي، أيتها النقية، العميقة! عالم من النور بلا نهاية! عندما أتأملك أرتعش برغبة ربانية.

ويتلخص عمقي في أن أرمي نفسي في علوك! وتتلخص براءتي في أن اختبئ في نقائك!

إن الرب يخفيه جماله، كذلك أنت تخفين نجومك. إنك صامتة، وبصمتك تنقلين حكمتك إلي.

قد صعدت اليوم فوق البحر الهائج صامتة، وكشف خجلك ومحبتك نفسيهما أمام نفسي المستقبلية.

جئتني رائعة ومخفية في جمالك، وكلمتني بصمت منكشفة في حكمتك.

آه، أيعقل أنني كنت لن أوقن مدى خجل نفسك! قد جئتني قبل شروق الشمس، أنا الأكثر وحدة في الوجود.

إننا صديقان منذ الأزل، ولدينا الحزن والخوف والوجود المشترك، وحتى شمسنا واحدة.

إننا لا نتحدث مع بعضنا بعضاً، لأننا نعرف الكثير جداً. إننا نحتفظ بالصمت ونخبر بعضنا بعضاً عن معارفنا بالبسمات.

ألست نور لهبي؟ أليست تعيش فيك نفس قريبة لعقلي؟

تعلمنا سوية كل شيء، تعلمنا العلو فوق الذات ونحو الذات، وأن نبتسم بصفاء للأسفل، بعيون صافية من أقاصي البعد، في الوقت الذي كان فيه العنف والهدف والذنب ينهمرون في الأسفل كالمطر الغزير.

وإذا كنت أتجول وحيداً، فما الذي كانت ترجوه نفسي في الليالي وفوق ممرات الضلال؟ وإذا كنت أتسلق الجبال، فمن غيرك كنت أبحث عنه فوق الجبال؟

وجميع أسفاري وتسلقي للجبال، ألم يكونوا ضرورة لمساعدة قليل الخبرة. إن إرادتي لا ترغب سوى بالطيران والتحليق نحوك!

ولم أكن أكره أحداً أكثر من كرهي للغيوم الزاحفة التي تعتمك؟ وحتى كراهيتي الذاتية كنت أكرهها لأنها كانت تلوثك!

إنني أكره الغيوم الزاحفة، هذه الهررة المفترسة المتسللة خفية، فهي تسلبنا أنا وأنت كل ما هو مشترك بيننا، أي الإقرار الهائل واللامحدود بجميع الأمور.

نحن نكره الغيوم الزاحفة، هؤلاء الوسطاء والمازجين، إنهم مخلوقات غير متجانسة وغير محددة، لم تتعلم المباركة أو اللعنة من صميم القلب.

والأفضل أن أبقى جالساً في برميل تحت السماء المغلقة، أو في هاوية بلا سماء، من أن أراك، أيتها السماء الصافية، المكدرة بالغيوم الزاحفة!

كثيراً ما شعرت برغبة بوصلها بأسلاك البرق الذهبية المسننة، كي أستطيع كالرعد دق طبول بطونها المنفوخة.

ـ أن أدقها بغضب، لأنها تسلبني إقرارك، أنت أيتها السماء النقية فوق رأسي! أيتها النيرة! أنت يا عالماً من نور! فهم يسلبونك إقراري.

فمن الأسهل بالنسبة لي تحمل الضجيج والرعد ولعنة الطقس الممطر، أكثر من تحملي لهذا الهدوء الحذر والمتردد والشبيه بهدوء القطط، وحتى وسط الناس أكره أشد الكره الناس الذين يدوسون بهدوء، النصفيون والغامضون، والمترددون والمتباطئون كالغيوم الزاحفة.

"إن الذي يعجز عن المباركة، يجب أن يتعلم اللعنة!"، هذه النصيحة المشرقة سقطت إلي من السماء الصافية مباشرة، وهي نجمة تلمع حتى في الليالي الحالكة في سمائي.

ولكنني أبارك وأقر، في حال كنت تحيطين بي، يا لجة الضوء النقية الصافية! وعندها أحمل إلى كل اللجج إقراري المبارك.

لقد أصبحتُ مبارِكاً ومُقِراً، وناضلت طويلاً في سبيل أن أمتلك في النهاية يديَّ حرتان من أجل المباركة.

وهذه هي بركتي، أن يكون فوق كل غرض سماؤه الخاصة وقبته المستديرة، وناقوسها السماوي وهدوؤها الخالد، وطوبى لمن يبارك بهذه الطريقة!

إن جميع الأشياء عُمِّدَتْ عند نبع الخلود، وعلى الجانب الآخر من الخير والشر، أما الخير والشر ففي جوهرهما ليسا إلا ظلال هاربة، وحنين رطب وغيوم زاحفة.

حقاً، إنها مباركة، وليست انتقاصاً، عندما أُعَلِّمُ فأقول: "فوق جميع الأشياء تقوم سماء الصفاء، سماء البراءة، سماء الجرأة".

ـ "المصادفة" إنها أقدم أرستقراطية في العالم، لقد أعدتها إلى كل الأشياء، وخلصتهم من الخضوع للهدف.

هذه الحرية وهذه السماء السكون، وضعتهما كناقوس سماوي فوق كل الأشياء، عندما عَلَّمْتُ أنه: "من فوقهما ومن خلالهما لن ترغب أي إرادة خالدة"

لقد وضعت هذه الجرأة وهذا الجنون مكان تلك الإرادة، عندما علَّمت: "المستحيل واحد في كل مكان وهو المنطق السليم!"

على الرغم من أن القليل من المنطق ومن ذرات الحكمة المشتتة بين النجمة والأخرى، شكلت خميرة وأضيفت إلى جميع الأشياء، فإن الجنون كان سبباً لإضافة الحكمة إلى جميع الأشياء!

القليل من الحكمة يبقى محتملاً، ولكنني كنت أجد هذه الثقة المغتبطة في جميع الأشياء، فهم يفضلون الرقص على أرجل المصادفة.

آه، أيتها السماء من فوقي، أنت النقية العالية! الآن أصبح نقاؤك بالنسبة لي يتلخص في عدم وجود عنكبوت العقل الخالد وشبكته.

ـ وأنك أصبحت مكاناً لرقصات المصادفات الربانية، وأنك طاولة ربانية للعب كعاب النرد الربانية ولاعبيها!

أتخجلين؟ فهل قلتُ شيئاً يُمنع قوله؟ وهل تلفظت بانتقاص ساعياً لمباركتك؟

أم أنك خجلت من وجودنا لوحدنا؟ أم أنك تأمرينني بالانصراف والصمت، إذ إن النار يقترب؟

العالم عمق، وهذا العمق بالكاد يراه النهار. فليس الكل يجرؤون على التحدث أمام وجه النهار. ولكن النهار يقترب وعلينا أن نفترق الآن!

آه، أيتها السماء من فوقي، أنت الخجولة الملتهبة! أنت سعادتي قبل شروق الشمس! النهار يقترب وعلينا أن نفترق الآن!

هكذا تكلم زرادشت.

الفضيلة المتوسلة

١

لـدى نـزول زرادشـت إلى اليابـسة، لم يتوجـه مباشـرة إلى جبلـه ومغارتـه، بـل سـار في دروب مختلفة، وهو يطرح الأسئلة في كل مكان ويستفسر حول أمور كثيرة، ولهذا كان يقول عن نفسه مازحاً: "هـذا هـو النهـر الـذي بانحناءاتـه الكـثيرة يعـود إلى منبعـه!" لأنـه كـان يريـد أن يعرف، ماذا حل بالإنسان خلال غيابه، هل أصبح أكثر عظمة أم صغر أكثر مما كان عليه.

ومرة رأى صفاً من البيوت الجديدة، فتعجب وقال:

"ماذا تعني هذه البيوت؟ حقاً، إن نفساً ليست بعظيمة بنت هذه البيوت شبيهة بها!

أليس طفلاً غبياً أخرجها من صندوق ألعابه؟ فليعيدها طفل آخر إلى صندوق ألعابه!

وهذه الغرف والحجرات الصغيرة، هل في مقدور الناس الدخول إليها والخروج منها؟ إنها تبدو لي مصنوعة لديدان القز أو للهررة الشرهة، التي تسمح كذلك بافتراسها!

وتوقف زرادشت وهو يفكر، ثم قال بحزن: "كل شيء أصبح حقيراً!

في كـل مكـان أرى البوابـات المنخفـضة، فالـشبيه لـي مـا زال يمكنـه الـدخول عبرهـا، ولكن عليه أن ينحني!

آه، متـى سـأعود إلى مـوطني، حيـث لـيس علـي الانحنـاء، ولـن أضـطر للانحنـاء أمـام الحقيرين!" ـ تنهد زرادشت ووجه نظره للبعيد.

ولكنه في اليوم نفسه قال كلمته حول الفضيلة المتوسلة.



إنني أمشي بين هؤلاء الناس وأستغرب، إنهم لا يغفرون لي عدم حسدي لفضائلهم.

إنهم يجيبونني بضجر وحقد، لأنني أقول لهم: الناس الحقراء تناسبهم الفضائل الحقيرة، لأنه يصعب علي الموافقة على ضرورتهم!

إنني أشبه الراعي في مدجنة طيور غريبة، تنقره حتى الدجاجات، ولكنني لست غاضباً من هذه الدجاجات.

إنني لطيف معهم، كما أكون مع أي ورطة بسيطة، فالتصرف الشائك مع كل ما هو حقير يبدو لي حكمة تناسب القنفذ.

جميعهم يتحدثون عني، جالسين مساءً أمام الموقد، إنهم جميعهم يتحدثون عني ولكن لا أحد منهم يفكر بي!

هذا الهدوء الجديد الذي تعلمته، فضجيجهم من حولي يلقي غطاءً على أفكاري. تتعالى أصوات أحاديثهم: "ما الذي تحمله لنا هذه الغيمة السوداء؟ احذروا، كيلا تحمل لنا العدوى!"

ومنذ أيام سحبت إحدى النساء طفلها بعيداً عني، عندما كان يشد يديه نحوي، وصاحت: "خذوا أطفالكم بعيداً! فعيون كعينيه تلفح أنفس الأطفال".

إنهم يسعلون عندما أتكلم، ويظنون أن السعال اعتراض ضد الرياح العاتية، إنهم لا يعون ضجيج سعادتي!

"ليس لدينا وقت لزرادشت" ـ هكذا يعترضون، ولكن ما الجدوى من وقت ليس فيه «وقت» لزرادشت؟

وحتى عندما يمدحونني، هل أستطيع النوم على إثر تمجيدهم لي؟ إن مدحهم بالنسبة لي حزام من الشوك يسبب لي الحكة حتى بعد نزعه.

لقد تعلمت منهم، أن الذي يمدح، يتظاهر بأنه يعطي الممدوح حقه، ولكنه في الحقيقة يطمع في الحصول على المزيد من المكاسب!

اسألوا رِجلي هل تعجبها طريقتهم في المديح والاستمالة! حقاً، إن إيقاعاً كهذا ودَقة ساعة كساعتهم، يزيل لديها كل رغبة في الرقص أو في الهدوء.

إنهم يحاولون أن يمدحوا لي فضيلة حقيرة واستمالتي إليها، لقد أرادوا استمالة رجلي إلى إيقاع سعادة صغيرة.

إنني أسير بين هؤلاء الناس وأتعجب، لقد حَقِروا وما زالوا يزيدون في حقارتهم، ويفعل بهم ذلك تعاليهم حول السعادة والفضيلة.

فهم حتّى في فضيلتهم متواضعون، لأنهم يبحثون عن الاكتفاء، والاكتفاء لا ترضى به غير الفضيلة المتواضعة.

علماً أنهم أيضاً يتعلمون المشي بطريقتهم، والسير للأمام، ولكنني أدعو ذلك مشياً متعثراً، وهم بمشيهم هذا يعرقلون سير المسرعين.

كثيرون منهم يسيرون للأمام وينظرون للخلف، مادين أعناقهم، إنني أدفعهم بسرور.

فالرجلان والعينان يجب ألاّ يكذبوا، وألاّ يفضحوا بعضهم بعضاً في الكذب، ولكن الكذب كثير عند الناس الحقراء.

البعض منهم فقط يُظهِرون إرادتهم، ولكن الأكثرية يخضعون لإرادة الآخرين، البعض منهم فقط صريح، بينما الأكثرية ممثلون سيئون.

ويوجد بينهم ممثلون لا يعون تمثيلهم، وممثلون رغماً عن إرادتهم، فالصريحون قلة دائماً، ولاسيما الممثلون الصريحون.

إن سمات الزوج قليلة هنا، ولهذا تتحول نساؤهم إلى رجال. الرجل الكامل الرجولة فقط في مقدوره أن يحرر في المرأة أنوثتها.

وكان النفاق الأسوأ الذي وجدته لديهم هو أنه حتى الذين يأمرون يحاكون في فضائلهم فضائل خدمهم.

"أنا أخدم، أنت تخدم، نحن نخدم" هكذا يصلي نفاق السادة، ولكن الويل! إذا كان السيد الأول هو ليس إلا الخادم الأول!

آه، لقد تغلغل فضول بصري حتى في نفاقهم، وقد كشفت بوضوح سعادتهم التي لا تزيد عن سعادة الذبابة وطنينهم فوق زجاج النافذة الذي أضاءته الشمس.

كل ما رأيته من طيبة كان يخفي خلفه نفس المقدار من الضعف، وكل ما رأيته من عدل ورأفة كان يخفي خلفه المقدار نفسه من الضعف.

جميعهم مستديرون ومرتبون وعطوفون على بعضهم بعضاً، كاستدارة وترتيب وعطف حبات الرمل على بعضها بعضاً.

كل ما رأيته من طيبة كان يخفي خلفه المقدار نفسه من الضعف، وكل ما رأيته من عدل ورأفة كان يخفي خلفه المقدار نفسه من الضعف.

فالواقع أنهم في بساطتهم يرغبون أمراً واحداً فقط، وهو ألا يسبب لهم أحد المعاناة، ولهذا يجاملون كل إنسان ويقدمون له الخير.

ولكن ذلك جبن، حتى وإن سمي "فضيلة".

وعندما يصادف أن هؤلاء الأشخاص يتحدثون بفظاظة، فإنني لا أسمع في أصواتهم سوى البحة، لأن كل نسمة ريح تولد لديهم البحة.

إنهم ماكرون، وأصابع فضائلهم ماكرة، ولكن تنقصهم القبضات، فأصابعهم عاجزة عن الاجتماع في قبضة واحدة.

إنهم يعدون فضيلة كل ما يجعل الآخر متواضعاً ومطواعاً، وبهذه الطريقة حولوا الذئب إلى كلب وحولوا الإنسان إلى أفضل حيوان منزلي أليف عند الإنسان.

"لقد جلسنا بين كرسيين - هكذا تقول لي ابتسامتهم - بالبعد نفسه عن المصارعين على فراش الموت وعن الخنازير الراضية بنفسها".

ولكن هذا وساطة، حتى وإن سمي اعتدالاً.



إنني أمشي بين هؤلاء الناس وأوقع الكلمات الكثيرة، ولكنهم لا يتقنون التقاطها والحفاظ عليها.

إنهم يستغربون عدم مجيئي لفضح شهواتهم وعيوبهم، ولكنني حقاً لم آت كذلك لأحذرهم من النشالين!

إنهم يستغربون من عدم رغبتي في تهذيب وزيادة حكمتهم، وكأنما ليس لديهم ما يكفي من الحكماء الماهرين، الذين يشبه صرير أصواتهم صرير قلم الإردواز فوق لوح الإردواز!

وعندما أصيح: "العنوا جميع شياطين الجبن فيكم، الراغبين في الولولة ومصالبة أيديهم والسجود!". يصيحون: "زرادشت كافر".

ويُكثر دعاتهم إلى الخضوع والإستكانة بالصراخ حول ذلك بشكل خاص. نعم، إنني أحب أن أصرخ في آذانهم تحديداً: "نعم! أنا زرادشت الكافر!".

دعاة الخضوع والإستكانة! إنهم يزحفون كالقمل في كل مكان فيه ضعف ومرض وعفن، وتقززي منهم يمنعني من سحقهم.

حسناً! هذه هي عظتي الموجهة لآذانهم، أنا زرادشت الكافر الذي يقول: "من أشد كفراً مني، كي أستطيع أن أفرح بنصيحته؟"

أنا زرادشت الكافر، أين سأجد أشباهاً لي؟ إن أشباهي هم الذين يمنحون أنفسهم لإرادتهم ويرمون عن كاهلهم كل رضوخ.

أنا زرادشت الكافر، أسلق كل حادثة في إنائي، وبعد أن تستوي جيداً، أحبها كطعام لي.

وحقاً، كثيرة هي الحوادث التي اقتربت مني آمرة، ولكن إرادتي كانت تقول لهم بقوة آمرة أشد، ومباشرة كانت الحوادث تسجد راكعة متوسلة.

- كانت تتوسل إلي لأمنحها المأوى والاستقبال الحار، وتحاول إقناعي متملقة: "هل ترى، يا زرادشت، هكذا يقترب الصديق من الصديق فقط!"

ولكن لماذا أتحدث حيث لا يوجد عند أحد آذان لي! لذلك دعني أنادي الرياح جميعها.

إنكم جميعاً تنحطون، أنتم بشر منحطون! إنكم تتفتتون إلى فتات، أنتم يا محبي الرخاء! ستلقون نحبكم بعد.

- من كثرة فضائلكم الحقيرة، ومن كثرة هفواتكم البسيطة، ومن جراء رضوخكم الحقير الدائم!

إنكم ترأفون كثيراً، وتتنازلون كثيراً، هكذا هي التربة التي تنبتون فوقها! ولكن ولكي تصبح الشجرة كبيرة، عليها أن تحيط بجذورها المتينة بالصخور المتينة! حتى الشيء الذي لا تتجزونه، يساهم في حياكة نسيج المستقبل البشري كله، وحتى اللاشيء الخاص بكم هو شبكة عنكبوت وعنكبوت يعيش مقتاتاً على دماء المستقبل.

وعندما تأخذون تكونون كمن يسرقون، أنتم البشر الأفاضل الحقراء، ولكن الشرف ينطق حتى بين المحتالين، فيقول: "تجب السرقة حصراً حيث يستحيل السطو".

"العطاء" هكذا يعلمنا الرضوخ، ولكنني أقول لكم، أنتم يا من تحبون الرخاء، سيتم الأخذ منكم أكثر فأكثر.

آه، لو أنكم رميتم عن أنفسكم أنصاف الرغبات وسلمتم أنفسكم بإصرار للكسل والعمل!

آه، لو أنكم فهمتم كلماتي: "افعلوا، من فضلكم، ما تشاؤون. ولكن قبل أي شيء كونوا كالذين يستطيعون أن يشاؤوا!

أحبوا قريبكم كما تحبون أنفسكم، ولكن قبل ذلك كونوا كالذين يحبون أنفسهم.

- يحبون حباً عظيماً، يحبون باحتقار عظيم!" - هكذا يقول زرادشت الكافر.

ولكن لم أتحدث حيث لا يوجد عند أحد آذان لسماعي! فهنا ما زال الزمن باكراً بمقدار ساعة كاملة بالنسبة لي.

إنني البشير الشخصي لنفسي وسط هؤلاء الناس، إنني صيحة الديك وسط الشوارع المظلمة.

ولكن تقترب ساعتهم! وتقترب كذلك ساعتي! إنهم يزدادون حقارة مع كل ساعة تمر، ويزدادون فقراً وعقماً، يا للعشب المسكين! يا للأرض المسكينة!

قريباً سيقفون كالعشب البري الجاف، وحقاً سيتعبون من أنفسهم، وسيعانون على الأغلب من تعطشهم للنار أكثر من الماء!

آه، يا ساعة البرق المباركة! آه، يا سراً قبل الظهيرة! سأحولهم يوماً إلى أضواء جوالة وإلى مبشرين بألسن نارية.

- سيبشرون يوماً بألسن نارية: "إنه يقترب، إنه يقترب، وقت الظهيرة العظيم!".

هكذا تكلم زرادشت.

فوق الجبل المقدس

الشتاء، هذاالضيف الشرير، جالس في منزلي، وقد ازرقت يداي من مصافحته الودودة.

إنني أحترمه، هذا الضيف الشرير، ولكنني أتركه بسرور جالساً لوحده. إنني أحب الهروب بعيداً عنه، وإذا ركضتَ جيداً، تنجح في الهروب منه!

بقدمين دافئتين وبأفكار دافئة، أركض إلى حيث تهدأ الرياح، إلى الزاوية التي تضيئها الشمس من جبلي المقدس.

هناك أسخر من ضيفي الصارم، وأحبه لأنه يلتقط في منزلي الذباب ويجبر كل ضجيج خفيف على الخفوت.

لأنه لا يحب رغبة البعوضة في الغناء، أو حتى بعوضتين، إنه يجعل الشارع موحشاً، بحيث يخاف ضوء القمر من التغلغل فيه ليلاً.

إنه ضيف صارم، ولكنني أقدره وأصلي كالأشخاص المنعمين لإله النار المكرش.

الأفضل هو طقطقة الأسنان قليلاً من الصلاة للآلهة! هكذا يود طبعي. وأكره بشكل خاص جميع آلهة النار، المتوقدين والمدخنين والخانقين.

الذي أحبه، أحبه أكثر في الشتاء، من الصيف، وأسخر بشجاعة أكبر وبصورة أفضل من أعدائي، منذ أن جلس الشتاء في بيتي.

حقاً، تزداد شجاعتي حتى عندما أنام في سريري، عندها تضحك وتعبث سعادتي المختبئة، وتبدأ أحلامي الخادعة بالضحك.

أيعقل أنني أزحف؟ لم يسبق لي أبداً أن زحفت أمام الأقوياء، وإذا كذبت يوماً، فقد كذبت من محبتي، ولهذا فإنني مرح على سريري الأرضي أيضاً.

إن السرير المتواضع يدفئني أكثر من السرير الفاخر، إذ إنني غيور على فقري، وهو وفي لي أكثر في الشتاء.

بالحقد أبدأ كل يوم، إنني أسخر من الشتاء بالحمَّام البارد، فيتذمر مني ضيفي الصارم.

كذلك أحب أن أدغدغه بشمعة صغيرة، كي يطلق سراح السماء أخيراً من سجن الغسق الرمادي.

إنني أكون غاضباً بشكل خاص في الصباح، في الساعة الباكرة، عندما يرن صوت الدلو عند البئر ويسمع في الشوارع الرمادية صهيل الخيول الدافئ. فأنتظر بفارغ الصبر، كي تصفو السماء أخيراً، السماء الشتوية بلحيتها الثلجية، عجوز برأس شائب.

السماء الشتوية الصامتة، التي كثيراً ما تصمت حتى بخصوص شمسها! أليس منها تعلمت الصمت الطويل المشرق؟ أم أنها تعلمته مني؟ أم ابتكره كل واحد منا لنفسه؟

بالغ التعقيد منشأ كل الأشياء الجيدة، فكل الأشياء الجيدة والمرحة تقفز من شدة الفرح بالوجود، كما لو كان بمقدورها فعل ذلك لمرة واحدة فقط!

كذلك من الجيد والمفرح التزام الصمت الطويل، ومن الجيد أيضاً النظر كما تنظر سماء الشتاء بوجه واضح مكشوف.

- أن تخفي مثل سماء الشتاء شمسك وإرادتك التي لا تلين، حقاً إني أتقنت هذا الفن وهذا المرح الشتوي!

إن حقدي المفضل وفني يكمنان في أن يتعلم صمتي عدم فضح نفسه بالصمت.

إنني أرعد بالكلمات وبكعاب النرد، فأخدع بذلك الذين ينتظرون بمهابة. فإرادتي وهدفي يجب أن ينسلا من وسط كل المراقبين الصارمين.

كي لا يتسنى لأحد رؤية الأساس وآخر إرادة لي، لأجل ذلك ابتكرت هذا الصمت الطويل المشرق.

لقد قابلت الكثير من الأذكياء، وكانوا يغطون وجوههم بالأغطية ويعكرون صفو مياههم، كي يمنعوا الآخرين من كشف بواطنهم.

إليهم تحديداً كان يتوجه الأذكى من بين المرتابين والباحثين عن حل الألغاز، وعندهم كانوا يصطادون السمك المخبأ.

أما العقول النيرة والشجاعة والشفافة، فهي برأيي الأكثر مكراً من بين كل الصامتين، فقاعهم شديد العمق، بحيث يمنع الماء الشفاف من رؤيته.

أنت أيتها السماء الشتوية الصامتة بلحيتك الثلجية، أنتَ أيها الرأس الأبيض بعينيك المستديرتين فوقي! أنت أيها الرمز السماوي لنفسي وأفراحها.

أليس علي الاختباء، كالذي ابتلع ذهباً، كي لا يمزقوا نفسي؟

أليس علي استخدام الطُّوالة تحت قدمي، كي لا يلاحظوا رجليَّ الطويلتين، كل هؤلاء الحساد المتجهمون المحيطون بي؟

هذه الأنفس الخانقة والمصطنعة والبالية والذابلة والمتعبة، كيف في مقدور حسدهم تحمل سعادتي! ولهذا لا أُظهِر لهم غير الشتاء والثلج فوق قممي، ولا أُظهِرُ لهم أن جبلي محاط بجميع الأحزمة الشمسية.

إنهم يسمعون صفير عواصفي الشتوية فقط، ولا يسمعون أنني أبحر كذلك في البحار الدافئة، كالرياح الملتهبة والثقيلة والساخنة.

إنهم يأسفون كذلك لمآسيَّ ومصُادَفِاتي، ولكن كلمتي تنص: "اسمحوا للمصادفة بالقدوم إلي، فهي بريئة كالطفل الصغير!".

كيف كان بمقدورهم تحمل سعادتي، لو أنني لم أغطِ سعادتي بالمصائب وبصقيع الشتاء وبقبعة من الدب القطبي الأبيض وبأغطية من السماء الثلجية!

- لو أنني لم أشعر بالشفقة على رأفتهم، على رأفة هؤلاء الحساد المتجهمين!

- لو أنني لم أكن أتنهد وأرتجف أمامهم من شدة البرد وأرتدي رأفتهم بصبر، كما لو أنني أرتدي معطف فرو شتوي!

إن فرح نفسي الحكيم وعطفها يكمنان في عدم إخفائه لشتائه وعواصفه الثلجية، وعدم إخفائها لقشعريرتها.

فالبعض تكون العزلة بالنسبة لهم كهروب المريض، والبعض الآخر تكون العزلة بالنسبة لهم كالهروب من المرضى.

فليسمعوا كيف أرتجف وأتنهد من صقيع الشتاء، كل هؤلاء السفلة المساكين الحسودين، المحيطين بي! وعلى الرغم من كل هذا التنهد والرجفان، هربت أخيراً من غرفهم الخانقة الحارة.

فليشفقوا علي ويتنهدوا معي لشعوري بالقشعريرة:سيتجمد من برد المعرفة! هكذا يشتكون.

وأنا في تلك الأثناء أركض في كل أرجاء جبلي المقدس بقدمين دافئتين، في الزاوية التي تنيرها الشمس من جبلي المقدس، وأسخر من كل أنواع الرأفة.

هكذا أنشد زرادشت.

المرور المتجاهل

هكذا مر زرادشت بتأنٍ وسط شعوب كثيرة ومدن عديدة، عائداً بطريق عوجاء إلى جباله ومغارته. وها قد اقترب من بوابة مدينة كبيرة، وهناك أسرع إليه فاتحاً ذراعيه مهرج محتد غضباً وحجب أمامه الطريق. لقد كان ذلك المهرج هو الذي يدعوه الناس "بقرد زرادشت"، إذ إنه أتقن تقليد بعضاً من طريقة زرادشت في الحديث وكان يحب الاقتباس من خزينة حكمته. وقال المهرج لزرادشت:

"يا زرادشت، هذه مدينة كبيرة، ولا شيء تبحث عنه موجود هنا، في حين يمكنك أن تخسر كل شيء".

لماذا تريد دخول هذه القذارة؟ أشفق على رجليك! الأفضل لك أن تبصق على بوابة المدينة وتعود أدراجك!

هنا الجحيم لأفكار الناسك، هنا يغلون الأفكار العظيمة وهي حية، فتتفتت إلى أجزاء صغيرة.

هنا تتفسخ كل المشاعر العظيمة، هنا يعلو ضجيج المشاعر الحقيرة والذابلة فقط!

ألا تسمع رائحة المذبحة وحانة الروح؟ ألا تسود في جو هذه المدينة النتانة الصادرة عن الروح المقتولة؟

ألا ترى أن الأنفس معلقة هنا كالخرق اللينة القذرة؟ وأنهم يصنعون من هذه الخرق الجرائد أيضاً!

ألا تسمع أن الروح تحولت هنا إلى لعبة كلمات لا غير؟ إنها تنفث الكلمات القبيحة الشبيهة بالنفايات! فلا يكتفون بذلك بل يصنعون الجرائد من هذه الكلمات التي ينشدونها كالأناشيد الدينية!

إنهم يستعجلون بعضهم بعضاً ولا يدرون إلى أين. إنهم يحمسون بعضهم بعضاً ولا يعلمون لماذا. إنهم يقعقعون بصفيحهم ويرنون بذهبهم.

إنهم باردون ويبحثون لأنفسهم عن الدفء في الخمر. إنهم هائجون ويبحثون عن البرودة في العقول الجامدة، كلهم واهنون ومرضى بمرض الرأي العام.

جميع الشهوات والرذائل هنا في موطنها، ومع ذلك لا زال للأفاضل وجود هنا، ويوجد هنا الكثير من الفضائل الحاذقة التي وجدت لنفسها مكاناً لها.

الكثير من الفضائل الحاذقة بأصابع للكتابة وبجزء صلب من الجسد للجلوس والانتظار، وعلى صدرها نجوم صغيرة ولها بنات من القش وليس لها مقاعد.

يوجد هنا كذلك الكثير من التدين، والكثير من التملق الوضيع والتزلف أمام إله الحروب.

إذ إنه من "الأعلى" تنهمر النجوم والبُصاق العطوف، وإلى الأعلى يسعى كل صدر ليس عليه نجمة.

إن للهلال عزبته، وللعزبة حاشيتها، ولكن كل ما يخرج من العزبة، يصلي من أجله المعدَمون وكل فصيلة مُعدَمة حاذقة.

"أنا أخدِم، أنت تخدِم، نحن نخدِم" ـ هكذا تصلي لسيدها كل فضيلة حاذقة، كي يحصل الصدر الغائر أخيراً على النجمة المُسْتَحَقة!

ولكن الهلال يدور حول كل ما هو أرضي، كذلك يدور السيد حول كل ما هو دنيوي، هذا هو ذهب التجار.

إن إله الحروب ليس هو إله السبائك الذهبية، فالمَلك ينوي والتاجر يتصرف!

ـ أستحلفك باسم كل ما هو مشرق وقوي وطيب فيك يا زرادشت! ابصق على مدينة التجار هذه وعد من حيث أتيت!

فهنا تجري الدماء الفاسدة والشاحبة وترغي في جميع العروق. ابصق على المدينة الكبيرة، على حفرة القمامة هذه، التي ترغي وتزبد فيها الرغوة!

ابصق على مدينة الأنفس المقموعة والصدور الغائرة والعيون الحسودة والأصابع الدبقة.

ابصق على مدينة الوقحين والمُجَّان والكُتَّاب الركيكين وأصحاب الضوضاء والطموحين المضطربين.

حيث كل شيء فاسد ونتن ورذيل ومظلم وهش وكثير البثور وخبيث، وكلهم اجتمعوا سوية.

ابصق على المدينة الكبيرة وعد أدراجك!".

وفي هذه اللحظة قاطع زرادشت المهرج المحتد وسد له فمه.

"توقف، أخيراً! - صاح زرادشت - منذ زمن بعيد وأنا أشعر بالاشمئزاز من حديثك ومن طريقتك في الحديث!

لماذا إذاً أطلت البقاء في المستنقع، بحيث تحولت إلى ضفدع!

ألا تجري الآن في عروقك دماء مستنقع عفنة ورغوية، بحيث تعلمت النقيق والشتم؟

لماذا لم تغادر إلى الغابة؟ أو توجهت لحرث الحقول؟ أليس البحر مليئاً بالجزر الخضراء؟

إنني أحتقر احتقارك، وإذا كنت فعلاً تحذرني، فلماذا لم تحذر نفسك أولاً؟

من المحبة الخالصة فقط يجب أن يبدأ تحليق احتقاري وطيري المُخَدِر، وليس من المستنقع!

إنهم يدعونك بقردي، أيها المهرج المجنون، ولكنني أدعوك بخنزيري القابع، فأنت بحالتك هذه تفسد مديحي للجنون.

وما الذي دفعك لتقبع كالخنزير؟ أهو عدم تملق الآخرين لك؟ ألهذا جلست بجانب هذه القذارة، كي يكون عندك سبب لتبقى قابعاً.

- لكي تمتلك أسباباً عديدة للانتقام! لأن الانتقام، يا أيها المهرج المغرور، هو رغوتك، ولقد كشفت نواياك جيداً!

ولكن كلمتك الساخرة تضرني حتى عندما تكون على حق! وحتى لو كانت كلمة زرادشت محقة مئة مرة، لتسببتَ بالضرر لي بكلمتي!"

هكذا تكلم زرادشت، ونظر إلى المدينة الكبيرة، ثم تنهد وصمت طويلاً. وأخيراً تكلم فقال:

- إنني أشمئز كذلك من هذه المدينة الكبيرة، وليس فقط من المهرج، فهنا وهناك لا مجال لتحسين أي شيء، ولا مجال لزيادة السوء في أي شيء!

الويل لهذه المدينة الكبيرة! وإنني متشوق لرؤية عمود النار الذي ستحترق فيه هذه المدينة!

لأن أعمدة نارية كهذه يجب أن تسبق وقت الظهيرة العظيم، ولكن لكل شيء ساعته وقدره.

وأسدي إليك النصيحة التالية، أيها المهرج، وهي نصيحة الوداع، فحيث لم يعد بالمقدور الشعور بالمحبة، يجب تجاوز ذلك المكان بتجاهل وعدم التوقف هناك!

هكذا تكلم زرادشت ومر بتجاهل بجانب المهرج والمدينة الكبيرة.

المرتدون

١

آه، لقد بهت وذبل كل شيء كان منذ فترة قريبة يخضر ويلمع فوق هذا المرج! وكم من عسل الأمل حملت من هنا إلى خليتي!

كل هذه القلوب الفتية قد هرمت، حتى أنها في الواقع لم تهرم! بل إنها تعبت وابتذلت وسكنت، إنهم يسمون ذلك "لقد عدنا ثانية متدينين".

منذ فترة قريبة فقط رأيتهم عند الفجر سائرين على أقدامهم الشجاعة، ولكن أرجل معرفتهم تعبت، والآن باتوا يلومون حتى شجاعتهم الصباحية!

حقاً، كثيرون بينهم كانوا في السابق يرفعون أقدامهم كالراقصين، وكان يشدهم الضحك في حكمتي، ثم عادوا إلى رشدهم. ومنذ قليل رأيتهم زاحفين باتجاه الصليب محدبي الظهور.

حول النور والحرية كانوا يرفرفون في السابق، كالفراشات والشعراء الشباب! ثم كبروا قليلاً وبردوا قليلاً، وها هم قد جلسوا بجانب الموقد كالأغبياء والمنافقين.

فهل انقبضت قلوبهم، لأن العزلة ابتلعتني كالحوت؟ ربما طويلاً وبحنين وعبثاً كانت آذانهم تنصت إلى نداء أبواقي وبشرائي؟

- آه! دائماً كانوا قلائل، الذين تحتفظ قلوبهم بالشجاعة والحماس طويلاً، فعند أمثالهم تبقى الروح دؤوبة، أما البقية فصغار الأنفس.

البقية، هم دائماً الأكثرية والابتذال والفضلة والكثرة الكثيرة، جميعهم صغار الأنفس.

إن الذين مثلي، سيصادفون في طريقهم دائماً انفعالات شبيهة بانفعالاتي، ولهذا فإن رفاقهم الأوائل سيكونون من الجثث والبهاليل.

ورفاقهم التالون سيكونون ممن يسمون أنفسهم مؤمنين بهم، حشد حي، والكثير من المحبة، والكثير من الجنون، والكثير من الاحترام الأمرد.

ولكن يجب على الذي يشبهني بين الناس ألا يتعلق قلبه بهؤلاء المؤمنين، ويجب على الذي يعرف الجنس البشري المتقلب وحقير النفس، ألا يؤمن بهذا الربيع وهذه المروج البراقة.

لو كان بمقدورهم أن يكونوا مختلفين، لشاؤوا بطريقة مغايرة، فكل ناقص يفسد الكُلَ، وعندما تذبل الأوراق، لا شيء تأسف عليه!

اتركهم يطيرون ويتساقطون، يا زرادشت، ولا تشتكِ! والأفضل أن تنفخ عليهم بالرياح الهائجة.

ـ انفخ على هذه الأوراق يا زرادشت، كي يغادركَ كل ما هو ذابل سريعاً!



"لقد عدنا متدينين ثانية" هكذا اعترف هؤلاء المرتدون، وكثيرون بينهم ما زالوا حقيري النفس، كي يعترفوا.

أَنظـُرُ في أعينهم، وأخاطبهم في وجوههم وحمرة خدودهم: أنتم الذين عدتم إلى الصلاة ثانية!

ولكن الصلاة عار! ليس بالنسبة للجميع بل بالنسبة لك وبالنسبة لي وبالنسبة للذين يوجد في رؤوسهم ضمير. فبالنسبة لك عار أن تصلي!

أنت تعرف جيداً، أن شيطانك الحقير النفس، القابع فيك، الذي يهجر العمل برضا ويضع يديه على ركبتيه ويحب الراحة، هذا الشيطان الحقير النفس يقول لك: "الرب موجود!".

لهذا السبب تنتمي إلى الخائفين من النور، إلى الذين يقلق راحتهم النور، الآن عليك مع كل يوم أن تدخل رأسك أكثر فأكثر إلى الظلام والنتانة!

حقاً، إنك اخترت الساعة جيداً، إذ إن طيور الليل عادت للتحليق ثانية.

لقد أتت الساعة بالنسبة للخائفين من النور، ساعة التوقف، عندما لا "يتوقفون".

إنني أسمع وأشعر، لقد حلت ساعتهم للصيد والمواكب الاحتفالية، ليس للصيد البري، بل للصيد الوديع الخامل المتعقب للآثار، ويمارسه الناس الذين يمشون ببطء ويصلون بهدوء.

ـ لصيد المنافقين العاطفيين. وجميع مصائد الفئران قد نصبت ثانية للقلوب! وأينما رفعت الستار، تندفع من خلفه فراشة ليلية.

أكانت جالسة مختبئة مع فراشة ليلية أخرى؟ إذ إنني أشعر بوجود الجماعات الصغيرة الخفية في كل الأماكن، فحيث توجد الملاجئ، يوجد حجاج جدد ونتانة صادرة عن المصلين للإله.

إنهم يقضون أماسي كاملة جالسين عند بعضهم بعضاً ويقولون: "سنعود ثانية كالأطفال الصغار وسندعو الإله الرحيم!"، بأفواههم وبطونهم التي أفسدها صانعوا الحلوى المتدينون.

أو أنهم ينظرون خلال الأمسيات الطويلة إلى العنكبوت السام الحامل على ظهره شارة الصليب، المترقب والماكر، الذي يُعلِّم العناكب الحكمة فيقول: "تحت الصلبان يحسن إقامة شبكة العنكبوت!".

أو أنهم يقضون أياماً كاملة جالسين أمام المستنقع يمسكون صناراتهم ولهذا يعتبرون أنفسهم عمقين، ولكن من ذا الذي يصطاد حيث لا توجد الأسماك، ذلك أستكثر عليه لقب السطحي!

أو أنهم بفرح متدين يتعلمون العزف على القيثارة عند الشاعر المنشد، الذي أراد بعزفه أن يخترق قلوب النسوة الشابات، لأنه تعب من النساء العجائز ومديحهم.

أو أنهم يتعلمون الخوف عند عالِم نصف مجنون، ينتظر في الغرف المظلمة ظهور الأرواح، في حين أن أرواحهم هجرتهم نهائياً!

أو أنهم ينصتون إلى عازف جوال عجوز، تعلم من الرياح الحزينة أصوات النحيب، فصار يقلد صدى الرياح ويدعو إلى الشجن بأصوات الحزن.

وآخرون من بينهم تحولوا إلى حراس ليليين، وقد تعلموا النفخ في البوق، والتفتيش الليلي وإيقاظ الماضي الذي نام منذ زمن بعيد.

خمس كلمات من ماضيهم سمعتها البارحة ليلاً عند سور الحديقة، لقد صدرت عن هؤلاء الحراس الليليين المسنين والحزينين والخاملين.

"إنه كأب لا يهتم بأولاده بالشكل المطلوب، فالآباء البشر يفعلون ذلك أفضل!".

"إنه هرم جداً! لقد توقف نهائياً عن الاهتمام بأولاده"، هكذا أجاب حارس ليلي آخر.

"وهل لديه أولاد؟ لا أحد يستطيع إثبات ذلك، إذا لم يثبته هو! إنني أتمنى منذ زمن بعيد أن يثبت ذلك بحجة دامغة".

"يثبت؟ وكأنما قام يوماً بإثبات شيء ما! إن الإثباتات عصية عليه، إنه يعطي الأهمية الكبرى للحصول على إيمانهم به".

"نعم! نعم! فالإيمان يجعله مغتبطاً، الإيمان به. هكذا هي عادة المسنين! نفس الشيء سيحل بنا!".

هكذا تحدث حارسان ليليان مسنان من أعداء النور، ثم نفخا في بوقيهما، لقد حدث ذلك البارحة ليلاً بجانب سور الحديقة.

وكان قلبي يتمزق ضحكاً ويود أن ينكسر، ولم يدرِ أين يذهب فمزق بطنه.

حقاً، إن موتي سيكون اختناقاً من شدة الضحك، وأنا أنظر إلى الحمير السكارى وأستمع إلى أحاديث الحراس الليليين الذين يشكّون بالرب.

ألم ينته منذ زمن بعيد نوع كهذا من الشك؟ من ذا الذي يعود لإيقاظ الماضي الغابر منذ زمن بعيد والمعادي للنور!

منذ زمن بعيد كانت نهاية الآلهة القديمة. وحقاً، إن نهايتها كانت جيدة ومرحة وإلهية!

"فغسقهم لم يستمر حتى الموت، فحول هذا الأمر يكذبون حتماً! بل على العكس، مرة قتلوا أنفسهم بالضحك!

لقد حدث هذا، عندما تلفظ أحد الآلهة بالكلمة الأشد كفراً: "الإله واحد! يجب ألاّ يكون عندك إله غيري!" - اللحية العجوز، لقد نسي الإله الغيور الغاضب نفسه تماماً.

وضحكت الآلهة جميعها يومها، وهم يتأرجحون على كراسيهم، وصاحوا: "أليست الألوهية متلخصة في وجود الآلهة وليس الإله!".

والذي لديه أذنان فليسمع.

هكذا تكلم زرادشت في المدينة التي أحبها والتي اسمها "البقرة المبرقشة"، ومن هنا بقي أمامه يومان فقط من السفر، كي يعود ثانية إلى مغارته وحيواناته، وكانت نفسه تفرح باستمرار نظراً لقرب العودة.

العودة

آه، أيتها العزلة! أنت أيتها العزلة موطني! لقد عشت طويلاً حياة برية في الغربة الموحشة، فعدت إليك دامع العينين!

الآن يمكنك أن تهدديني بإشارة من إصبعك، كما تهدد الأم، الآن ابتسمي لي، كما تبتسم الأم، الآن قولي: "ومن الذي غادرني يوماً مبتعداً كالإعصار؟

- من الذي صاح عند الفراق: لقد جلست طويلاً في العزلة، لقد نسيت الصمت! فهل تعلمت ذلك الآن؟

آه، يا زرادشت، إنني أعرف كل شيء، فقد كنت وسط الحشود مهجوراً، أكثر مما كنت عليه وحيداً عندي!

فالهجران شيء والعزلة شيء آخر، هذا ما تعلمته الآن! وأنك ستكون بين الناس غريباً وبرياً دائماً.

- غريباً وبرياً، حتى عندما يحبونك، لأنهم أكثر ما يرغبون به هو أن يُرْأَفَ بهم!

في حين أنك هنا في موطنك وبيتك، هنا يمكنك قول كل شيء ونفض كل الأسباب، هنا لا داعي لتخجل من المشاعر الخفية والبخيلة.

إلى هنا تأتي جميع الأشياء، لتلاطف كلماتك وتتزلف لك، لأنها تريد امتطاء ظهرك، في حين أنك تمتطي جميع الرموز متجهاً إلى كل الحقائق.

هنا يمكنك أن تخاطب جميع الأشياء مباشرة وبصراحة، وحقاً، إنه كمديح يرن في آذانهم، أن شخصاً واحداً يتحدث بصراحة مع كل الأشياء!

بينما الهجران أمر مختلف، إذ إنك تذكر يا زرادشت كيف صاح طيرك فوق رأسك، عندما وقفت في الغابة متردداً، ولم تدر إلى أين تذهب، وأنت بجانب الجثة.

ـ عندما قلت: "لتقودني حيواناتي!" تبين أن التواجد بين الناس أخطر من التواجد بين الحيوانات، هذا هو الهجران!

وهل تذكر يا زرادشت كيف جلست في جزيرتك، وسط الدلاء الفارغة ينبوعاً من الخمر، مضحياً بنفسك للعطاشى وساكباً نفسك بلا حساب.

- إلى أن بقيت أخيراً جالساً لوحدك، عطشاناً، وسط السكارى، تشتكي وسط الليالي: "الأخذ أليس هو متعة أكبر من العطاء؟ والسرقة أليست هي متعة أكبر من الأخذ؟" هذا هو الهجران!

وهل تذكر يا زرادشت كيف اقترب منك سكونك وطاردك بعيداً عن ذاتك، وعندما همس لك همساً شريراً: "قل كلمتك ومت!".

- عندما جعلك تندم على كل انتظار انتظرته وعلى صمتك، وجعل شجاعتك الحليمة تشعر بانقباض، هذا هو الهجران!".

آه أيتها العزلة! أنت موطني! إن صوتك يحدثني بغبطة ورقة!

نحن لا نسأل أحدنا الآخر، نحن لا نشتكي لبعضنا بعضاً، إننا ندخل علناً الأبواب المفتوحة سوياً.

فعندك كل شيء مكشوف ونيِّر، والساعة تجري هنا بخطوات خفيفة رشيقة، فالوقت يُثقِلُ في الظلام أكثر مما هو عليه في النور.

هنا تتكشف لي الكلمات وخزائن الكلمات الخاصة بكل وجود، هنا كل وجود يرغب في أن يصبح كلمة، وكل تَكَوُّن يريد أن يتعلم مني الكلام.

بينما هناك في الأسفل كل حديث يكون عبثياً! هناك النسيان والمرور بتجاهل هو الحكمة الأفضل، هذا ما تعلمته الآن!

فالذي يريد فهم كل شيء عند الناس، عليه أن يلمس كل شيء، ولكن يديَّ طاهرتان جداً لعمل كهذا.

لم أعد راغباً في تنشق أنفاسهم، آه، لماذا عشت طويلاً وسط الضجيج ووسط أنفاسهم الكريهة!

آه، يا أيها الصمت المغتبط من حولي! آه، يا أيتها الرائحة النقية من حولي! آه، كيف يتنشق هذا الصمت بملء صدره الأنفاس النقية! آه، كيف ينصت هذا الصمت المغتبط!

ولكن هناك في الأسفل كل شيء يتكلم، هناك كل شيء يمر دون أن يخترق الآذان. هناك حتى إذا قرعت الأجراس لتتكلم عن حكمتك، فإن رنين مال التجار في السوق سيغطي على رنين أجراسك!

كل شيء لديهم يتكلم، ولم يعد أحد قادراً على الفهم. كل شيء يسقط في الماء، ولم يعد يسقط شيء في الينابيع العميقة.

كل شيء لديهم يتكلم، ولكن لا ينجح شيء ولا يصل إلى نهايته. كل شيء يقوقئ، ولكن من ذا الذي يريد الجلوس في العش وحضن البيض؟

كل شيء لديهم يتكلم، كل شيء يُحَلُ بالماء، والشيء الذي كان البارحة صلباً وعصياً على الزمن وأسنانه، يتدلى اليوم من أفواه أناس الحاضر مقضوماً ومقروضاً.

كل شيء لديهم يتكلم، كل شيء يُذاع، والشيء الذي سمي يوماً سراً ومُلكاً للأنفس العميقة، أصبح اليوم ملكاً للموسيقيين المتجولين والفراشات الأخرى.

آه، أنت أيها الكائن البشري القديم! أنت الضجيج في الشوارع المعتمة! عدت ثانية للاستلقاء وراء ظهري، إن خطري الأعظم موجود خلف ظهري!

كان خطري الأكبر يكمن دائماً في الرأفة والشفقة، وكل كائن بشري يريد أن يُرأف بحاله ويُشفَق عليه.

لقد عشت دائماً بين الناس، بحقائقي التي لم أنطق بها، بيدي مجنون وبقلب مُبَذِّر، غني بكذبة الرأفة الصغيرة.

جلست بينهم متنكراً، مستعداً لعدم التعرف على نفسي، كي أتحملهم فحسب، ومحاولاً إقناع نفسي: "أنت أحمق ولا تعرف الناس!".

إن العيش وسط الناس يفقدك معرفتك لحقيقتهم، إذ يوجد في الناس الكثير جداً من التصنع، فما الذي تريده هناك العيون بعيدة النظر وصاحبة النظرات الثابتة!

وعندما كانوا لا يتعرفون علي، كنت أنا، المجنون، أشفق عليهم أكثر مما أشفق على نفسي، فقد اعتدت على التعامل بصرامة مع نفسي وكنت كثيراً ما أنتقم من نفسي لهذه الشفقة.

جلست بينهم ملسوعاً من قبل الذباب السام ومحفوراً كالحجر بقطرات حقدهم اللامتناهية، ومع ذلك كنت أحاول إقناع نفسي: "ليس مذنباً كل حقير تافه في تفاهته!".

إن الذين كانوا يسمون أنفسهم "الطيبين"، كنت أجدهم وبشكل خاص أشد الذباب سمية، إنهم يلسعون ببراءة تامة، فكيف يمكنهم أن يكونوا عادلين معي!

إن الذي يعيش وسط الطيبين، ذلك تعلمه الشفقة الكذب. الشفقة تجعل الهواء خانقاً لجميع الأنفس الحرة، إذ إن غباء الطيبين لا حدود له.

إخفاء الذات والغنى الشخصي، هذا ما تعلمته هناك في الأسفل، لأنني كنت أعتبر كل شخص فقيراً بالروح. فقد تلخص كذب شفقتي في أنني كنت أعرف كل ما يتعلق بكل شخص، وأنني كنت أرى وأشعر عند كل شخص، كم يكفيه من الروح ومتى يصبح الأمر كبيراً عليه!

إن حكماءهم متكبرون، وكنت أدعوهم بالحكماء وليس بالمتكبرين، هكذا تعلمت ابتداع الكلمات. وكنت أدعو حفاري قبورهم بالباحثين والمختبرين، هكذا تعلمت استبدال الكلمات.

إن حفاري القبور يحفرون لأنفسهم الأمراض، فتحْتَ القذارة العتيقة تنام الأبخرة الضارة. يجب عدم إقلاق المستنقع، بل يجب العيش فوق الجبال.

بغبطة عدت لتنشق حرية الجبال! أخيراً تخلص أنفي من رائحة الكائنات البشرية!

- ونفسي التي هيجها الهواء النقي، ثملت وكأنها شربت الخمور المزبدة، فأخذت تعطس وتقول لنفسها بمرح: أتمنى لك الصحة!

هكذا تكلم زرادشت.

الشر الثلاثي

١

خلال النوم، في حلمي الصباحي الأخير، وقفت اليوم فوق صخرة عالية، على الجانب الآخر من العالم، حاملاً الميزان وموزناً العالم.

آه، لقد اقترب مني فجر الصباح باكراً قبل الأوان، فأيقظني متوهجاً غيوراً! إنه دائماً يغار علي من نومي الصباحي الحار.

قابلاً للقياس عند من لديه الوقت، وقابلاً للوزن عند صاحب الميزان الماهر، سهل المنال بالنسبة للأجنحة القوية، ممكناً لكشف أسراره بالنسبة للذين يحبون كشف الأسرار الإلهية، هكذا وجد حلمي العالم.

إن حلمي، سباح شجاع، نصف سفينة ونصف ريح، صامت كالفراشة، عديم الصبر كالصقر، كم لديه اليوم من الصبر والوقت ليزن العالم!

ألم توحي له حكمتي بذلك سراً، حكمة النهار الضاحكة اليقظة، الساخرة من كل شيء "من كل العوالم اللانهائية"؟ إذ إنها تقول: "حيث توجد القوة، هناك يسود الرقم، إذ إن قوته أكبر".

لقد نظر حلمي بثقة إلى هذا العالم الذي له نهاية، بدون أي فضول وبدون خوف وبدون رجاء.

ـ وكأنما تفاحة غضة طرية كانت ترجوني أن أمسكها بيدي، بقشرتها الباردة والناعمة والمخملية، هكذا بدا لي العالم.

ـ وكأنما الشجرة أومأت لي، بأغصانها المتفرعة، وإرادتها القوية، منحنية لتقديم الدعم وشبيهة بالمحراب لعابر السبيل المنهك، هكذا بان العالم من فوق صخرتي العالية.

ـ وكأنما أيدي جميلة حملت لي صندوقاً، مكشوفاً لإعجاب الأعين الخجولة المحترمة، هكذا سعى نحوي العالم في هذا اليوم.

ـ لم يكن لغزاً ليخيف المحبة الإنسانية، ولم يكن كشفاً للغز كي يحذر الحكمة الإنسانية، لقد كان العالم اليوم طيباً طيبة إنسانية بالنسبة لي، وبدا وكأنهم يفترون عليه حقداً!

كم أشكر حلمي الصباحي، الذي جعلني اليوم عند الفجر أزن العالم! لقد جاء إلي هذا الحلم طيباً طيبة إنسانية، ليُعزي القلوب!

ولأتصرف في النهار متشبهاً به، وليكن أفضل ما لديه مثالاً لي، أريد أن أضع الآن على الميزان ثلاثة من أسوأ الأمور وأن أزنها بطريقة إنسانية.

فالذي علم المباركة، علم اللعنة كذلك، فأي الأشياء الثلاثة أكثر لعنة في العالم؟؟ أريد وضعهم على الميزان.

الشهوانية والتسلط والأنانية، لقد كانوا حتى الآن الأشد لعنة والأشد افتراءً وكذباً عليهم، وأريد أن أزنهم بطريقة إنسانية.

حسناً! هنا صخرتي، وهناك البحر، إنه يتدحرج بأمواجه إلي، أشعثاً، متملقاً، وفياً عجوزاً، هذا الكلب المرعب ذو الرؤوس المئة، المفضل عندي.

حسناً! هنا أريد أن أحمل الميزان فوق البحر الهائج، وأختار الشاهد ليرى، أختارك أنت أيتها الشجرة الوحيدة، العطرة بأغصانك الممتدة، المحبوبة عندي.

عبر أي جسر يسير الحاضر باتجاه المستقبل؟ أي إرغام يرغم الرفيع لينحني نحو الدنيء؟ وما الذي يأمر العالي في أن يستمر في علوه؟

إن الميزان متعادل وثابت الآن، لقد وضعتُ فوقه ثلاثة أسئلة ثقيلة، وحملَتْ كفة الميزان الأخرى ثلاثة أجوبة ثقيلة.



الشهوانية، إنها بالنسبة لكل الذين يرتدون ثوب الراهب المتقشف ويحتقرون الجسد، إبرة لدغهم السامة وقطبهم و"عالمهم"، ملعونة عند كل الحالمين بالعالم الآخر، لأنها تضحك وتسخر من كل معلمي الكذب.

الشهوانية، بالنسبة للحشود نار بطيئة يحترقون فيها، وبالنسبة لكل شجرة تتآكلها الديدان، ولكل الخرق العفنة ذات الرائحة الكريهة، فرن جياش متولع جاهز.

الشهوانية، بالنسبة للقلوب الحرة شيء بريء وحر، سعادة الجنة على الأرض، وفرة من الشكر والامتنان من قبل كل ما سيأتي لكل ما هو حاضر.

ـ الشهوانية، فقط بالنسبة للذابل سم حلو، وأما بالنسبة للذين لديهم إرادة الأسد، فهي دعم قلبي عظيم وخمر الخمور المحفوظ بإجلال.

الشهوانية، رمز عظيم للسعادة من أجل سعادة أسمى وأمل أكبر. إذ إن الكثيرين وُعِدوا بالزواج وبأكثر من الزواج.

ـ للكثيرين ممن هم أكثر غربة تجاه بعضهم بعضاً، من غربة الرجل والمرأة، ومن ذا الذي يدرك جيداً، مقدار غربة الرجل والمرأة عن بعضهما بعضاً!

الشهوانية، علماً بأنني أريد أن أضع اللجام على أفكاري وحتى على كلماتي، كي لا يخترق حدائقي الخنازير والمجانين!

التسلط، سوط متوهج بالنسبة لأصلب القلوب، تعذيب قاسٍ، يحكم به الأشد قسوة على نفسه، نيران قاتمة حية.

التسلط، لجام شرير وضع على أكثر الشعوب غروراً، إنه يسخر من كل فضيلة مشكوك بها، إنه يعتلي صهوة كل حصان وكل كبرياء.

التسلط، زلزال يدمر ويحطم كل ما هو عفن وفارغ في داخله، يتدحرج ويدوي ويعاقب التوابيت المقلوبة بالتدمير، إشارة استفهام لامعة وسط الأجوبة السابقة لأوانها.

ـ التسلط، أمام ناظريه يتذلل الإنسان وينحني ويخنع ويصبح أخفض من الأفعى والخنزير، إلى أن يزعق فيه أخيراً الاحتقار العظيم.

التسلط، المعلم المتوعد للاحتقار العظيم، الذي يخاطب المدن والممالك في وجوهها: "اذهبوا بعيداً!" إلى أن يصيحوا بأنفسهم: "آن الأوان لنذهب بعيداً!".

ـ التسلط، إنه يصعد بإغراء إلى الأتقياء والمنعزلين، إلى الأعلى نحو القمم المكتفية بذاتها، متوهجاً كالمحبة، راسماً بإغراء صور الغبطة الأرجوانية على السموات الأرضية.

التسلط، من ذا الذي سيدعوه طموحاً، عندما يسعى الرفيع باتجاه الأسفل إلى السلطة! حقاً، لا يوجد شيء مرضٍ في سعي وتنازل كهذا!

ـ كي يتسنى للقمة المنعزلة أن تنعزل عزلة غير أبدية وألا تكتفي بنفسها، كي ينزل الجبل إلى الوادي، وتنزل رياح القمة إلى الوهاد.

آه، ليت أحدهم يعثر على الاسم الحقيقي، كي يسمي ويُكَرِّم سعياً كهذا!

"الفضيلة الواهبة" هكذا سمى زرادشت يوماً الشيء الذي لا اسم له.

وعندما حدث لأول مرة! أن كلمته مجدت الأنانية الجيدة والسليمة، التي تنبض بالحياة من النفس الجبارة.

ـ من النفس الجبارة التي تمتلك جسداً رفيعاً، وجميلاً ومظفراً ومنعماً، والذي من حوله كل غرض يصبح مرآة.

ـ الجسد المرن والمُقْنِع والراقص، الذي رمزه وتعبيره النفس الفرحة بنفسها. الفرح الذاتي لأجساد وأنفس كهذه تدعو نفسها بـ"الفضيلة".

بكلماته حول الخير والشر يحمي الفرح الذاتي نفسه، فيحيط بها نفسه كحرج مقدس، وبأسماء سعادتها تطرد عنها كل ما هو حقير.

بعيداً عنه يطرد كل ما هو جبان، إنه يقول: الرديء يعني الجبان! مستحِقاً للاحتقار يبدو لها كل من يبقى مهموماً باستمرار ويتنهد ويشتكي، وكذلك الذي يجمع المكاسب الصغيرة.

كذلك يحتقر كل حكمة كئيبة، إذ إنه، حقاً، توجد كذلك الحكمة المزدهرة في الظلام، حكمة الظلال الليلية، التي تتنهد باستمرار: "كل شيء بهرج!".

إنه لا يحب الشك الجبان والذين يطالبون بالعهود عوضاً عن الأنظار والأيدي الممدودة، كما لا يحب كل حكمة شديدة الارتياب، لأنها حكمة الأنفس الجبانة.

كذلك يقل تقييمه للخدومين جداً، كالخدوم الذليل الذي يستلقي فوراً كالكلب على ظهره، كذلك توجد حكمة ذليلة ذل الكلاب، ذليلة وخدومة جداً.

إنه يكره ويشمئز من الذي لا يرغب أبداً في الدفاع عن نفسه، الذي يبتلع البصقات السامة والنظرات الحقودة، الشديد الصبر الذي يتحمل كل شيء، وراضٍ بكل شيء، لأن هذه هي عادات العبد.

فإذا كان هناك من يخنع أمام الآلهة وأقدامهم، وأمام الناس وآرائهم الغبية، فالفرح الذاتي يبصق على كل ما هو ذليل وخانع كالعبد، هذه هي الأنانية المغتبطة!

رديء، هكذا يسمى كل ما هو ذليل ذل العبد، والعيون الرامشة والمطيعة، والقلوب المحطمة، وذلك الصنف الكاذب اللين، الذي يُقبِّل بشفاه عريضة جبانة.

والحكمة المزعومة، هكذا يسمي كل ما يتفلسف حوله العبيد والشيوخ والمرهقون، وبخاصة الحماقة الرديئة التي تتصنع الحكمة عند الكهنة!

الحكماء المزعومون، وهم الكهنة وجميع المرهقين من العالم والذين أنفسهم تشبه أنفس المرأة والعبد. آه، كيف لاحقت لعبتهم الأنانية باستمرار!

وكان يجب على تعقب الأنانية أن يكون فضيلة ويسمى فضيلة! الكون "خالياً من الأنانية" هذا ما يريدونه وبقناعة تامة لأنفسهم، كل هؤلاء الجبناء والعناكب حاملات الصلبان، المتعبون من العالم!

ولكن بالنسبة لهؤلاء جميعاً يقترب اليوم الذي هو التغيير وسيف القاضي ووقت الظهيرة العظيم، وعندها سينكشف الكثير!

والذي يسمي "الأنا" سليماً ومقدساً، والأنانية مغتبطة، ذلك، حقاً، يقول إنه يعرف كمعرفة المتنبئ: "ها هو يقترب، إنه قريب، وقت الظهيرة العظيم!".

هكذا تكلم زرادشت.

روح الثقل



إن لساني هو لسان الشعب، فأنا أتحدث بخشونة وانفعال شديدين بالنسبة للأشخاص اللبقين، وتبدو كلمتي أشد غرابة بالنسبة لجميع الكتاب الركيكين، والموظفين البيروقراطيين!

إن يدي هي يد مجنون، فالويل لكل الطاولات والجدران ولكل ما يمكنه أن يعطي مكاناً للزينة ولكتابات المجنون الركيكة!

إن رِجلي هي رِجل حصان، وبمساعدتها أعدو وأقفز فوق الجذامير والصخور، فأقطع الحقل طولاً وعرضاً، وأفرح كالشيطان لكل ركض سريع.

إن معدتي هي معدة نسر حتماً، لأنها أكثر ما تحب لحم الحمل الصغير، وهي على أية حال معدة طير.

فأنا المُغَذَى بغذاء ضئيل بريء، مستعد ومتعطش للطيران والمغادرة، هذا أنا، أولست أنا طيراً، ولو قليلاً!

وبشكل خاص لأنني عدو لروح الثقل، ففي هذا أيضاً تتلخص طبيعة الطير، وحقاً، أنا عدو لدود، أنا ألد الأعداء، عدو منذ ولادتي! آه، لم يبق مكان لم تغزه عداوتي ولم يبق مكان لم تَجُلْ فيه!

بمقدوري إنشاد أغنية حول ذلك، وأنا راغب بإنشادها، على الرغم من أنني وحيد في بيت فارغ وعلي أن أنشدها لأذنيَّ.

ويوجد طبعاً مغنون آخرون، لا يجعلُ صوتهم مرناً إلا البيت المكتظ، ويدهم بليغة ونظراتهم معبرة وقلوبهم يقظة، إنني لا أشبههم.



إن الذي سيعلم الناس الطيران يوماً، سيزيح عن الطريق كل الحجارة الحدودية، وستنفجر كل الحجارة الحدودية بنفسها في الهواء، وسيُعَمِّدُ الأرض من جديد باسم جديد "الخفيفة".

إن طير النعامة يعدو أسرع من أسرع حصان، ولكنه ما زال يخبئ رأسه بتثاقل في التربة الثقيلة، وهكذا هو الإنسان الذي لا يتقن الطيران.

تبدو له الأرض والحياة ثقيلتين، هكذا يريد روح الثقل! ولكن الذي يريد أن يكون خفيفاً، ويكون طيراً، عليه أن يحب نفسه، هكذا أُعَلِمُ.

وطبعاً، يجب ألا تكون محبته كمحبة المرضى والمضطربين المحمومين، لأن محبتهم الذاتية تحمل رائحة عفنة!

يجب تَعَلُّم محبة الذات، هكذا أُعَلِمُ، محبة سليمة وصالحة، كي يكون في مقدورك تحمل نفسك وعدم الترحال في كل مكان.

إن ترحالاً كهذا يسمى "محبة القريب"، بمساعدة هذه الكلمة كانوا يكذبون حتى الآن وينافقون بشدة، وبخاصة الذين تحمَّلهم العالم بأكمله بصعوبة كبيرة.

وحقاً، أن تتعلم محبة الذات، ليس عظة لليوم والغد، بل إنه بالأحرى الفن الأكثر دقة ومكراً من بين جميع الفنون، والفن الأخير والأكثر صبراً.

إذ إنه بالنسبة للمالك كل ما هو ملكه يكون مدفوناً في الأعماق، ومن بين جميع الكنوز يُخرِجُ كنزه الشخصي بعد إخراجها جميعاً، هكذا بني روح الثقل.

منذ المهد يلقنوننا ويورثوننا الكلمات الثقيلة والقيم الثقيلة: "الخير والشر" هكذا يدعى هذا الإرث، ومن أجله يسامحوننا على عيشنا.

كذلك يسمحون للأطفال الصغار بالقدوم إليهم، كي يمنعوهم في الوقت المناسب من محبة أنفسهم، هكذا يفعل روح الثقل.

أما نحن، فإننا نجر مصدقين ما أورثونا إياه، على أكتافنا القوية، عبر الجبال الجرداء! وإذا صرنا نتصبب عرقاً، يقولون لنا: "نعم، الحياة حِمْلٌ ثقيل!"

ولكن الإنسان فقط يصعب عليه حمل نفسه! هذا لأنه يحمل الكثير جداً مما هو غريب

عنه فوق كتفيه، كالجمل يجثم على الأرض ويسمح بتحميله جيداً.

وخاصة الإنسان القوي والصبور والجلود، القادر على الاحترام العميق، يُحَمِلُ كاهله الكثير جداً من القيم والكلمات الغريبة الثقيلة، فتبدو له الحياة صحراءً!

حقاً! فحتى الكثير من الحمل الشخصي يصعب حمله! والكثير داخل الإنسان يشبه المحارة، المقززة والزلقة، التي يصعب الإمساك بها.

- ولهذا فإن القشرة الكريمة للمحارة بزينتها الكريمة يجب أن تدافع عنها. وهذا الفن أيضاً يجب تعلمه، أن تمتلك قشرة لها روعة الشبح وبريق الحكمة الذي يخطف الأبصار.

ومن جديد يمكنك أن تخطئ في كثير من الأمور في الإنسان، إذ إن قشرة أخرى يمكن أن تكون تافهة وكئيبة وشبيهة جداً بالقشور العادية. فالكثير من الطيبة والقوة المخفيتين لا يُكْتَشفان، وأكثر الأطعمة قيمة لا تجد محبيها!

النساء تعرفن ذلك، فالأكثر قيمة أكثر سماكة بقليل أو أرق بقليل. آه، فغالباً ما يكون القدر في القليل، القليل!

من الصعب اكتشاف حقيقة الإنسان، والأكثر صعوبة اكتشاف الذات، فغالباً ما تكذب الروح بخصوص النفس، وهذا ما تفعله روح الثقل.

ولكن الذي اكتشف نفسه، هو الذي قال: هذا خيري وشري، وبقوله هذا أجبر على الصمت الكائن الذي يمثل نصف خلد ونصف قزم، والذي قال: "الخير للجميع، والشر للجميع".

حقاً، لا أحب الذين يسمون كل غرض جيداً، وهذا العالم بأفضل العوالم. هؤلاء أسميهم بالراضين والقانعين بكل شيء.

الرضا بكل شيء، القادر على إيجاد كل الأطعمة لذيذة، ليس هو الذوق الأفضل! إنني أحترم الألسنة والبطون العنيدة والمتأنقة، التي تعلمت كيف تقول "أنا، نعم، لا".

أما مضغ وهضم كل شيء، فهذه خاصية حقيقية تميز الخنزير! والنهيق الدائم لم يتعلمه إلا الحمار والذين يشبهونه بالروح!

اللونان الأصفر المُرَكّز والأحمر الفاقع، يطالب بهما ذوقي، الذي يخلط الدم بجميع الألوان. ولكن الذي يطلي بيته بطلاء أبيض، يكتشف نفساً مُبَيَّضة.

البعض يعشق المومياءات وآخرون يعشقون الأشباح، وكلاهما يعاديان اللحم والدم. آه، كم يشمئز منهما ذوقي! إذ إنني أحب الدم.

كما أنني لا أريد العيش حيث يبصق الجميع، هكذا هو ذوقي، وأفضل على ذلك العيش بين اللصوص وحانثي الأيمان، فلا أحد يحمل الذهب في فمه.

ويشتد اشمئزازي أكثر من جميع المتزلفين المتطفلين، وقد دعوت بالطفيلي أكثر الحيوانات إثارة للاشمئزاز ممن صادفتهم بين الناس، فقد كان رافضاً أن يحب، ومع ذلك كان راغباً بالعيش على حساب المحبة.

إنني أدعو بالمساكين، كل من لديهم خيار واحد فقط، أن يتحولوا إلى حيوان ضارٍ أو أي مروض عنيف للحيوانات، عندهم لن أنصب خيمتي.

وأدعو بالمساكين كذلك، الذين يتوجب عليهم دائماً البقاء متأهبين حذرين، إذ يشمئز منهم ذوقي، كل هؤلاء المُبتلين والتجار والملوك وبقية حراس البلد والدكاكين.

وحقاً، إنني تعلمت جيداً كيف أحرس، ولكنها حراسة الذات. وقبل أي شيء تعلمت الوقوف والسير والركض والقفز والتسلق والرقص.

إذ إن تعاليمي تتلخص في أن الذي يريد تعلم الطيران، عليه أولاً تعلم الوقوف والمشي والركض والتسلق والرقص، إذ يستحيل تعلم الطيران مباشرة!

تعلمت تسلق السلم المعلق ودخول نوافذ عديدة، وتسلقت بمهارة صواري عالية، فقد بدا لي الجلوس فوق صواري المعرفة العالية غبطة هائلة.

- الاحتراق بنار خفيفة فوق صواري عالية، فعلى الرغم من النار الخفيفة إلا أنها عزاء كبير لجميع الربابنة الذين علقت سفنهم في الرمال والذين تحطمت سفنهم!

لقد اجتزت طرقاً كثيرة وجربت أساليب عديدة حتى وصلت إلى حقيقتي، وهي أنني لم أصعد السلم المعلق وحده إلى العلو الذي انطلق منه نظري إلى البعيد.

ودائماً كنت أستفسر عن الطرقات بلا رغبة، فذلك كان دائماً مخالفاً لذوقي! فالأفضل بالنسبة لي كان أن أستفهم وأختبر الطرقات بنفسي.

فالاستفهام والاختبار كانا كل مسيري، وحقاً، فحتى الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى تعلم! ولكن هكذا هو ذوقي.

- إنه ليس جيداً وليس سيئاً، ولكنه ذوقي الذي لا أخجل منه ولا أُخبئه. "هذا هو طريقي الآن، فأين هو طريقكم؟" - هكذا أجبت الذين سألوني عن "الطريق"، فلا وجود لطريق واحد محدد!

هكذا تكلم زرادشت

رُقَم النصوص المقدسة القديمة والجديدة

١

هنا أجلس وأنتظر، وكل رُقَم النصوص المقدسة المكسورة من حولي، وكذلك الجديدة التي لم تكتمل نصوصها. فمتى ستأتي ساعتي؟

ـ ساعة انحداري، ساعة غروبي، إذ إنني أريد أن أذهب إلى الناس مرة أخرى بعد.

إنني أنتظرها الآن، فأولاً يجب أن تتقدمني الإشارات التي تنذر بقرب ساعتي، وهي تحديداً أسد ضاحك وسرب من الحمام.

أما الآن فما زلت أحدث نفسي، كالذي لديه الوقت. لا أحد يخبرني بأي جديد، ولهذا أحدث نفسي حول نفسي.



عندما قدمت إلى الناس وجدتهم جالسين على قناعة مسبقة قديمة، جميعهم كانوا يؤمنون بأنهم يعرفون منذ زمن بعيد ما هو الخير وما هو الشر بالنسبة للإنسان.

فبدا لهم كل حديث حول الفضيلة قديماً ومرهقاً، والذي كان يريد النوم بهناء، كان يتحدث قبل النوم حول "الخير والشر".

نفضت عني هذا النعاس، عندما بدأت أُعَلِم: لا أحد يعلم حتى الآن، ما هو الخير وما هو الشر، إذا لم يكن هو نفسه الخالق!

ـ ولكن الخالق، هو الذي يخلق الهدف للإنسان ويعطي الأرض مغزاها ومستقبلها، إنه ولأول مرة يخلق الخير والشر لجميع الأشياء.

وأمرتهم أن يقلبوا المنابر القديمة وكل ما جلست عليه هذه القناعة القديمة، وأمرتهم أن

يسخروا من أساتذة الفضيلة العظماء، ومن قديسيهم وشعرائهم ومن مخلصي عوالمهم.

أمرتهم بالسخرية من حكمائهم المتجهمين، ومن الذين جلسوا يوماً كالفزاعة المرعبة السوداء فوق شجرة الحياة محذرين.

على حافة شارع قبورهم الكبير جلست مع الميتة والبواشق، وكنت أسخر من كل ماضيهم وبريقهم الماضي العفن المتفسخ.

حقاً، شبيهاً بدعاة التوبة والمجانين، نفثت غضبي على كل عظيم وصغير لديهم، وأن كل ما هو الأفضل لديهم هو حقير للغاية، وأن ما هو أشد سوءاً لديهم هو حقير للغاية! ـ هكذا كنت أضحك.

إن سعيي تجاه الحكمة كان يصيح ويضحك في داخلي: حقاً، إنها مولودة فوق الجبال، حكمتي البرية! سعيي العظيم الذي يصدر الضجيج بجناحيه.

وكثيراً ما حملني للبعيد، إلى الأعالي، وسط الضحك، عندها كنت أطير مرتجاً كالسهم، عبر الغبطة الثملة بنور الشمس.

ـ إلى هناك، إلى المستقبل البعيد، الذي لم يره بعد أي خيال حالم، إلى الجنوب الأشد حرارة مما حلم به الرسامون يوماً، إلى حيث ترقص الآلهة خجلة من أي ثياب.

ـ هكذا أتحدث بالرموز، وكالشعراء أتلعثم وأتمتم، وحقاً إنني أخجل من وجوب بقائي شاعراً حتى الآن!

إلى هناك حيث بدا لي كل تَشَكُل رقصة إلهية وعبثاً، وبدا العالَمُ كالذي أطلِق سراحه بلا لجام، هارباً من جديد إلى نفسه.

ـ كالهروب الأبدي للكثير من الآلهة من أنفسهم والبحث مجدداً عن الذات، وكالمناقضة المغتبطة للذات، كالتكرار والعودة إلى الذات لكثير من الآلهة.

حيث بدا لي كل وقت سخرية مغتبطة من اللحظات، حيث كانت الحرية ضرورة، تلعب بغبطة مع لسان الحرية اللاذع.

هناك حيث عثرت من جديد على شيطاني العجوز وعدوي اللدود، روح الثقل، وكل ما خلقه من عنف وقانون وضرورة ونتيجة وهدف وإرادة وخير وشر.

آلا يتوجب أن توجد الأشياء التي يمكن الرقص فوقها؟ وهل وجود الخفيف والأكثر خفة يجب أن يمنع وجود الخلد والقزم الثقيل؟



هناك رفعت عن الأرض كلمة "الإنسان الخارق" وأن الإنسان هو شيء يجب التفوق عليه.

ـ إن الإنسان هو جسر، وليس هدف، وهو يفرح بوقت ظهيرته ومسائه، وكأنها طرق تقود إلى فجر صباح جديد.

ـ كلمة زرادشت حول وقت الظهيرة العظيم، وأنني علقت على الإنسان، وكأنه فجر مسائي أرجواني ثانٍ.

حقاً، لقد سمحت له برؤية نجوم جديدة وليالٍ جديدة، وفوق الغيوم والليل والنهار نشرت الضحك كخيمة براقة.

لقد علمته جميع أفكاري وطموحاتي، الجمع والتوحيد بين كل ما هو متناثر وغامض ومرعب في مفاجأته في الإنسان.

ـ كالشاعر وكاشف الألغاز والمخلص من المصادفات، علمته أن يكون خلاقاً للمستقبل، وأن ينقذ كل ما هو موجود بالخلقِ.

إنقاذ الماضي في الإنسان وإصلاح كل ما "كان"، إلى أن تقول الإرادة "هكذا أردت أنا! وهكذا سأرغب".

هذا ما سميته له بالخلاص، وهذا فقط ما علمته بأن يدعوه بالخلاص.

والآن أنتظر خلاصي، لأذهب إلى الناس للمرة الأخيرة.

لأنني سأذهب إليهم مرة واحدة أخرى، وأريد أن أموت بينهم، وقبل أن أموت أريد أن أعطيهم هبتي العظمى!

لقد تعلمت ذلك من الشمس، فعندما تغرب أعظم الأضواء، تنثر الذهب إلى البحر من خزائنها التي لا تنضب.

ـ حتى بات أفقر الصيادين يجدف بمجداف ذهبي! إذ إن هذا ما رأيته يوماً، وخلال نظري كان الدمع يسيل من عيني بلا توقف.

كالشمس يريد أن يغرب زرادشت، وهو جالس الآن ينتظر هنا، ومن حوله الرُقَم العتيقة المكسورة، وكذلك الجديدة التي ملأت النصوص نصفها.



انظر هذا رُقيُم جديد، ولكن أين هم أخوتي، الذين سيحملونه معي إلى الوادي وإلى القلوب كثيرة اللحم؟

هكذا تنص محبتي العظمى للبعيدين: لا ترحم قريبك، فالإنسان هو شيء يجب التفوق عليه.

ويوجد الكثير من طرق وأساليب التفوق، ابحث عنها بنفسك! ولكن المهرج فقط يفكر: "يمكن القفز من فوق الإنسان".

تفوق على نفسك حتى في قريبك، والحق الذي يمكنك الظفر به، ويجب أن تسمح بإعطائك إياه!

الشيء الذي تفعله، لا يمكن لأحد أن يفعله لك. واعلم أن الانتقام غير موجود.

إن الذي يعجز عن إصدار الأوامر لنفسه، يجب أن يطيع. والكثيرون يستطيعون أن يأمروا أنفسهم، ولكن ينقصهم الكثير ليتعلموا طاعة أنفسهم!



هكذا يريد طبع الأنفس النبيلة، فهي لا تريد الحصول على أي شيء مجاناً، وبخاصة الحياة.

أما الذي من وسط الحشد، فذلك يريد أن يحيا بالمجان، في حين أننا مختلفون، نحن الذين أعطيت لنا الحياة، نفكر باستمرار في الأفضل الذي يمكننا أن نقدمه لقاءها!

وحقاً، نبيل القول الذي ينص: "إن الذي تعدنا به الحياة، نريد فعله من أجل الحياة!"

فيجب ألاّ نرغب بالاستمتاع حيث لا مكان للمتعة، ويجب ألاّ نرغب بالمتعة!

إذ إن المتعة والبراءة هما أكثر الأشياء خجلاً، فهما لا يريدان أن يُبْحَثَ عنهما، إذ يجب امتلاكهما، بينما يتوجب البحث عن الذنب والمعاناة!



آه، يا أخوتي، إن البِكرُ يُضَحَى به دائماً، ونحن الآن أبكار.

إننا جميعاً ننزف دماءً فوق المذابح السرية، نحن جميعاً نحترق ونشوى على شرف الأصنام القديمة.

والأفضل فينا ما زال شاباً، وهو يزعج السماء العجوز. لحمنا طري، وبشرتنا كبشرة الحمل الصغير، فكيف يمكننا ألا نزعج كهنة الأصنام المسنين!

فينا نحن ما زال يعيش كاهن الأصنام المسن، وهو يشوي أفضل ما فينا لنفسه ليحتفل.

آه، يا أخوتي، كيف يمكن للأبكار ألا يكونوا ضحية!

ولكن هذا ما يريده صنفنا، وأنا أحب الذين لا يرغبون في حفظ أنفسهم. إنني أحب الشهداء بملء قلبي، إذ إنهم ينتقلون إلى الجانب الآخر.



قليلون يمكنهم أن يكونوا صادقين! والذي يستطيع ما زال غير راغب! والطيبون هم أقل القادرين على الصدق.

آه، من هؤلاء الطيبين! فالطيبون لا يقولون الحقيقة أبداً، فطيبة كهذه هي مرض بالنسبة للروح

إنهم يتنازلون، هؤلاء الطيبون، إنهم يرضخون، فقلوبهم تردد ما يُقال لها، وعقلهم يطيع، ولكن الذي يطيع، لا يستمع إلى نفسه!

كل ما يسميه الطيبون شريراً، يجب أن يتحد لتولد حقيقة موحدة. آه، يا أخوتي، هل أنتم أشرار كفاية لتعرفوا هذه الحقيقة؟

الجرأة المقدامة والشك الطويل والرفض القاسي والإشباع وتمزيق الحياة، كم هو نادر اجتماع هذه الأمور سوية، ولكن من بذرة كهذه تولد الحقيقة!

إلى جانب الضمير الملطخ نمت حتى الآن المعرفة كلها! يا أيها الساعون خلف المعرفة، اكسروا.. اكسروا كل الرُقَم العتيقة!



عندما تكون جذوع الأشجار فوق الماء، وعندما تقام الجسور والأسوار فوق النهر، حقاً، لن يصدقوا إذا قال أحدهم: "كل شيء يسبح".

حتى الأغبياء سيعارضونه، "كيف؟ - سيقول الأغبياء - أكل شيء يسبح؟ فالعوارض والأسوار تصل بين ضفتي النهر!".

"فوق النهر كل شيء متين، جميع قيم الأشياء والجسور والمفاهيم وكل "الخير والشر"، كل هذا متين!".

وعندما يأتي الشتاء القارس، مروض الأنهار، عندها يغزو الشك الساخرين، وحقاً، ليس الأغبياء وحدهم يقولون عندها: "أليس كل شيء مستقراً؟"

"في الجوهر كل شيء مستقر" - هذا هو التعليم الحقيقي الذي يلقنه الشتاء، والمناسب للزمن العقيم، عزاء جيد للذاهبين في سبات شتوي والجالسين بجانب المواقد.

"في الجوهر كل شيء مستقر"، ولكن الرياح تعارض هذا القول في فترة ذوبان الثلوج!

إن الرياح في فترة ذوبان الثلوج تكون كالثور، ولكن ليس ثور حرث، بل ثور هائج ومدمر، يحطم الجليد بقرنيه الغاضبين! والجليد يدمر الأسوار!

آه، يا أخوتي، أليس كل شيء سابحاً الآن؟ ألا تتساقط الأسوار والجسور في الماء؟ فمن ذا الذي سيبقى بعد ذلك متمسكاً بـ "الخير والشر"؟

"الويل لنا! الخير لنا! لقد هبت الرياح الدافئة!" - هكذا بشروا، يا أخوتي، في جميع الشوارع!



يوجد جنون قديم، يدعى "الخير والشر"، ودارت عجلة هذا الجنون حتى الآن حول المتنبئين والمنجمين.

في فترة من الماضي كانوا يؤمنون بالمتنبئين والمنجمين، ولهذا كانوا يؤمنون بأن "كل

شيء قدر متوجب عليك، إذ إن هذا ما يجب أن يتم!".

ومن ثم توقفوا ثانية عن تصديق المتنبئين والمنجمين، ولهذا صاروا يؤمنون بأن "كل شيء حرية، وأنت تستطيع لأنك تريد!"

آه، يا أخوتي، فما زالت النجوم والمستقبل حلماً حتى الآن وليس معرفة، ولهذا ما زال الخير والشر حلماً وليس معرفة!

١٠

" يجب عليك ألاّ تنهب! يجب عليك ألاّ تقتل!"، كلمات كهذه سميت في يوم ما بالمقدسة، وأمامها كانت تنحني الركب والرؤوس، وكانوا يقتربون منها منصرفين عن اعتقادهم.

ولكنني أسألكم: متى كان في العالم عدد أكبر من اللصوص والقتلة، مما كان عليه عندما اعتُبرت هذه الكلمات مقدسة؟

أليس في الحياة نفسها سطو وقتل؟ ألا يعني اعتبار هذه الكلمات مقدسة قتل الحقيقة؟

ألم يكن دعوة إلى الموت اعتبار كل ما يعارض الحياة ويُقنِع بقتلها مقدساً؟ آه، يا أخوتي، اكسروا.. اكسروا.. اكسروا الرُقم العتيقة!

١١

إنني آسف على الماضي بكامله، لأنني أرى أنه مُنِحَ للمصير المجهول. ولأنه مُنِحَ لرحمة وروح وجنون كل جيل يسير ويحول كل شيء إلى جسر لنفسه!

ويمكن أن يأتي طاغية عظيم، شيطان شرير، وبرحمته وغضبه سيمارس استبداده على الماضي بكامله، إلى أن يصبح بالنسبة له جسراً وراية وبشيراً وصيحة ديك.

وهناك خطر آخر وأسف آخر لدي، إنه ذاكرة الذين من وسط الحشد، والتي لا تتجاوز الجَدَ، ومع الجَدِ ينتهي الزمن.

وهكذا مُنِحَ الماضي بكامله للاستبداد، إذ يحتمل يوماً أن يصبح الحشد سيداً، وكل زمن سيغرق في ماء ضحل.

ولهذا، يا أخوتي، نحتاج لأرستقراطية جديدة، معارضة لكل ما هو حشد واستبداد، والتي ستكتب فوق رُقُم جديدة كلمة"النبيل".

نحتاج للكثير من النبلاء من مختلف الأجناس، كي تتشكل الأرستقراطية، أو كما قلت مرة بالرموز"إن الألوهية تتلخص في وجود الآلهة وليس الإله".

١٢

آه، يا أخوتي، إنني أُدخِلُكم في الأرستقراطية الجديدة، من خلال إظهاري لكم بأنه عليكم أن تصبحوا خلاقين ومربين وزارعي المستقبل.

- حقاً، ليس إلى الأرستقراطية التي يمكنكم شراؤها كالتجار وبذهب التجار، إذ قليلة هي قيمة كل ما له سعر.

وليشرفكم منذ الآن المكان الذي تقصدونه، وليس المكان الذي أتيتم منه! وليكن شرفكم الجديد منذ الآن في إرادتكم وفي خطواتكم التي تسير أبعد منكم!

حقاً، ليست خدمتكم للأمير، فماذا يعني الأمراء اليوم! وليس كونكم حصناً للشيء المُقَام كي تزيدوا من ثباته! وليس في أن سلالتكم أصبحت من حاشية الملوك وتعلمت كيف تقف كطير الفلامينغو في البرك الضحلة لساعات طويلة مبرقشاً بألوان براقة.

- إن إتقان عملية الوقوف هي من مزايا أفراد الحاشية، وكل أفراد الحاشية يؤمنون، بأن الغبطة بعد الموت تحتوي على الإذن بالجلوس!

كذلك ليس في أن الروح، الذي يدعونه بالقُدُس، قاد أجدادك إلى أرض الميعاد، التي لا أمدحها، إن فيها نمت أسوأ شجرة هي الصليب، ففي أرض كهذه لا مكان للمديح!

- وحقاً، مهما كانت الوجهة التي قاد فيها هذا "الروح القُدُس" فرسانه، كان دائماً يسبقهم التيوس والإوز والمجانين والمخبولين!

آه، يا أخوتي، ليس للوراء يجب أن تنظر أرستقراطيتكم، بل للأمام! يجب أن تكونوا منبوذين من موطن آبائكم!

يجب أن تحبوا موطن أبنائكم، فلتكن هذه المحبة هي أرستقراطيتكم الجديدة، الموطن الذي لم يُكتَشف بعد، والمتواجد في أبعد البحار! فلتبحث ولتبحث عنه سفنكم!

بأولادكم يجب أن تكفروا عن كونكم أبناء لآبائكم، والماضي كله يجب أن تنقذوه بسلوككم هذا السبيل! هذا الرُقُم المقدس الجديد أضعه أمامكم!

١٣

"ما الهدف من الحياة؟ فكل شيء بهرج! العيش يعني طحن القش، العيش يعني حرق النفس ومع ذلك عدم الشعور بالدفء".

ـ هذه الثرثرة القديمة ما زالت تشتهر "كحكمة"، لأنها قديمة وعطنة، ولهذا يزيد احترامهم لها، فحتى العفن بات يُشَرِّف صاحبه.

الأولاد كان يمكنهم قول ذلك، فهم يخافون النار، لأنها حرقتهم! فكتب الحكمة القديمة تحمل الكثير مما هو صبياني.

والذي "يطحن القش" دائماً، بأي حق ينتقص من قدر الطحن! فمن الأجدر ربط أفواه الحمقى من هذا الصنف!

إنهم يجلسون خلف الطاولة ولا يجلبون شيئاً معهم، ولا حتى الجوع السليم، وها هم ينتقصون بكلامهم: "كل شيء بهرج".

ولكن الأكل الجيد والشرب الجيد، يا أخوتي، هو حقاً فن بعيد عن البهرج! اكسروا.. اكسروا.. رُقُم الذين لا يفرحون أبداً.

١٤

"بالنسبة للنقي كل شيء نقي" ـ هكذا يقول الشعب. ولكنني أقول لكم: بالنسبة للخنازير كل شيء يتحول إلى خنزير!

ولهذا فإن شديدي الحماس والمتظاهرين بالتقوى، الذين حتى قلوبهم نكست، يعظون بـ : "العالم نفسه وحش قذر".

إذ إنهم جميعهم ملوثو الروح، وخاصة الذين لا يجدون الهدوء ولا الراحة لأنهم لم يروا العالم من الخلف، هؤلاء الحالمون بالعالم الآخر!

أخاطبهم وأقول في وجوههم، على الرغم من أن ذلك يبدو بذيئاً: إن العالم لا يشبه الإنسان إلا في شيء واحد، وهو أن له قفا أيضاً، ولا شيء غير ذلك!

ـ يوجد في العالم الكثير من القذارة، وهذا صحيح! ولكن هذا لا يجعل من العالم وحشاً قذراً!

توجد حكمة في أن الكثير في العالم له رائحة كريهة، ولكن الاشمئزاز نفسه يخلق الأجنحة والقوى التي تهتدي إلى المصدر!

فحتى في الأفضل يوجد شيء كريه، وحتى أفضل إنسان هو عتبة يجب التفوق عليها!

آه، يا أخوتي، الكثير من الحكمة يتلخص في وجود الكثير من القذارة في العالم!

١٥

لقد سمعت كيف كان المتدينون المتقيدون بأصول دينهم والحالمون بالعالم الآخر يخاطبون ضميرهم، وحقاً، بلا حقد وكذب، مع أنه لا يوجد في العالم شيء أكثر حقداً وكذباً.

"اسمح للعالم بأن يكون عالَماً! ولا ترفع عليه حتى خنصرك!"

"ليفعل، الذي يريد خنق وطعن الناس ونزع جلودهم، ولا ترفع عليه حتى خنصرك!"، هكذا يتعلمون التبرؤ من العالم.

"وعقلك يجب أن تخنقه بنفسك، لأنه عقل هذا العالم"، هكذا تتعلمُ التبرُؤ من العالم.

ـ اكسروا.. اكسروا.. يا أخوتي، هذه الرُقُم العتيقة العائدة للمتدينين! وبددوا كلمات المفترين على العالم!

١٦

"الذي يتعلم كثيراً، يُقلِع عن كل رغبة قوية"، هكذا يهمسون اليوم في كل الشوارع المظلمة.

"الحكمة تُرهِق ولا شيء يَلقى المكافأة، ولا يجب عليك التمني!"، لقد وجدت هذا الرُقُم الجديد معلقاً حتى في الساحات المكشوفة.

اكسروا، يا أخوتي، اكسروا هذا الرُقُم الجديد! لقد علقه المتعبون من العالم ودعاة الموت والسَجَانون. انظروا، إنها دعوة إلى العبودية!

إذ إنهم لم يحسنوا التَعلُّم، وكان ما تعلموه بعيداً عن الأفضل، وتعلموه قبل الأوان، وبسرعة كبيرة، إذ إنهم كانوا يأكلون بطريقة سيئة ولهذا حصلوا على معدة تالفة.

ـ فالمعدة التالفة هي روحهم، إنها تنصح بالموت! حقاً، يا أخوتي، الروح هي المعدة!

الحياة هي منبع الفرح، ولكن الذي تتحدث في داخله المعدة التالفة، أُمُّ الحزن، ذلك تكون جميع الينابيع مسمومة بالنسبة له.

المعرفة هي الفرح بالنسبة للذي لديه إرادة الأسد! في حين أن الذي تعب تحول بنفسه إلى "مادة للإرادة"، فتلعب به جميع الأمواج.

هكذا يحدث دائماً مع الناس الضعفاء، إنهم يتوهون في سبلهم. وأخيراً، يسألهم تعبهم: "لماذا مشينا في الطرقات يوماً؟ فكل شيء متشابه في كل مكان!".

وهم يستمتعون بسماع العظات التي يقولون لهم فيها: "لا شيء يلقى المكافأة! ليس عليكم أن ترغبوا!" ولكن هذه العظة تدعو إلى العبودية.

آه، يا أخوتي، كنفحات ريح منعشة، يأتي زرادشت إلى جميع المتعبين من أسفارهم، وسيدفع أنوفاً كثيرة للعطس!

إن أنفاسي الحرة تخترق الجدران وتدخل السجون والعقول الأسيرة!

"الرغبة والإرادة" تحرر، فإن تريد يعني أن تخلق، هكذا أعلمكم. من أجل الخلق فقط يجب أن تتعلموا!

وحتى التعلم يجب أن تتعلموه عندي، التعلم الجيد! فالذي لديه أذنان فليسمع!

١٧

القارب جاهز، على الضفة الأخرى ربما ستصل إلى اللاشيء العظيم، ولكن من ذا الذي يريد أن يدخل في هذا "الربما"؟

لا أحد منكم يريد ركوب قارب الموت! فكيف تريدون إذاً أن تكونوا مرهقين من العالم!

المتعبون من العالم! أنتم ما زلتم لم تتبرؤوا من الأرض! كنت أجدكم دائماً شهوانيين فيما يتعلق بالأرض، ومغرمين بتعبكم الشخصي من الأرض!

فليس عبثاً تدلي شفتكم، فالرغبة الدنيوية الصغيرة ما زالت جالسة عليها! وفي العين، ألا تسبح غيمة الفرح الأرضي الذي لا يُنسى؟

يوجد على الأرض الكثير من الاختراعات الجيدة، بعضها نافع، وبعضها لذيذ، من أجلها تستحق الأرض المحبة.

وكثيرة هي الاختراعات الجيدة لدرجة أنها تعد كصدر المرأة، مفيدة وممتعة في آن واحد.

وأنتم، أيها المتعبون من العالم والكسالى! أنتم يجب أن تُضربوا بالقضبان! فبضربات القضيب يجب أن نعيد لكم أرجلاً رشيقة.

إذ إنه، إذا لم تكونوا مرضى ولا مخلوقات هرمة فانية تعبت منها الأرض، فأنتم إذاً كسالى ماكرين أو عشاق المتعة، الشرهين والمتجهمين. وإذا لم ترغبوا في الركض المرح من جديد، فعليكم الاختفاء!

يجب ألاّ ترغب في أن تكون طبيباً لتعالج الذين لا علاج لهم، هكذا يُعَلِمُ زرادشت، ولهذا عليكم أن تختفوا!

ولكن ختم القصائد يحتاج لشجاعة ومروءة أكبر مما يحتاجه إكمالها، هذا الأمر يعرفه كل الأطباء والشعراء.



آه، يا أخوتي، توجد رُقُم خلقها التعب، ورُقُم خلقها الكسل العفن، وعلى الرغم من أن حديثهما متشابه، إلا أنهما يريدان أن يُفهَمَا بشكل مختلف.

انظروا إلى هذا الذي أضناه العطش! شبر واحد فقط يفصله عن هدفه، ولكنه من شدة التعب استلقى هنا بعناد في الغبار، هذا الشجاع!

من شدة التعب يتثاءب في وجه الطريق والأرض والهدف ونفسه، ولا يريد أن يتقدم ولا خطوة للأمام، هذا الشجاع!

ها هي الشمس تحرقه، والكلاب تلثم عرقه، ولكنه ما زال مستلقياً هنا في عناده ويفضل المعاناة من شدة العطش.

ـ على بعد شبر من هدفه يعاني من العطش! وحقاً، ستضطرون بعدُ أن تجُروا هذا البطل من شعره إلى السماء!

والأفضل من ذلك أن تتركوه مستلقياً هناك حيث هو، كي يأتيه النوم المعزي، مع ضجيج المطر المنعش.

اتركوه مستلقياً، إلى أن يستيقظ بنفسه، ويتخلى بنفسه عن كل تعب وعن كل ما علمه إياه الكسل الذي في داخله!

ولكن، يا أخوتي، ابعدوا عنه الكلاب والدهاة المتكاسلين وكل الأوباش المثيرين للضجيج.

ـ كل ذلك الحشد من السقط المثير للضجيج "المثقفين"، الذين يتلذذون بطعم عَرَقِ الأبطال!

١٩

إنني أغلق الدوائر من حولي والحدود المقدسة التي يقل تدريجياً صعودها معي إلى الجبال الأكثر علواً، إنني أبني سلسلة من أكثر الجبال قداسة.

ولكن أينما رغبتم في الصعود معي، يا أخوتي، احرصوا على ألا يصعد معكم طفيلي ما!

فالطفيلي هو الدودة الزاحفة واللينة والراغبة في أن تصبح سمينة في أجسام المرضى، في الزوايا الجريحة من قلوبهم.

ويكمن فنه في أنه يكتشف نقاط التعب في الأنفس الصاعدة، إنه يبني عشه المقزز في مصائبكم وانزعاجكم وفي خجلكم الرقيق.

إنه يبني عشه المقزز حيث يكون القوي ضعيفاً، وحيث يكون النبيل حليماً، إن الطفيلي يعيش حيث يكون عند الإنسان زوايا جريحة في قلبه.

أي جنس من بين جميع الأجناس الموجودة هو الأرقى وأيهم الأدنى؟ فجنس الطفيليات هو أدنى الأجناس، ولكن الذي هو الأرقى، يُطعِم دائماً العدد الأكبر من الطفيليات.

إن النفس، التي تمتلك سلماً طويلاً جداً والقادرة على النزول إلى الأعماق، كيف لا يجلس عليها العدد الأكبر من الطفيليات؟

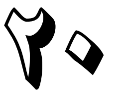
ـ النفس الأكثر اتساعاً، التي يمكنها الركض بعيداً، والتجوال والتقلب في داخلها، الأكثر ضرورة، والتي ترمي نفسها للصدفة في سبيل المتعة.

ـ النفس الحقيقية الموجودة، التي تغوص في التكون، صاحبة مُلك، تريد التغلغل في الإرادة والرغبة.

ـ الهاربة من ذاتها واللاحقة بذاتها بحلقات عريضة، النفس الأكثر حكمة، التي يدعوها الجنون إليه بهدوء.

ـ الأكثر حباً لذاتها، التي تجد فيها جميع الأشياء ارتقاءها وتدنيها، مدها وجزرها.

آه، كيف بالإمكان ألا يوجد في أرفع نفس أسوأ الأنواع من الطفيليات؟



آه، يا أخوتي، هل أنا قاسي؟ ولكنني أقول: إن الذي يسقط ما زال واجباً دفعه!

كل ما هو من اليوم يسقط ويتفسخ، فمن ذا الذي يريد إبقاءه! ولكنني أنا ما زلت أريد دفعه!

هل جربت مرة متعة دفع الصخور إلى الوديان العمودية؟ هؤلاء الناس أبناء اليوم، انظروا إليهم، كيف يتدحرجون إلى أعماقي!

أنا لست سوى معزوفة افتتاحية لأفضل اللاعبين. آه، يا أخوتي! إنني مثال يُقتَدى به، فافعلوا مثلي!

والذي لن تعلموه الطيران، فستعلموه كيف يسرع سقوطه!

٢١

إنني أحب الشجعان، ولكن لا يكفي أن تكون مقاتلاً شجاعاً يستخدم السيف القاطع، عليك كذلك أن تعرف من تقطعه بسيفك!

وغالباً ما تتلخص الشجاعة الأكبر في التماسك والمرور بتجاهل، للحفاظ على الذات، لمواجهة عدو أكثر جدارة!

إن أعداءكم يجب أن يكونوا ممن تكرهونهم وليس ممن تحتقرونهم. ويجب أن تفخروا بعدوكم، هكذا عَلَّمْتُ مرة.

يجب أن تحافظوا على أنفسكم من أجل مواجهة عدو أكثر جدارة، يا أصدقائي، ولهذا يجب عليكم المرور بتجاهل بجانب الكثير من الأمور. وبخاصة بجانب الرعاع الكثر، الذين يصيحون في آذانكم بخصوص الشعب والشعوب.

حافظوا على أعينكم نقية ونظيفة من "مع وضد" الخاص بهم! فهناك الكثير من العدل، والكثير من الظلم، والذي يلقي نظرة إلى هناك يستاء.

إلقاء النظرة والتقطيع، هو أمر يتطلب دقيقة واحدة، ولهذا غادروا إلى الغابات وأعيدوا سيفكم إلى غمده!

سيروا في طريقكم! واسمحوا للشعب والشعوب أن تسير في طريقها! حقاً، عبر طرقات مظلمة غير مضاءة ولا بأمل واحد!

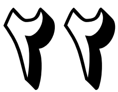
فليحكم التاجر إلى حيث يصل بريق ذهبه! زمن الملوك ولى، والشيء الذي يسمى اليوم شعباً، لا يستحق الملوك.

انظروا، كيف تقلد هذه الشعوب اليوم التجار، إنهم يلتقطون أتفه الأرباح من كل قمامة!

إنهم يتربصون ببعضهم، إنهم يستطلعون عن شيء ما عند بعضهم بعضاً، وهذا ما يدعونه "بالجيرة الطيبة".

آه للزمن المغتبط البعيد، عندما كان الشعب يقول لنفسه: "أريد أن أكون سيداً على الشعوب"!

إذ إنه، يا أخوتي، على الأفضل أن يسود، والأفضل يريد أن يسود! وحيث يكون التعليم مغايراً، هناك لا وجود للأفضل.



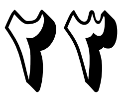
لو أن هؤلاء كانوا يمتلكون الخبز بالمجان، لكن هيهات! فماذا كانت لتكون حجة صياحهم! فتغذيتهم هي الغذاء الرئيسي لأحاديثهم، فليصعب عليهم الحصول عليه!

إنهم حيوانات مفترسة، ففي كلمتهم "العمل"، يُسْمَعُ كذلك السطو، وفي كلمتهم "الكسب" يسمع كذلك الخداع! فليصعب عليهم الحصول عليه!

بهذه الطريقة يجب أن يصبحوا الأفضل من بين الحيوانات المفترسة، أكثر مكراً وأكثر ذكاءً، وأكثر تشبهاً بالإنسان، إذ إن الإنسان هو أفضل حيوان مفترس.

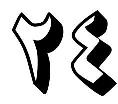
لقد سلب الإنسان جميع الحيوانات فضائلها، ولهذا أصبح صعباً على الإنسان من بين جميع الحيوانات أن يحصل على غذائه.

ما زالت الطيور فقط فوقه، ولو أن الإنسان تعلم الطيران، لوصل جشعه وشراسته إلى حدود نجهلها!



إنني أريد أن أرى رجلاً وامرأة، الرجل قادر على الحرب، والمرأة قادرة على الإنجاب، ولكن كليهما قادران على الرقص برأسيهما وأرجلهما.

وليصبح ضائعاً بالنسبة لنا ذلك اليوم الذي لن نرقص فيه ولا مرة! ولتسمى بالكاذبة كل حقيقة لا تعرف الضحك!



٢٤

وبالنسبة لعقد قرانكم، احرصوا على ألا يكون عقد قرانكم سيئاً! لقد عقدتم القران بتسرع، ومن هنا ينتج خرق القران!

والأفضل خرق القران، من الالتواء والكذب! هكذا قالت لي يوماً المرأة:

"نعم، لقد خرقت القران، ولكن القران دمرني أولاً!"

كنت أجد الأزواج السيئين هم الأشد انتقاماً دائماً، فهم ينتقمون من العالم كله لأنهم لم يعد في مقدورهم السير بمفردهم.

ولهذا أريد أن يقول الصادقون لبعضهم: "نحن نحب بعضنا بعضاً، لنرى، إن كنا نستطيع الاستمرار في محبة بعضنا بعضاً! أو أن اتحادنا سيكون خطأً؟"

"أعطونا مدة وفترة اتحاد قصيرة، لنرى إن كنا نصلح لاتحاد طويل الأمد! إنه لأمر عظيم، التواجد سوية دائماً!"

هذا ما أنصح به جميع الصادقين، فماذا كانت ستكون محبتي للإنسان الخارق ولكل ما يجب أن يأتي، لو أنني نصحت بشيء مغاير!

ليس فقط بالتكاثر، بل وبالرقي للأعلى. آه، يا أخوتي، فليساعدكم بستان الزوجية!

٢٥

فمن وجد حكمته في الأعين القديمة، انظر، ذلك سيبحث في نهاية المطاف عن ينابيع المستقبل وعن أعين جديدة.

آه، يا أخوتي، بعد زمن قصير ستظهر شعوب جديدة، وسيعلو ضجيج هذه الشعوب الجديدة، وسيهبطون إلى أعماق جديدة.

إذ إن الزلزال يردم الكثير من الآبار ويخلق الكثير من العطاشى المعذبين، ولكنه يُخرِجُ للنور القوى والأسرار الداخلية أيضاً.

الزلزال يكشف الينابيع الجديدة، وخلال زعزعة الشعوب القديمة تنبثق ينابيع جديدة.

والذي عندها سيصيح: "انظر، هنا ينبوع موحد للكثير من العطاشى، قلب موحد للكثير من الذين يعانون، وإرادة موحدة لأسلحة كثيرة"، ذاك سيلتف حوله الشعب، أي الكثير من المتفحصين والمجربين.

فمن يتقن إصدار الأوامر، ومن عليه الإطاعة، كل هذا يُختَبر هناك! آه، ويا له من بحث طويل، ونجاح وفشل، ودراسة ومحاولات جديدة!

إن المجتمع البشري هو محاولة، هكذا أُعَلِّم. إنه بحث طويل، ولكنه ما زال ينتظر الآمر!

ـ المحاولة، يا أخوتي! ولكن ليس "الاتفاق"! اكسروا، اكسروا هذه الكلمة الخاصة بالقلوب الوديعة والمترددة والأشخاص الناقصين!

٢٦

آه، يا أخوتي! فيمن يكمن الخطر الأكبر بالنسبة للمستقبل البشري كله؟ أليس في الطيبين والأتقياء؟

ـ أليس في الذين يشعرون بقلوبهم ويقولون: "نحن نعرف ما هو الجيد وما هو التقي، لقد حققنا ذلك، الويل للذين ما زالوا يبحثون هنا!"

ومهما كان الضرر الذي يسببه الأشرار، فإن ضرر الطيبين هو الأكبر!

ومهما كان الضرر الذي تسبب به المفترون للعالم، فإن ضرر الطيبين هو الضرر الأكبر.

آه، يا أخوتي، ففي قلوب الطيبين والأتقياء نشأت عقيدة الذي قال يوماً: "هؤلاء منافقون"، ولكن لم يفهموه.

فالطيبون والأتقياء أنفسهم لم يكونوا ليفهموه، لأن أرواحهم أسيرة عند ضميرهم المرتاح. فغباء الطيبين ذكي بلا حدود.

ولكن إليكم الحقيقة، فالطيبون يجب أن يكونوا منافقين، فليس أمامهم من خيار آخر!

الطيبون يجب أن يَصلبوا الذي يجد لنفسه فضيلته الخاصة! هذه هي الحقيقة!

وكان ثاني من اكتشف بلدهم، بلد وقلب وأرض الطيبين والأتقياء، هو الذي تساءل: "من ذا الذي يكرهونه أشد الكره؟".

إنهم يكرهون الخلاّق أشد الكره، ذاك الذي يكسر الرُقُمَ والقيم العتيقة، المُدَمِرُ الذي يدعونه بالمجرم.

إذ إن الطيبين لا يتقنون الخَلْقَ، فهم دائماً بداية النهاية.

ـ إنهم يصلبون الذي يكتب القيم الجديدة فوق رُقُم جديدة، إنهم يضحون بالمستقبل في سبيل أنفسهم، إنهم يصلبون مستقبل البشرية كله!

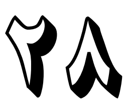
الطيبون كانوا دائماً بداية النهاية.



آه، يا أخوتي، هل فهمتم كذلك هذه الكلمة؟ وما قلته يوماً حول "الإنسان الأخير"؟

فيمن إذاً يكمن الخطر الأكبر بالنسبة لمستقبل البشرية كله؟ أليس في الطيبين والأتقياء؟

حطموا، حطموا الطيبين والأتقياء! آه، يا أخوتي، هل فهمتم هذه الكلمة؟



هل تهربون مني؟ أأنتم خائفون؟ أترتجفون لدى سماعكم هذه الكلمة؟

آه، يا أخوتي، عندما أمرتكم بتحطيم الطيبين وكسر رُقُمِهم، عندها دفعت الإنسان لأول مرة ليسبح في عرض بحره.

والآن فقط صار يأتيه الخوف العظيم، والحذر العظيم، والمرض العظيم، والاشمئزاز العظيم، ودوار البحر العظيم.

الشواطئ الخادعة والأمان الخادع، إليهما أشار الطيبون لكم، لقد وُلِدتم في كذب الطيبين ومحاطون به. فالطيبون شوهوا وحرَّفوا كل شيء حتى أساسه.

ولكن الذي اكتشف أرض "الإنسان"، اكتشف كذلك أرض "المستقبل البشري". والآن أصبح يتوجب عليكم أن تكونوا بحارة شجعان وصبورين. فسيروا باستقامة في الوقت المناسب، يا أخوتي، تعلموا السير باستقامة! البحر هائج والكثيرون بحاجة إليكم لينهضوا من جديد.

البحر يهيج، وكل شيء في البحر. حسناً! إلى الأمام! يا قلوب البحارة الهرمة!

ما شأنكم وموطنكم، إن سفينتنا تسعى إلى موطن أبنائنا! هناك في الفضاء الرحب هيجان أكبر من هيجان البحر، هناك تهيج رغبتنا العظيمة!

٢٩

" لما أنت قاسي بهذا الشكل! ـ قال مرة الفحم العادي للألماس ـ ألسنا نحن قريبان مقربان؟"

لما أنتم لينون بهذا الشكل؟ يا أخوتي، هكذا أسألكم: ألستم أخوتي؟

فلم أنتم لينون بهذا الشكل، ومتنازلون إلى هذا الحد، ولينوا العريكة؟ لما هذا الكم الهائل من الرفض والتبرؤ في قلوبكم؟ وهذا المقدار الضئيل من الحتمية في نظراتكم؟

وإذا رفضتم أن تكونوا حتميين وشديدي الثبات، فكيف يمكنكم عندها أن تنتصروا معي؟

وإذا رفضَتْ صلابتكم اللمعان والقطع والكسر، فكيف يمكنكم عندها أن تَخْلُقوا معي في يوم ما؟

إذ إن الخلاقين أقوياء في عزيمتهم وصلابتهم. ويجب أن يبدو لكم وضع يدكم على الألفيات غبطة، كما تضعونها على الشمع.

ـ الغبطة أن تكتبوا فوق إرادة الألفيات، كما تكتبون على النحاس، وأكثر قساوة ونبلاً مما عليه على النحاس، فالصلابة التامة لا يتمتع بها إلا الأشد نبلاً.

هذا الرُقُمَ الجديد، يا أخوتي، أضعه فوقكم، فكونوا أقوياء العزيمة صلبين!



آه، يا إرادتي! أنت الراحة من كل فقر وعدم، أنت ضرورية عندي! قيني من الانتصارات الحقيرة!

أنت صدفة نفسي، التي أدعوها بالقدر! أنت فيَّ وفوقي! قيني واحفظيني من أجل القدر الموحد العظيم!

واحتفظي بجلالك الأخير، يا إرادتي، حتى النهاية، كي تكوني عديمة الشفقة في انتصارك! آه، من ذا الذي لم يستسلم لانتصاره!

آه، عين من لم تعتم في هذا الغسق الذي يُسْكِرُ! آه، رِجل من لم تتعثر ولم تفقد مقدرتها على الوقوف في الانتصار!

فلأكن مستعداً وناضجاً في ساعة الظهيرة العظيمة، مستعداً وناضجاً كالنحاس المحمى حتى درجة البياض، كالغيمة المشحونة بالبروق، وكالضرع المنفوخ من كثرة الحليب.

ـ مستعد لأجل نفسه ولأجل إرادته المكنونة، كالقوس المولع بسهمه، وكالسهم المولع بنجمته.

ـ كالنجمة المستعدة والناضجة في ساعة ظهيرتها، والمتوهجة والمطعونة والمغتبطة أمام سهام الشمس القاتلة.

ـ كالشمس وإرادتها التي لا تلين، والمستعدة للفناء في النصر!

آه، يا أيتها الإرادة، الراحة من كل شقاء، أنت ضرورتي! احفظيني من أجل نصر موحد عظيم!

هكذا تكلم زرادشت.

المتماثل للشفاء

١

في صباح أحد الأيام، وبعد فترة قصيرة من عودته إلى مغارته، قفز زرادشت من فراشه كالمجنون، وأخذ يصيح بصوت مخيف وهو يلوح بيديه، وكأنه كان مستلقياً في فراشه وغير راغب في النهوض، وجلجل صوت زرادشت بحيث أسرعت إليه حيواناته المرعوبة، وهربت من جميع الجحور والشقوق المجاورة لمغارة زرادشت كل الحيوانات الطائرة والزاحفة والقافزة، حسبما وُهِبت من أرجل وأجنحة. في حين قال زرادشت:

- انهضي أيتها الفكرة التي لا قاع لك، واخرجي من أعماقي! إنني ديكك وغبش الصباح والدودة الغافية، انهضي! فصوتي سيوقظك!

افسخي روابط سمعك، اسمعي! إذ إنني أريد أن أسمَعَكِ! انهضي! انهضي! فهنا ما يكفي من الرعد كي يجبر القبور على الاستماع!

امسحي النوم وكل قِصر نظر وكل إعماء عن عينيكِ! اسمعيني حتى بعينيكِ، فصوتي دواء حتى للعمياء منذ الولادة.

وعندما تستيقظين ستبقين يقظة إلى الأبد. لست أنا الذي أوقظ جدات الوالدين من نومهن، لأقول لهن أن يتابعن النوم!

أنت تتحركين وتتمطين وتبحين؟ انهضي! انهضي! يجب عليك الكلام لا البحة! فالكافر زرادشت يناديك!

أنا زرادشت، المدافِع عن الحياة، والمدافِع عن المعاناة، والمدافِع عن الدائرة. أناديك أنتِ، يا أعمق أفكاري!

لمصلحتي تمشين، وأنا أسمعك! إن لجتي تقول إنني أخرجت آخر عمق لي إلى النور!

لمصلحتي سيري! أعطني يدك. ها! اتركيها! ها، الاشمئزاز! الاشمئزاز! الاشمئزاز، الويل لي!



ولكن ما إن قال زرادشت كلماته تلك، حتى سقط ميتاً وبقي طويلاً كالميت، وعندما عاد إليه وعيه، كان شاحباً، يرتجف، وتابع الاستلقاء وبقي يرفض الطعام والشراب فترة طويلة. استمرت حالته هذه سبعة أيام، ولم تفارقه حيواناته ليلاً ولا نهاراً، وفقط النسر كان يغادر ليجلب الطعام، وكل ما كان يعثر عليه وكل ما استطاع انتزاعه بالقوة، كان يضعه على سرير زرادشت، حتى أصبح زرادشت أخيراً مستلقياً وسط الثمار الصفراء والحمراء والعنب والتفاح الزهري اللون والأعشاب العطرية وأكواز الأرْز، وعند قدميه وُضِعَ حملان سلبهما النسر بصعوبة من الرعاة.

وأخيراً وبعد سبعة أيام، نهض زرادشت من فراشه، وأمسك تفاحة زهرية، وتنشقها ووجد رائحتها شهية، وعندها فكرت الحيوانات في أن الوقت قد حان للتحدث معه.

"آه يا زرادشت ـ قالت له ـ ها قد مرت سبعة أيام وأنت مستلقي بعينين مغمضتين، ألا ترغب النهوض أخيراً؟

اخرج من مغارتك، فالعالم ينتظرك كالبستان، والريح تلعب بشذىً ثقيل يتوق إليك، وكل الجداول تريد أن تجري خلفك.

كل الأشياء تحن إليك، لأنك بقيت منعزلاً ووحيداً لسبعة أيام، اخرج من مغارتك! فكل الأشياء تريد أن تداويك!

فهل نزلت عليك معرفة جديدة مُرَّة وثقيلة؟ فاستلقيت كالعجين الذي صار حامضاً، وارتفعتْ نفسُك وتضخمت حتى خرجت خارج حدودها".

ـ آه، يا حيواناتي ـ أجاب زرادشت ـ تابعوا الثرثرة واسمحوا لي بالاستماع إليكم! تنعشني ثرثرتكم، فحيث تثرثرون هناك ينبسط العالم أمامي كالبستان.

كم يطيب لي وجود الكلمات والأصوات، أليست الكلمات والأصوات أقواس قزح وجسور خيالية، مرمية من فوق كل ما فُرِّقَ إلى الأبد؟

عند كل نفس عالمها الخاص، وبالنسبة لكل نفس كل نفس أخرى هي عالم آخر.

وفقط بين الأشد تشابهاً يكون الشبح أكثر خداعاً، لأنه أكثر ما يصعب رمي الجسر فوق هاوية صغيرة.

بالنسبة لي كيف يمكن أن يوجد شيء ليس موجوداً فيَّ؟ إذ لا يوجد شيء خارجنا! ولكننا ننسى ذلك عند كل صوت، وكم يفرحنا أن ننسى!

ألم تُمنح الأسماء والأصوات للأشياء، كي ينتعش الإنسان بالأشياء؟ إن التكلم جنون رائع، فالإنسان عندما يتكلم يرقص فوق جميع الأشياء.

كم هو ممتع كل حديث وكل كذب من الأصوات! بفضل الأصوات ترقص محبتنا فوق أقواس قزح اللامعة.

"آه، يا زرادشت - ردت الحيوانات على حديثه - بالنسبة للذين يفكرون مثلنا، كل الأشياء ترقص بنفسها، كل شيء يأتي ويمد يده للآخر، ثم يضحك ويهرب ويعود ثانية.

كل شيء يسير، كل شيء يعود، ودائماً تدور عجلة الوجود. كل شيء يموت، كل شيء يزدهر من جديد، ودائماً تركض سُنَةُ الوجود.

كل شيء يفنى، وكل شيء ينتظم من جديد، أبداً يبني بيت الوجود ذاته. كل شيء يفترق، كل شيء يرحب ببعضه بعضاً من جديد، دائماً تبقى عجلة الوجود وفية لنفسها.

في كل لحظة يبدأ الوجود، وحول كل "هنا" يدور "هناك"، إن المركز في كل مكان، والخط المنحني هو درب الخلود".

آه، أنتم أيها العابثون والمثيرون للملل! - رد زرادشت وابتسم من جديد - إنكم تعرفون جيداً ما كان يجب أن يتحقق في سبعة أيام.

- وكذلك الوحش الذي زحف إلى حلقي وأخذ يخنقني! ولكنني قضمت له رأسه وبصقته بعيداً عني.

وأنتم ألَّفتم من ذلك أغنية للشارع؟ في حين أنني أستلقي هنا مرهقاً من هذا القضم والبصق، وما زلت مريضاً من خلاصي الذاتي .

أكنتم تشاهدون كل ذلك؟ آه، يا حيواناتي، هل يعقل أنكم قساة أيضاً؟ أيعقل أنكم تريدون النظر إلى معاناتي العظيمة كما يفعل الناس؟ إذ إن الإنسان هو الأقسى من بين جميع الحيوانات.

فخلال المآسي وصراع الثيران والصَلب كان الإنسان حتى الآن يشعر نفسه بأحسن حال فوق الأرض، وعندما وجد لنفسه جحيماً، تحول الجحيم إلي سمائه على الأرض.

عندما يصيح الإنسان الكبير، يأتيه فوراً الإنسان الصغير مهرولاً، ولسانه يتدلى من فمه من شدة المتعة، ولكنه يسمي ذلك "برأفته الذاتية".

الإنسان الصغير، ولاسيما الشاعر، بأي حرارة يلقي اللوم على الحياة في كلماته! استمعوا إليه ولكن لا تفوتوا الفرح في جميع شكاويه".

هؤلاء هم مُتَّهِمو الحياة، هؤلاء تغلبهم الحياة في لحظة واحدة. "هل تحبني؟ - تقول الجسورة - انتظري قليلاً، ما زال ينقصني الوقت لك".

إن الإنسان بالنسبة لنفسه هو الحيوان الأشد قسوة، وفي كل مما يُدْعى "الآثم" و"حامل الصليب" و"التائب"، لا تُفوِّت الفرح المخلوط بهذه الشكاوى والتهم!

وأنا نفسي ألست أريد أن أكون مُتَّهِمَ الإنسان؟ آه، يا حيواناتي، لقد تعلمت شيئاً واحداً حتى الآن، أن الإنسان بحاجة للأكثر شراً لديه من أجل ما هو الأفضل لديه.

- وأن كل ما هو الأشد شراً هو قوَّته الأفضل والحجر الأقسى من أجل البناء الأعلى، وأن الإنسان يجب أن يصبح أفضل وأكثر غضباً.

لقد سُمِّرتُ إلى شجرة العذاب ليس لأنني أعرف أن الإنسان شرس حقود، وإنما لأنني صرخت كما لم يصرخ أحد من قبل.

"آه، إن الأشد شراسة وحقداً في الإنسان هو حقير للغاية! وأفضل ما فيه حقير للغاية كذلك!"

الاشمئزاز العظيم من الإنسان كان يخنقني وزحف إلى حلقي، ولقد تنبأ المتنبئ: "في جميع الأحوال، لا شيء يلقى المكافأة، والمعرفة تخنق".

الغسق الطويل امتد أمامي، والحزن التعب حتى الموت والثمل والذي كان يقول وهو يتثاءب بملء فمه.

"دائماً وأبداً يعود الإنسان الذي تعبتَ منه، ذلك الإنسان الصغير"- هكذا قال حزني وهو يتثاءب ويتمطى ولم يستطع النوم.

لقد تحولت أرض الإنسان إلى مغارة بالنسبة لي، فقد غار صدرها، وكل ما هو حي صار بالنسبة لي عفونة بشرية وعظاماً وحطاماً للماضي.

إن تنهيداتي جلست فوق جميع القبور البشرية وعجزت عن النهوض، إن تنهيداتي وأسئلتي أخذت تصيح وتغص وتقضم وتشتكي ليلاً نهاراً: "آه، إن الإنسان يعود دائماً وأبداً! الإنسان الصغير يعود دوماً!"

عاريين رأيتهما مرة، أكبر إنسان وأصغر إنسان، إنهما يشبهان بعضهما الآخر كثيراً، فما زال أكبر إنسان إنساناً جداً!

صغير جداً أكبر إنسان! هكذا كان احتقاري للإنسان! والعودة الخالدة لأصغر إنسان! هكذا كان اشمئزازي من كل وجود!

آه، الاشمئزاز! الاشمئزاز! الاشمئزاز! ـ هكذا تحدث زرادشت، وهو يتنهد ويرتجف، لأنه تذكر مرضه، وهنا منعته حيواناته من أن يتابع.

"توقف عن الكلام، أيها المتماثل للشفاء! ـ هكذا ردت عليه حيواناته ـ اذهب من هنا، اذهب إلى حيث العالم بانتظارك، العالم الشبيه بالبستان.

اذهب إلى الورد الجوري، إلى الحزن وأسراب الحمام! وبخاصة إلى الطيور المغردة كي تتعلم منها الغناء!

إذ إن الغناء يميز المتماثلين للشفاء، أما السليم فليتكلم. وحتى لو أراد السليم الأغاني، فإنه يريد أغاني مختلفة عن التي يريدها المتماثل للشفاء.

ـ آه، أنتم يا أيها العابثون والمثيرون للملل، اصمتوا! ـ أجاب زرادشت وضحك من حديث حيواناته ـ تعلمون جيداً أي سلوى وجدتها لنفسي في هذه الأيام السبعة!

يجب أن أعود للغناء ثانية، هذا العزاء وهذا الشفاء وجدته لنفسي، فهل تريدون أن تصنعوا من هذا أيضاً أغنية شارع مباشرة؟

"توقف عن الكلام ـ ردت عليه حيواناته للمرة الثانية ـ الأفضل، يا أيها المتماثل للشفاء، أن تصنع لنفسك قيثارة جديدة! لأنك ترى، يا زرادشت! أن أغانيك الجديدة بحاجة لقيثارة جديدة.

غَنِّ وأثر الضجيج، يا زرادشت، عالج نفسك بأغاني جديدة، كي يكون بمقدورك حمل قدرك العظيم، الذي لم يكن بعد قدراً لأي إنسان!

إذ إن حيواناتك تعرف جيداً، يا زرادشت، من أنت ومن يجب أن تصبح. فانظر، أنت مُعلم العودة الخالدة، وهذه هي رسالتك الآن!

عليك أن تكون السباق للإعلان عن هذا التعليم، فكيف لا يكون هذا القدر العظيم خطَراً عظيماً عليك ومرضاً!

انظر، نحن نعرف، ماذا تُعَلِّم، إن جميع الأشياء تعود دائماً ونحن نعود معها، وأننا سبق أن وُجِدنا عدداً لا متناهياً من المرات وجميع الأشياء معنا.

أنت تُعَلِّم حول وجود سَنَة التكون العظيمة، سَنَة عظيمة عظمةً رهيبة، وعليها كالساعة الرملية أن تُقلب من جديد بصورة دائمة، كي تجري مجدداً وتعود فارغة من جديد.

- ولهذا فإن كل هذه السنوات تشبه بعضها بعضاً، في الكبير والصغير، ولهذا فنحن أيضاً في كل سنة عظيمة نشبه أنفسنا في الكبير والصغير.

ولو أنك أردت أن تموت الآن، يا زرادشت، فنحن نعرف ماذا كنت ستقول لنفسك عندها، ولكن حيواناتك ترجوك ألا تموت الآن.

لتحدثت بلا خوف، متنهداً عدة مرات من الغبطة، لأن الثقل العظيم والكآبة كانا سيزولان عنك، أنت الأشد صبراً!

"الآن أنا أموت وأختفي - كنت لتقول - وبعد لحظة سأصبح لا شيء. فالأنفس فانية كالأجسام.

ولكن علاقة السببية، التي شُبِكْتُ فيها، ستعود ثانية، وستخلقني ثانية مجدداً! أنا نفسي أنتمي إلى أسباب العودة الخالدة.

إنني أعود من جديد مع هذه الشمس، ومع هذه الأرض، ومع هذا النسر، ومع هذه الأفعى، ليس إلى الحياة الجديدة، وليس إلى الحياة الأفضل، وليس إلى الحياة التي تشبه سابقتها.

- سأبقى أعود أبداً إلى الحياة ذاتها، في كبيرها وصغيرها، كي أُعَلِّمَ من جديد حول العودة الخالدة لجميع الأشياء.

- كي أعيد تكرار الكلمة حول ساعة الظهيرة العظيمة للأرض والإنسان، كي أبشر الناس من جديد بمجيء الإنسان الخارق.

لقد قلت كلمتي، إنني أتحطم فوق كلمتي، هذا ما يريده قدري الخالد، أن ألقى كالبشر حتفي!

لقد أتت الساعة التي يبارك فيها الراقد على فراش الموت نفسه. هكذا ينتهي غروب زرادشت".

وصمتت الحيوانات بعد أن قالت كلمتها وجلست تنتظر، أن يقول لها زرادشت شيئاً، ولكن زرادشت لم يسمع كيف صمتت الحيوانات. فقد كان مستلقياً بهدوء، بعينين مغمضتين، كالنائم، رغم أنه لم يكن نائماً، إذ إنه كان يتحدث في تلك الأثناء مع نفسه. ولما رأته الأفعى والنسر صامتاً، احترما الصمت العظيم من حوله وغادرا بحذر.

المعاناة العظيمة

آه، يا نفسي، لقد علـَّمتك التكلم "اليوم" كما لم أعلـِّمك "أبداً وسابقاً"، وكيف تقود حلقات الرقص والغناء فوق كل شيء "هنا وهناك وإلى هناك".

آه، يا نفسي، لقد خلصتك من كل الأزقة، لقد أبعدت عنك الغبار والعناكب والغسق.

آه، يا نفسي، قد غسلت عنكِ الخجل الصغير وفضيلة الأزقة وأقنعتك بالوقوف عارية أمام ناظري الشمس.

بالعاصفة المدعوة "بالروح" نفختُ على بحرك القلق، وطردت جميع الغيوم من هناك، ولقد خنقت حتى الخانق المدعو "الإثم".

آه، يا نفسي، لقد أعطيتك الحق في قول كلمة "لا" كالعاصفة، وقول كلمة "نعم" كما تقول "نعم" السماء المكشوفة، أنت الآن هادئة كالضوء وتخترقين بهدوء عواصف الرفض.

آه، يا نفسي، لقد أعدت إليك حريتك على المخلوق وغير المخلوق، ومن يدري، كيف تَعْرفين فرح المستقبل؟

آه، يا نفسي، لقد علمتك الاحتقار، ولكن ليس ذاك الذي يأتي كالثقب الدودي، بل الاحتقار العظيم المُحِب، الذي أكثر ما يحبونه حين يصل إلى حدوده القصوى.

آه، يا نفسي، لقد علمتك كيف تـُقنعين، وكيف تجذبين إليك الأسس الأساسية، كالشمس التي تُقنع البحر ليصعد إلى علوها.

آه، يا نفسي، لقد نزعت عنك كل طاعة وركوع وذل وخنوع، وأعطيتك الأسماء بنفسي أنت "الراحة من الفقر المدقع" و"القدر".

آه، يا نفسي، لقد أعطيتك أسماء جديدة وألعاباً ملونة، وسميتك "القدر" و"الفضاء الأعظم" و"سُرَة الزمن" و"الناقوس السماوي".

آه، يا نفسي، لقد سمحت لتربتك أن تتشرب الحكمة كلها، كل الخمور الجديدة وكل الخمور العتيقة، خمور الحكمة المركزة.

آه، يا نفسي، لقد سكبت عليك كل شمس وكل عتمة وكل صمت وكل معاناة، وكنت تكبرين أمامي كدالية عنب.

آه، يا نفسي، إنك تقفين الآن وفيرة ثقيلة، كدالية عنب بحلماتها المنتفخة وعناقيدها بلون الذهب الغامق.

ـ محرجة وممتلئة بسعادتها، في انتظار الوفرة، وخجلة من انتظارها.

آه، يا نفسي، لا يوجد الآن في أي مكان نفس أكثر محبة وأكثر اتساعاً وأكثر رحابة! وأين يمكن للمستقبل والماضي أن يكونا أقرب من بعضهما بعضاً، أكثر مما هما عليه عندك؟

آه، يا نفسي، لقد أعطيتك كل شيء، وفرغت يداي بسببك، والآن تقولين لي مبتسمة ومليئة بالحنين: "من منا يجب أن يشكر الآخر؟

ـ هل يجب أن يشكر المانح الآخذ، لأن الأخير أخذ منه، أليس في ذلك حاجة؟ أليس الأخذ رأفة؟"

آه، يا نفسي، إنني أفهم ابتسامة حنينك "فغناكِ الفاحش يمد يديه بنفسه بحنين!

ولسانك يرمي نظراته إلى البحر الهائج، ويبحث وينتظر، حنين من شدة الوفرة ينظر من السماء الضاحكة لعينيك!

وحقاً، يا نفسي! من ذا الذي يقدر على النظر إلى ابتسامتك دون أن يذرف الدمع؟ فالملائكة نفسها تذرف الدموع من شدة الطيبة في ابتسامتك.

إن طيبتك مفرطة، ولا تريد الشكوى والبكاء، ومع ذلك يا نفسي، فإن ابتسامتك تريد الدموع، وثغرك المرتجف يطلب النحيب.

"أليس كل بكاء شكوى؟ وكل شكوى اتهام؟" هكذا تقولين لنفسك ولهذا تريدين، يا نفسي، أن تبتسمي، فذلك أفضل من ذرف معاناتك بالدموع .

ـ أن تصبي معاناتك في سيول الدمع، بسبب وفرتك وحاجة كرمة العنب إلى زارع الكروم وسكينته!

ولكن إذا كنت لا ترغبين في البكاء وفي التفريج عن كآبتك الأرجوانية بالبكاء، فعليك إذاً بالغناء، يا نفسي! انظري، أنا نفسي أبتسم مقترحاً عليك الغناء.

ـ الغناء بصوت عالٍ، إلى أن تهدأ جميع البحار، لتستمع إلى معاناتك.

ـ إلى أن يبحر قارب ذهبي فوق البحار الهادئة الحزينة، تلك الأعجوبة الذهبية التي تدور حول ذهبها جميع الأشياء الجيدة والسيئة والمدهشة.

ـ والكثير من الحيوانات الكبيرة والصغيرة وكل ما له أرجل خفيفة مدهشة، لتركض عبر الدروب الزرقاء.

ـ إلى حيث الأعجوبة الذهبية، إلى القارب الحر وسيده، ولكنه زارع العنب، المنتظر مع سكينته الألماسية.

ـ مخلصك العظيم، يا نفسي، الذي لا اسم له، والذي ستجد له أغنيات المستقبل اسماً لأول مرة! وحقاً، إن أنفاسك تنشر عطر أغاني المستقبل.

ـ لقد بدأت تتوهجين وتحلمين، وبدأت تشربين بنهم من آبارك العميقة الرنانة المواسية، وحنينك بدأ يرتاح في غبطة أغاني المستقبل!

آه، يا نفسي، لقد أعطيتك كل شيء الآن وحتى آخر ما لدي، وفرغت يداي بسببك، فقد كانت هبتي الأخيرة تتلخص في أنني أمرتك بالغناء!

لأجل أمري لك بالغناء، قولي، قولي: من منا يجب أن يشكر الآخر الآن؟ ولكن الأفضل من ذلك غني لي، غني يا نفسي! واتركي لي واجب الشكر!

هكذا تكلم زرادشت.

أنشودة راقصة أخرى

١

لقد نظرت منذ فترة في عينيك، أيتها الحياة، وكان الذهب يلمع في عينيك القاتمتين كالليل، فتوقف قلبي أمام هذا النعيم.

- إنسان ذهبي كان يلمع فوق المياه الليلية، يغوص ويطفو ويدعو إليه، هذا الإنسان الذهبي المتأرجح!

كنت تنظرين إلى رِجلي الراغبة بالرقص بشدة، بنظرة ضاحكة ومتسائلة ومُذيبة، تلك النظرة المتأرجحة.

لم تلمسي خلخالك إلا مرتين بيديك الصغيرتين، وها قد تأرجحت رجلي في رغبة عارمة بالرقص.

وصار عقباي يرتفعان، وأصابع قدمَيَّ يستمعان ليفهماكِ، لأن أذنا الراقص في أصابع قدميه!

إليك قفزتُ فتراجعتِ عن قفزتي، في وجهي صفرت ثعابين شعرك المتناثر!

فقفزتُ مبتعداً عنك وعن ثعابينك، وها قد وقفتِ في نصف استدارة، بعينين تمتلئان رغبة.

بنظرات شزرة، تعلِّمينني الدروب العوجاء، وفوق الدروب العوجاء تتعلم رِجلي المكر!

إنني أخشاك قريبة مني، وأحبك بعيدة عني، وهروبك يستدرجني، وبحثك يوقفني، إنني أعاني، ولكنني على استعداد لتحمل أي شيء من أجلك!

بَرْدُ من يُلْهِبُ، وكراهية من تُغري، وهروب من يُقَيِد، وسخرية من تُقْلِق؟

ـ من ذا الذي يمكنه أن يكرهك، أنتِ أيتها العظيمة والواصلة والشابكة والغاوية والباحثة والواجدة! من ذا الذي يمكنه ألا يحبك، أنت أيتها البريئة والمتلهفة والآثمة والمندفعة بعيني طفل!

إلى أين تجذبينني الآن، يا أعجوبتي العصية على اللّجم؟ وها أنتِ تهربين مني ثانية، حبيبةً وحشيةً لعوبة وناكرة للجميل!

إنني أرقص وأنا أتتبع آثارك. أين أنت؟ أعطني يدك! أو حتى على الأقل إصبعكِ!

هنا مغاور وأدغال، سنتوه! قفي! انتظري! ألا ترين كيف يَطل البوم والخفافيش؟

أنت بومة! أنت خفاشة! هل تريدين إغاظتي؟ أين نحن؟ عند الذئاب تعلمتِ العواء بهذا الشكل.

إنك تكشرين عن أسنانك البيضاء بلطف في وجهي، وعيناك الحاقدتان تلمعان غضباً وهما تنظران إلي من تحت ضفائر شعرك!

يا لهذه الرقصة فوق الجذامير والحجارة! أنا صياد، أتريدين أن تكوني ذئبة أم غزالاً عندي؟

والآن تعالي إلي! وبسرعة، أيتها القافزة الشريرة! إلى الأعلى! إلى ذاك الجانب! الويل! لقد وقعت وأنا أقفز!

- انظري كيف وقعت على طولي! انظري، أيتها الجسورة، كيف أرجوك الرحمة! كنت لأذهب معك بسرور عبر دروب أكثر وداعة!

- عبر دروب الحب بجانب الحشائش الصامتة المرقشة! أو هناك فوق شاطئ البحيرة، حيث تسبح وترقص الأسماك الذهبية!

هل تعبتِ الآن؟ انظري، على الجانب الآخر أغنام وشفق المساء، أليس النوم تحت أصوات مزمار الراعي أعجوبة؟

هل تعبتِ كثيراً؟ سأحملك إلى هناك، انزلي يديك فقط! وإذا كنت تشعرين بالعطش، لكنت وجدت ما أسقيك إياه، ولكنك لا تريدين أن تشربيه!

- آه، هذه الأفعى الملعونة، هذه الساحرة السريعة الرشيقة! أين اختفيت! ولكنني أشعر فوق وجهي ببقعتين حمراوين من يدك!

حقاً، لقد تعبت من كوني راعي غنمك الدائم! من أجلك، أيتها الساحرة، كنت أغني حتى الآن، والآن بات عليك أن تصرخي من أجلي!

على إيقاع سوطي عليك الآن الرقص والصراخ! لم أنسَ أمر السوط؟ لا!"



فردت علي الحياة وسدت أذنيها الأنيقتين:

"آه، يا زرادشت! لا تفرقع بسوطك بهذا الشكل الرهيب! فأنت تعرف أن الضجيج يقتل الأفكار، وقد حَضَرَتني الآن أفكار في غاية الرقة.

نحن الاثنان لا نصلح للخير والشر. فعلى الجانب الآخر من الخير والشر وجدنا جزيرتنا ومرجنا الأخضر، نحن وحدنا، نحن الاثنان! وهذا الأمر كافٍ لنحب بعضنا بعضاً!

وإذا كنا لا نحب أحدنا الآخر من أعماق قلبنا، فهل يجب الغضب، من أنك لا تحب من أعماق قلبك؟

أما أنني أحبكَ وغالباً ما أحبك بشدة، وأنت تعرف ذلك، ولدي سبب لأغار عليك من حكمتك. آه، هذه الحكمة العجوز المجنونة!

وإذا هربت حكمتك منك يوماً، آه! عندها ستهرب محبتي لك بنفس السرعة منك".

وهنا تلفتت الحياة من حولها مهمومة وقالت: "آه، يا زرادشت، أنت لست وفياً كفاية لي! إنك لا تحبني بالقوة التي تتحدث عنها، وأنا أعرف أنك تفكر بهجري قريباً.

يوجد ناقوس مزمجر وعتيق للغاية، إنه يزمجر في الليل فيصل صوته إلى مغارتك، وعندما تسمع كيف يدق هذا الناقوس ساعة منتصف الليل، فإنك تفكر بين الواحدة والثانية عشرة حول كيفية مغادرتك لي قريباً! آه، إنني أعرف ذلك يا زرادشت"

"نعم - أجبتها متردداً - ولكنك تعلمين كذلك" وهمست لها بشيء في أذنها مباشرة وفي ضفائر شعرها الذهبي الأشعث المجنون.

"أتعرف ذلك يا زرادشت؟ هذا لا يعرفه أحد"

ونظرنا إلى بعضنا بعضاً ورمينا نظراتنا إلى المرج الأخضر، الذي ركضت فوقه للتو برودة المساء، وبكينا كلينا. وفي تلك المرة كانت الحياة بالنسبة لي أكثر لطفاً وجمالاً من حكمتي كلها.

هكذا تكلم زرادشت.



واحد!

يا صديقي، تفطّن!

اثنان!

ماذا يقول منتصف الليل؟ أصغي!

ثلاثة!

كان النوم طويلاً

أربعة!

النوم العميق زال

خمسة!

العالم عُمقٌ

ستة!

هذا العمق بالكاد مرئي للنهار

سبعة!

حزن العالم هذا العمق

ثمانية!

لكن الفرح أعمق منه

تسعة!

الحياة تطرد ظل الحزن!

عشرة!

أما الفرح فيندفع إلى اليوم الخالد

أحد عشر!

إلى اليوم المنتظر الأبدي!

اثنا عشر!

الأختام السبعة
أو أنشودة حول "نعم وآمين"

١

إذا كنت متنبئاً وممتلئاً بروح التنبؤ، الذي يحوم فوق الصخرة العالية بين البحرين، يحوم بين الماضي والمستقبل، كغيمة ثقيلة، معادي للوهاد الخانقة ولكل ما تعب ولا يستطيع أن يموت أو يحيا، مستعداً للبرق في الصدر المظلم ولشعاع النور المُخَلِّص، المشحون بالبرق، الذي يقول "نعم" ويضحك، مستعداً للأشعة التنبئية الخاطفة كوميض البرق.

- ولكنه مغتبط، المشحون هكذا! وحقاً، إن الذي يجب أن يشعل يوماً نور المستقبل، يجب أن يُعَلَقَ طويلاً، كالغيمة الثقيلة، فوق قمة الصخرة!

آه، كيف لي ألاّ أسعى بشغف إلى الأبدية وإلى خاتم القران، خاتم الخواتم، خاتم العودة!

لم أصادف يوماً امرأة أردت أن تنجب لي أولادي، سوى تلك المرأة التي أحب، إذ إنني أحبك أنتِ أيتها الأبدية!

فأنا أحبك أنتِ، أيتها الأبدية!



إذا كان غضبي في يوم ما يدمر القبور، ويزيح الأعمدة الحدودية ويدحرج الرُقُم القديمة المكسورة إلى الهاوية العمودية.

وإذا كانت سخريتي يوماً تنفض الكلمات البالية كالغبار، وكنت آتي كالمكنسة على العناكب حاملي الصلبان، وكالريح المطهرة على الهياكل العظمية العتيقة الخانقة.

وإذا جلست يوماً مهللاً، في المكان الذي دفنت فيه الآلهة القديمة، مباركاً العالم، محباً العالم، بجانب تماثيل المفترين القديمين على العالم.

- إذ إنني أحب كنائس وقبور الرب، حتى عندما تنظر السماء بنظراتها الصافية عبر قببهم المهدمة، إنني أحب الجلوس فوق الكنائس المدمَرة، كالعشب والخشخاش الأحمر.

آه، كيف لي أن لا أسعى بحماس نحو الأبدية ونحو خاتم الخواتم، خاتم القران، خاتم العودة!

لم أقابل يوماً امرأة، أردت أن تنجب لي أطفالي، باستثناء تلك المرأة التي أحب، إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأبدية!

إنني أحبك أنت أيتها الأزلية!



إذ كان النَفَس في زمن من الماضي ينزل علي من التنفس الإبداعي ومن تلك الضرورة السماوية، التي تجبر حتى الصُدف على إقامة حلقات الرقص النجومية.

وإذا كنت في زمن من الماضي أضحك ضحكة البرق الخلاّق، الذي يتلوه مدوياً خاضعاً، رعد طويل من الأفعال.

وإذا كنت في زمن من الماضي أجلس خلف طاولة الأرض الإلهية وألعب النرد مع الآلهة، بحيث كانت الأرض ترتجف وتتصدع وتنبعث أنهار النار.

- إذ إن الأرض هي الطاولة الإلهية المرتجفة من كلمات الإبداع الجديدة ومن ضجيج كعاب النرد.

آه، كيف لي ألاّ أسعى بحماس نحو الأبدية ونحو خاتم الخواتم، خاتم القران، خاتم العودة!

لم أقابل يوماً امرأة، أردت أن تنجب لي أطفالي، باستثناء تلك المرأة التي أحب، إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأبدية!

إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأزلية!



إذا كنت في زمن من الماضي أرتشف برشفة واحدة كوباً مزبداً فيه خليط عَطِر، حيث اختلطت جميع الأشياء جيداً.

وإذا كانت يدي في زمن من الماضي تسكب الأكثر بعداً في الأكثر قرباً، فتسكب النار في الروح، والفرح في المعاناة، والأشد سوءاً في الأفضل.

وإذا كنت أنا نفسي ذرة من ذلك الملح المُخَلِص، الذي يجبر جميع الأشياء على الاختلاط جيداً في كأس للخليط.

- إذ إنه يوجد ملح يصل بين الخير والشر، وحتى الأشد شراً يستحق أن يكون تابلاً ويرغي في الكوب.

آه، كيف لي ألا أسعى بحماس نحو الأبدية ونحو خاتم الخواتم، خاتم القران، خاتم العودة!

لم أقابل يوماً امرأة، أردت أن تنجب لي أطفالي، باستثناء تلك المرأة التي أحب، إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأبدية!

إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأزلية!



إذا كنت أحب البحر وكل ما يشبه البحر، وأكثر ما أحبه عندما يعارضني بغضب.

وإذا كان فيَّ فرح الباحث، الذي يحث السفينة إلى ما لم يكتشف بعد، وإذا كان في فرحي فرح البَحَّار.

وإذا صاح ابتهاجي يوماً: "غاب الشاطئ، الآن سقطت عني آخر القيود.

- اللامحدودية تضج من حولي، وبعيداً عني يلمع الفضاء والزمن، حسناً! إلى الأمام! أيها القلب العجوز!".

آه، كيف لي ألا أسعى بحماس نحو الأبدية ونحو خاتم الخواتم، خاتم القران، خاتم العودة!

لم أقابل يوماً امرأة، أردت أن تنجب لي أطفالي، باستثناء تلك المرأة التي أحب، إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأبدية!

إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأزلية!



وإذا كانت فضيلتي هي فضيلة الراقص، وكثيراً ما قفزت برجلَيَّ الاثنتين إلى الابتهاج الذهبي الزمردي.

وإذا كان حقدي حقد الضاحك، الحقد الذي يعيش تحت شجرة ورد جوري وتحت سياج من الزنابق.

- إذ إنه في الضحك كل ما هو شرير جُمِعَ سوية، ولكن يُعرَف بالمقدَس ومبرر بغبطته الذاتية.

وإذا كانت بدايتي ونهايتي "ألفي ويائي"، في أن يصبح كل ثقيل خفيفاً، وكل جسد راقصاً، وكل روح طائراً، فحقاً في ذلك بدايتي ونهايتي!

آه، كيف لي ألا أسعى بحماس نحو الأبدية ونحو خاتم الخواتم، خاتم القران، خاتم العودة!

لم أقابل يوماً امرأة، أردت أن تنجب لي أطفالي، باستثناء تلك المرأة التي أحب، إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأبدية!

إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأزلية!



إذا كنت في زمن من الماضي أبسط السموات من فوقي وأحلق بجناحي في سماواتي الخاصة.

وإذا كنت أسبح وأنا ألعب في البعد العميق النيّر، وكان يأتي طائر حكمتي وحريتي.

- إذ إن طائر الحكمة يقول: "اعلم، لا وجود للأعلى ولا للأسفل! ألقي بنفسك في كل مكان، إلى الأعلى وإلى الأسفل، فأنت حر من الثقل! غنِ! توقف عن الكلام!

- ألم تخلق جميع الكلمات من أجل الواقعين تحت تأثير الثقل؟ ألا تكذب جميع الكلمات على الذي هو حر من الثقل؟ غنِ! توقف عن الكلام!".

آه، كيف لي ألا أسعى بحماس نحو الأبدية ونحو خاتم الخواتم، خاتم القران، خاتم العودة!

لم أقابل يوماً امرأة، أردت أن تنجب لي أطفالي، باستثناء تلك المرأة التي أحب، إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأبدية!

إذ إنني أحبك أنت، أيتها الأزلية!

الجزء الرابع والأخير

ـ آه، في أي مكان في العالم

تم ارتكاب جنون يفوق الجنون هنا،

إنه بلا شك تم وسط الرؤوفين؟

وما الذي سبب معاناة أكبر في العالم،

مما سببه جنون الرؤوفين؟

ـ الويل لكل المحبين،

الذين لم يعد لديهم قمة تعلو على رأفتهم!

ـ هكذا قال لي العفريت يوماً: "حتى الرب لديه جحيمه، إنه محبته للناس".

ـ وقد سمعت مؤخراً، كيف قال العفريت: "الرب مات، من جراء رأفته بالناس مات الرب".

"زرادشت، الجزء الثاني"

أضحية العسل

من جديد عادت الشهور والسنون تجري فوق نفس زرادشت، ولم يكن يلحظها، ولكن شعره شاب. ومرة، وفيما كان جالساً فوق حجر أمام مغارته وهو ينظر بصمت للبعيد، وكان النظر من هذا الموقع ينزلق فوق البحر إلى البعيد، من فوق اللجج المتصاعدة الزاخرة، وكانت حيواناته تتمشى من حوله مهمومة، وأخيراً توقفت أمامه.

"يا زرادشت ـ قالت الحيوانات ـ هل تستكشف سعادتك؟"

ـ "لا شأن لي بالسعادة ـ أجاب زرادشت ـ فقد توقفت منذ زمن بعيد عن السعي وراء السعادة، إنني أسعى وراء عملي وواجبي".

ـ "يا زرادشت ـ قالت الحيوانات من جديد ـ إنك تقول هذا، كالذي تشبع بالخير. ألست مستلقياً في بحيرة السعادة اللا زوردية؟"

ـ أيها الماكرون ـ رد زرادشت مبتسماً ـ قد اخترتم المقارنة بنجاح! ولكنكم تعرفون كذلك، أن سعادتي ثقيلة ولا تشبه الموجة المتحركة. إنها تثقل علي وتتوقف عن ملاحقتي، فقد التصقت بي كالتصاق القطران المذوب".

وعندها استمرت الحيوانات بالتحرك حول زرادشت وهي غارقة في التفكير ومن ثمّ توقفت أمامه مجدداً. "يا زرادشت ـ قالت الحيوانات ـ هذا هو السبب إذاً في تزايد اصفرار لونك وقتامته، على الرغم من أن شعرك يبدو شائباً بلون الكتان؟ انظر إنك جالس وسط قطرانك!

ـ "ما الذي تقولونه ـ يا حيواناتي ـ قال زرادشت ضاحكاً ـ حقاً، لقد كنت أفتري، وأنا أتحدث عن القطران، فالذي يحدث معي يحدث مع جميع الثمار التي نضجت، إنه العسل في عروقي يجعل دمائي أكثر كثافة ونفسي أكثر صمتاً".

"يبدو أن الأمر فعلاً كذلك، يا زرادشت ـ ردت الحيوانات وهي تقترب منه ـ ولكن ألا ترغب اليوم الصعود إلى جبل عالٍ؟ فالهواء نقي، ويمكن اليوم رؤية الجزء الأكبر من العالم، أكبر من أي وقت مضى".

ـ "نعم، يا حيواناتي ـ رد زرادشت ـ إنكم تقدمون لي نصيحة رائعة، قد راقت لي. اليوم أريد الصعود إلى جبل عالٍ! ولكن اهتموا بأن يكون العسل هناك تحت يدي، عسل خلايا النحل

الذهبي، أصفر وأبيض، جيد وطازج كالجليد. لأنه اعلموا، أريد أن أقدم هناك في الأعلى أضحية عسلية".

ولكن عندما صار زرادشت فوق القمة، أرسل الحيوانات إلى البيت، بعد أن ودعوه، ووجد أنه وحده الآن، وعندها ضحك من كل قلبه، وتلفت من حوله وقال:

ـ تحدثت حول الأضاحي وحول أضاحي العسل، ولكن ذلك لم يكن سوى حيلة من حيل حديثي، وحقاً، كان جنوناً نافعاً! هنا في الأعلى أستطيع التحدث بحرية أكبر مما هو أمام مغاور النساك وحيواناتهم الأليفة.

ما الذي قلته عن الأضاحي! إنني أبذر ما أُهدى لي، إنني أبذر بألف يد، فكيف يمكنني تسمية ذلك، إنه تقديم القرابين!

وعندما أردت العسل أردت فقط طُعماً وعصيراً حلواً مركزاً، يتغذى به الدببة الثرثارون والطيور الغريبة المتجهمة.

ـ الطُعم الأفضل الذي يحتاجه الصيادون وصيادو الأسماك. إذ إنه إذا كان العالم يشبه غابة مظلمة، تسكنها الحيوانات، وبستاناً لإمتاع كل الصيادين القساة، فإنه وبرأيي أكثر شبهاً بالبحر الغني الذي لا قاع له.

ـ البحر المليء بالسرطانات والأسماك مختلفة الألوان، والذي بسببه كانت الآلهة نفسها سترغب بأن تصبح صيادة أسماك وترمي شباكها فيه، فالعالم غني بالغرائب الكبيرة والصغيرة! ولاسيما العالم البشري، البحر البشري. فيه أرمي صنارتي الآن وأقول: انبسطي أيتها اللجة البشرية!

انبسطي وارمي لي بأسماكك وسرطاناتك اللامعة! بأفضل طعم لدي استدرج اليوم أعجب الأسماك البشرية!

ـ سعادتي نفسها أرميها في جميع البلدان، إلى الشرق والجنوب والغرب، كي أرى هل كثيرة هي الأسماك البشرية التي ستتعلم الاختلاج والعراك على طرف سعادتي.

إلى أن تبتلع الخطاطيف الأكثر حدة وخفاء عندي، وتضطر للصعود إلى علوي، تلك الأسماك الأكثر رُقشاً، القابعة في الأعماق، إلى الصياد الأكثر شراً المترصد للأسماك البشرية.

إذ إنني هكذا من بدايتي وحتى أعماقي، أجذب واستميل وأرفع وأتحدى وأربي وأرشد، ولم يكن قولي لنفسي عبثاً: "كن كما أنت عليه!"

فليصعد الناس إلى الأعلى، لأنني ما زلت أنتظر الإشارة، بأن ساعة انحداري قد دقت، ما زلت لم أبدأ موتي بعد كما يجب أن أموت بين الناس.

ولهذا أنتظر هنا، ماكراً وساخراً، فوق الجبال العالية، ولست عديم الصبر ولا صبوراً، بل بالأحرى إنني الذي فقدت القدرة حتى على الصبر، إذ إنه لم يعد "يَحتمل" أكثر.

إن قدري يعطيني الوقت، فهل نسيني؟ أم أنه جالس خلف حجر كبير في الظل يصطاد الذباب؟

وحقاً، إنني شاكر لقدري الخالد، لأنه لا يستعجلني ولا يسحقني ويعطيني الوقت للمزاح والسخط، ولهذا صعدت اليوم هذا الجبل العالي لأصطاد الأسماك.

فهل اصطاد الإنسان يوماً الأسماك من فوق قمم الجبال العالية؟ وليكن جنوناً ما أريده هنا وما أفعله، ومع ذلك هذا أفضل من أن أصبح هناك في الأسفل مهيباً ومخضراً ومصفراً من شدة الانتظار.

- منتفخاً بغضب من كثرة الانتظار، كعواء عاصفة مقدسة تنزل من الجبال، كالمتلهف الذي يصيح إلى الوديان: "اسمعوا، كيف سأضربكم بالسوط الرباني!".

ليس لأنني أغضب من هؤلاء الساخطين، فهم لا يصلحون إلا لسخريتي منهم! إنني أفهم أنهم متلهفون، هذه الأغنام الكبيرة الصاخبة، التي تعطى لها الكلمة اليوم أو لا تعطى أبداً!

ولكن أنا وقدري لا نتحدث مع "اليوم"، ولا نتحدث مع "أبداً"، فلدينا الصبر لنتحدث، والكثير جداً من الوقت، لأنها ستأتي يوماً ولا يمكنها ألا تأتي.

فمن التي عليها أن تأتي يوماً ولا يمكنها ألا تأتي؟ إنها فرصتنا العظيمة، مملكة الإنسان البعيدة العظيمة، مملكة زرادشت، التي ستستمر ألف عام.

فهل ما تزال بعيدة كل هذا البعد؟ ما لي ولها! فهي لهذا السبب تقف بثبات بالنسبة لي، وأقف بثبات على قدمَي فوق هذه التربة.

- فوق الأساس الخالد، فوق الحجر الدهري الصلب، فوق هذا الجبل البدائي الأكثر علواً والأكثر صلابة، حيث تلتقي جميع أنواع الرياح، كما عند حافة العاصفة، متسائلة: "أين؟ ومن أين؟ وإلى أين؟".

هنا إِضحك، اضحك، يا غضبي المشرق السليم! من القمم العالية ارم للأسفل ضحكتك البراقة المزدرية! اجتذب لي بلمعانك أروع الأسماك البشرية! وكل ما هو ملكي في جميع البحار، وكل ما هو لي ومن أجلي في جميع الأشياء، ذلك اصطده لي، وأحضره إلى علوي، هذا ما أنتظره، الأكثر شراً من بين كل صيادي الأسماك.

أبعَد، أبعَد، يا صنارتي! انخفضي أكثر، يا طعم سعادتي! واسكبي قطرة تلو قطرة رحيقك الأكثر حلاوة، عسل قلبي! انغرزي يا صنارتي في جوف كل حزن أسود!

انظري للبعيد، يا عيني! آه، كم هي كثيرة البحار من حولي، وكم من حياة بشرية مشتعلة! ويا للهدوء الوردي فوقي! ويا للصمت الصافي الخالي من الغيم!

صرخة تطلب النجدة

في اليوم التالي كان زرادشت جالساً ثانية فوق صخرة أمام مغارته، في حين كانت حيواناته تطوف في الأرض، كي تجلب إلى البيت طعاماً جديداً وعسلاً جديداً، لأن زرادشت استهلك العسل القديم حتى آخر قطرة. وأثناء جلوسه بهذا الشكل، حاملاً العصا في يده، وراسماً ظله على الأرض، غارقاً في التفكير، حقاً! لم يكن يفكر لا بنفسه ولا بظله، ولكنه خاف فجأة وارتجف، إذ إنه رأى بجانب ظله ظلاً آخر، وبالكاد استطاع الالتفات والنهوض سريعاً، حتى رأى بقربه المتنبئ، ذاك الذي أطعمه وسقاه يوماً خلف طاولته، بشير التعب العظيم، الذي كان يُعَلِّم: "كل شيء متشابه، لا شيء يستحق القيام به، لا مغزى في العالم، المعرفة تخنق". ولكن وجهه تغير خلال تلك الفترة، وعندما نظر زرادشت في عينيه، شعر بالخوف للمرة الثانية، فقد خاف قلبه هذه المرة، لأن كثرة من التنبؤات السيئة والبروق الرمادية الشهباء عبرت هذا الوجه.

شعر المتنبئ بما حدث في نفس زرادشت، فمرر يده فوق وجهه، محاولاً محوه، والشيء نفسه فعل زرادشت. وعندما أعادا بصمت ترتيب نفسيهما وقوّيا نفسيهما، مدا يديهما مصافحين بعضهما بعضاً، مظهرين رغبتهما المتبادلة في معرفة أحدهما الآخر.

"تفضل ـ قال زرادشت ـ لم تكن عبثاً ضيفاً على طاولتي في يوم من الأيام. كذلك اليوم كل واشرب عندي، وسامحني إذا جلس عجوز مرح معك إلى الطاولة!"

ـ "العجوز المرح؟ ـ تساءل المتنبئ وهو يهز برأسه ـ ولكن مهما كنت ومهما أردت أن تكون، يا زرادشت، فلم يبق لك الكثير من الوقت هنا في الأعلى، فقاربك لن يبقى ملقياً فوق البر بعد فترة قريبة!"

ـ "وهل أنا مستلق فوق البر؟ ـ سأل زرادشت ضاحكاً.

ـ إن الأمواج حول جبلك ترتفع وترتفع ـ رد المتنبئ ـ أمواج الفقر الشديد والحزن، قريباً سترفع الأمواج قاربك وتأخذك من هنا".

صمت زرادشت مندهشاً.

ـ "هل يعقل أنك ما زلت لا تسمع شيئاً؟ ـ تابع المتنبئ ـ ألا يأتيك الضجيج والفوران من الأعماق؟"

بقي زرادشت صامتاً وأخذ يصيخ السمع، وعندها سمع صرخة طويلة ممدودة، كانت ترميها الأعماق لبعضها بعضاً، إذ إن ولا عمقاً من الأعماق أراد أن يحتفظ بها عنده، فقد كانت توحي بالهلاك.

"يا بشير القدر - قال زرادشت أخيراً - إنها صرخة استغاثة، صرخة إنسان، وعلى الأغلب صادرة من البحر الأسود. ولكن ما شأني بمأساة إنسان! وهل تدرك ما اسم الذنب الأخير الذي تُرِكَ لي؟"

"الرأفة! - أجاب المتنبئ من عمق قلبه ورفع كلتا يديه - آه يا زرادشت، أنا قادم، لأدخلك في ذنبك الأخير!"

وما إن تلفظ بكلماته هذه، حتى سُمِعَت صرخة الاستغاثة للمرة الثانية، وكانت أكثر امتداداً وحزناً من سابقتها، وعلى مقربة منهما؟

"هل تسمع؟ أتسمع يا زرادشت؟ - صاح المتنبئ - إليك موجهة هذه الصرخة، إنها تناديك: تعال.. تعال، الوقت حان، ولا يجوز إضاعة دقيقة واحدة!"

ولكن زرادشت بقي صامتاً، محتاراً ومصدوماً، وأخيراً سأل، كالمتردد في داخله: "ومن هو ذاك الذي يناديني؟"

"ولكنك تعرفه - أجاب المتنبئ بانزعاج - فلماذا التظاهر؟ إنه الإنسان الأعلى يناديك!".

"الإنسان الأعلى؟ صاح زرادشت وقد تملكه الرعب - وماذا يريد؟ ماذا يريد الإنسان الأعلى؟ ما الذي يريده هنا؟ - وكان العرق قد غطى جسمه.

ولكن المتنبئ لم يجب على خوف زرادشت، بل تابع يستمع إلى اللجة، وعندما عم الصمت هناك، التفت ورأى أن زرادشت يقف كالسابق ويرتجف.

"آه يا زرادشت - بدأ حديثه بصوت حزين - إن وقوفك لا يشبه وقوف الذي تجعله السعادة يدور، وسيتوجب عليك الرقص كيلا تقع على ظهرك.

وحتى لو أردت الرقص أمامي والقفز في جميع الاتجاهات، فإنه لن يكون بمقدور أحد أن يقول لي: " انظر، ها هو يرقص، آخر إنسان سعيدٍ مرح!".

وعبثاً سيصعد الباحث عنه إلى هذه القمة، لأنه كان سيجد هنا مغاور الهاربين ومخابئهم، ولن يجد مناجم السعادة وخزائنها، ولا العروق الذهبية.

السعادة، وهل يمكن إيجادها عند هؤلاء المدفونين أحياء والنساك! أيعقل أنني يجب أن أبحث عن السعادة الأخيرة فوق جزر الغبطة وبعيداً وسط البحار المنسية؟

ولكن كل شيء متشابه، ويجب عدم فعل شيء، وجميع محاولات البحث عبثية، فلا وجود بعد الآن لجزر الغبطة!"

هكذا كان يتنهد المتنبئ، ولكن عند تنهيدته الأخيرة عاد زرادشت مشرقاً وواثقاً من نفسه، كالخارج من هاوية سحيقة إلى النور.

ـ "لا! لا! لا بالثلاثة! ـ صاح بصوت حازم وربت على لحيته ـ هذا الأمر أعرفه أفضل منك! ما زالت جزر الغبطة موجودة! فلا تتحدث عن ذلك، يا كيس الحزن المتنهد!

توقف عن الخرير حول ذلك، أيها الغيم الماطر قبل الظهيرة! ألم أتبلل بعد بماء حزنك، كالكلب الذي بلله المطر؟

والآن سأنتفض وأهرب منك، لأجف، فلا تندهش لذلك! ألا أبدو لك فظاً؟ ولكنها أملاكي هنا.

وفيما يتعلق بإنسانك الأعلى، حسناً! سأبحث عنه فوراً في هذه الغابات، فقد أتى صراخه من هناك، وربما يلاحقه حيوان مفترس.

إنه ضمن حدود أملاكي، ويجب ألاّ يحصل له مكروه هنا! وحقاً، لدي الكثير من الحيوانات المفترسة".

وهمَّ زرادشت بالمغادرة بعد قوله هذا، وعندها قال المتنبئ: "آه، يا زرادشت، أنت محتال!

أنا أعرف أنك تريد التخلص مني! وستركض بسرور عظيم إلى الغابات لتصطاد الحيوانات البرية! ولكن هل سيساعدك ذلك؟ ففي المساء سأكون عندك، وسأجلس في مغارتك أنتظرك كالجرن صبوراً وثقيلاً!"

"ليكن كذلك! ـ صاح زرادشت مغادراً ـ وكل ما هو لي في مغارتي، هو لك أيضاً، يا ضيفي العزيز!

وإذا وجدت فيها عسلاً، العقه، يا أيها الدب الثرثار، وحَلّي نفسك! فعند قدوم المساء سيكون كلانا مرحين.

ـ سنكون مرحين ومسرورين بانتهاء هذا اليوم! وأنت نفسك سترقص تحت وقع أغانيّ، كدبي المُدَرَب. ألا تصدق ذلك؟ وهل تهز برأسك؟ حسناً! اذهب! أيها الدب العجوز! ولكنني أنا أيضاً متنبئ".

هكذا تكلم زرادشت.

حديث مع الملوك

١

لم يدم تجوال زرادشت في جباله وغاباته ساعة، حتى رأى موكباً غريباً، فعلى الطريق الذي كان زرادشت ينوي سلوكه، سار ملكان مزينان بتاجين وحزامين أحمرين مبرقشَين كطيري فلامينغو، وكانا يسوقان أمامهما حماراً محملاً.

"ما الذي يريده هذان الملكان في مملكتي؟" ـ تساءل زرادشت مندهشاً واختبأ بسرعة خلف الشجيرات، وعندما اقترب الملكان من مكانه، قال بصوت خافت، كالذي يتحدث مع نفسه: "غريب! غريب! كيف يمكن تفسير ذلك؟ فأنا أرى ملكين وحماراً واحداً فقط!".

وعندها توقف الملكان وابتسما، ونظرا في الاتجاه الذي خرج منه الصوت، ثم نظرا إلى بعضهما بعضاً، "هكذا يفكر الكثيرون عندنا ـ قال الملك الأول ـ ولكنهم لا يعبرون عن ذلك".

وأما الملك الثاني فقد هز كتفيه وأجاب: "لا شك أنه راعي ماعز، أو ناسك عاش طويلاً وسط الصخور والأشجار، فغياب المجتمع يُفسِد الخُلُقَ الحميد"

ـ "الأخلاق الحميدة؟ ـ اعترض الملك الأول بانزعاج ومرارة ـ فما الذي نحاول تجنبه؟ أليست هي "الأخلاق الحميدة"؟ أليس هو "مجتمعنا الجيد"؟

حقاً، من الأفضل العيش بين النساك ورعاة الماعز، من العيش بين رعاعنا المذهبين والكذابين والمطلية وجوههم بالحمرة، حتى وإن سموا أنفسهم "بالمجتمع الجيد".

حتى وإن سموا أنفسهم "بالأرستقراطية"، ولكن كل ما فيهم كاذب وعفن بدءاً من الدم بفضل الأمراض المزمنة الخبيثة والمعالِجين الحكماء الأشد سوءاً.

إنني أفضل عليهم الفلاح السليم والخشن والماكر والعنيد والجلود، وأعتبره أفضل منهم، فاليوم هذا الصنف هو الأكثر نبلاً.

الفلاح اليوم هو الأفضل، والطراز الفلاحي يجب أن يكون سيداً! ومع ذلك فالحُكم اليوم للحشد، وأنا لم أعد أسمح لنفسي بأن أعلل نفسي بآمال باطلة، ولكن الحشد يعني أشياء كثيرة.

الحشد هو أشياء كثيرة، ففيه خليط من كل شيء، فيه القديس والنذل والشريف والصهيوني، وجميع حيوانات سفينة نوح.

الطباع الحسنة! كل شيء لدينا كاذب وعفن، ولم يعد أحد يتقن التبجيل، فهذا تحديداً ما نتجنبه جميعاً.إنها كلاب متزلفة ولجوجة، إنهم يطلون بالذهب أوراق النخيل.

الاشمئزاز يخنقني لأننا، نحن الملوك، أصبحنا مزيفين، وارتدينا وعُلِقَ علينا بريق الأجداد الذي بهت، ولسنا سوى أوسمة عرض للأغبياء والمكارين وجميع المتاجرين اليوم مع السلطة!

نحن لسنا الأوائل، ومع ذلك علينا أن نبدو كالأوائل. لقد تعبنا وزهقنا من هذا الخداع.

لقد ابتعدنا عن الحشد، عن كل هؤلاء الصَخَّابين والذباب ورائحة التجار وصراع الطموحين والأنفاس العطنة.

ـ تباً للعيش وسط الحشد، وتباً للظهور في المرتبة الأولى وسط الحشد! آه، يا للاشمئزاز! الاشمئزاز! الاشمئزاز! أي أهمية بقيت لنا، نحن الملوك!"

"إن مرضك القديم يعود إليك ـ قال الملك الثاني ـ الاشمئزاز يعود إليك، يا أخي المسكين، ولكنك تعلم أن أحدهم يتنصت علينا".

فخرج زرادشت من مخبئه سريعاً، حيث كان يستمع بتوتر إلى هذه الأحاديث، واقترب من الملكين وقال:

"إن الذي يستمع إليكما، يستمع بسرور، أيها الملكان، ويدعى زرادشت.

أنا زرادشت الذي قال مرة: "أي أهمية للملوك بعد الآن!" اعذراني فقد فرحت عندما قلتما لبعضكما بعضاً: "ما لنا وللملوك!"

ولكن هنا مملكتي وسلطتي، فما الذي يمكن أن تبحثا عنه في مملكتي؟ وربما وجدتما في طريقكما الشيء الذي أبحث عنه، وهو الإنسان الأعلى".

وعندما سمع الملكان ذلك، دقا على صدريهما وقالا بصوت واحد: "لقد كُشِفنا! بسيف هذه الكلمة تُقطَع الظلمة الكثيفة في قلبينا. لقد كشفت حزننا، إذ إننا، كما ترى، انطلقنا للبحث عن الإنسان الأعلى.

ـ الإنسان الأعلى منا ، على الرغم من كوننا ملكين. له نسوق هذا الحمار ، إذ إن الإنسان الأعلى يجب أن يكون السيد الأعلى فوق الأرض.

لا شقاء في جميع المصائد البشرية أقسى من ألا يكون أقوياء الأرض هم الجوهر والأناس الأوائل، وعندها يصبح كل شيء كاذباً ومنحرفاً ومريعاً.

وأما عندما يكونون الأخيرين وأكثر شبهاً بالبهائم من شبههم بالناس، عندها يزيد الحشد في ثمنهم، وأخيراً يقول صاحب الفضيلة وسط الحشد: "انظروا ، أنا صاحب الفضيلة فقط!"

"ما الذي سمعته للتو؟ ـ أجاب زرادشت ـ يا لحكمة الملوك! إنني معجب، وحقاً ، أرغب كثيراً نظم كل ذلك في قافية موحدة. وربما ستكون قوافي لا تصلح لجميع الآذان، فقد فقدت القدرة على الانتباه إلى الآذان الطويلة منذ زمن بعيد. حسناً! إلى الأمام!

(وحدث هنا أن الحمار تحدث أيضاً ، فقد نهق بوضوح وبقصد شرير)

حدث مرة، في السنة الأولى من ميلاد المسيح
أن سيفيلا السكرانة وليس من الخمر قالت:
"الويل.. الويل.. كم أصبح كل شيء هابطاً في هذه الأيام.
يا للشقاء، في كل مكان!
لقد أصبحت روما بيتاً كبيراً للدعارة،
لقد انحط القيصر إلى مستوى الحيوان،
واليهودي صار إلهاً".



استمتع الملكان بقوافي زرادشت، ولكن الملك الأول قال: "آه، يا زرادشت، لقد فعلنا الصواب، عندما توجهنا للقياك!

إذ إن أعـداءك عرضـوا علـى أنظارنـا صـورتك في مرايـاهم، فـصوروك بـصورة شـيطان وابتسامة ساخرة، بحيث أصبحنا نخشاك.

ولكـن هـل سـاعدنا ذلـك! لقـد تابعـت التغلغـل في آذاننـا وقلوبنـا بأقوالـك المـأثورة. وعنـدها قررنا أخيراً: "ما لنا ولمظهره!".

علينـا أن نـستمع إليـه، إليـه الـذي قـال: "أحبـوا الـسلام كوسـيلة لحـروب جديـدة، والـسلام القصير أكثر من السلام الطويل!"

لم يحدث من قبل أن نطـق أحـد بكلمـات محاربـة كهـذه فقـال: "مـا هـو الجيـد؟ الجيـد أن تكون شجاعاً، فخير الحرب ينير كل هدف".

آه، يا زرادشت، إن دماء آبائنا أصابها القلق في أجسامنا لدى سماعنا لهذه الكلمات، فقد كان هذا الحديث يشبه حديث الربيع إلى براميل الخمر العتيقة.

وعنـدما كانـت الـسيوف تـشتبك مـع الـسيوف، شـبيهة بالأفـاعي المنقطـة بنقـاط حمـراء، عنـدها كـان آباؤنـا يعيـشون حيـاة كاملـة، وكـل شمـس في العـالم كانـت تبـدو لهـم شـاحبة وباردة، والسلام الطويل جالباً للعار.

وعنـدما كـان آباؤنـا يتنهـدون، ويـرون علـى جـدرانهم الـسيوف المثلمـة! كـانوا كـسيوفهم يتعطشون للحرب، لأن السيف يريد أن يرتوي بالدم ويلمع من شدة الرغبة".

وأثناء حديث الملكين الحار، وأحلامهم حول سعادة آبائهم، غمـرت زرادشـت رغبـة شـديدة في الـضحك والـسخرية مـن حماسـتهما، لأنـه كـان واضـحاً، أن الملكـين الـذين يراهمـا أمامـه، كانا ملكين مسالمين بوجهين عجوزين رقيقين، ولكنه تمالك نفسه.

"حسناً! ـ قال زرادشت ـ هذا هو الطريق الذي يقود إلى مغارة زرادشـت، ولـيكن مـساء هـذا اليوم طويلاً! والآن تصرفني عنكما صرخة استغاثة عاجلة.

سَتُشَرَّفُ مغارتي إذا جلس فيها الملكان وانتظرا، ولكنكما طبعاً ستنتظران طويلاً!

حسناً! أين يتعلمون الانتظار أفضل مما هو عليه في بلاطات الملوك؟ وفضيلة الملـوك كلـها، المتبقية لديهم، ألا تسمى اليوم بالمقدرة على الانتظار؟"

هكذا تكلم زرادشت.

العَلَقَة

وتابع زرادشت مسيره وهو غارق في التفكير، فنزل إلى الأراضي المنخفضة، سائراً عبر الغابات وبجانب المستنقعات، وكما يحدث مع كل شخص يفكر بأمور معقدة، داس بغير قصد على إنسان. فانهالت عليه مرة واحدة صرخة ألم ولعنتان وعشرون كلمة بذيئة، فرفع بخوف عصاه وضرب الذي داس عليه، ولكنه ثاب إلى رشده سريعاً، وكان قلبه يسخر من الحماقة التي ارتكبها قبل قليل.

"سامحني - قال للإنسان الذي داس عليه والذي نهض بغضب ثمّ جلس - سامحني واستمع أولاً للمقارنة.

كالمسافر الحالم بأشياء بعيدة، يصطدم مصادفة في شارع موحش بكلب نائم، مستلق تحت الشمس، فيقفز كلاهما وينقضان على بعضهما بعضاً كعدوين لدودين، وكل منهما خائف حتى الموت، هكذا حدث معنا.

ومع ذلك كان ينقصهما القليل، كي يلاطفا بعضهما بعضاً، هذا الكلب وهذا الوحيد! فكل منهما وحيد!"

"سواء من تكون - أجاب الإنسان الذي داس عليه زرادشت غاضباً - إنك تمسني مساً مؤلماً بمقارنتك وليس فقط برِجلكَ! انظر إلي، هل أنا كلب؟" - ولدى قوله ذلك، نهض الجالس وأخرج يده العارية من المستنقع، إذ إنه كان في البداية مستلقياً فوق الأرض، ومخفياً عن الأنظار، كالذين يترصدون طرائد المستنقع.

"ولكن ماذا حل بك - صاح زرادشت خائفاً، لأنه رأى الدم يسيل بغزارة فوق اليد العارية - ماذا أصابك؟ هل عضك حيوان ضارٍ، أيها المسكين؟

فابتسم الشخص الجريح، وهو لا يزال غاضباً. "وما شأنك أنت؟ - قال وهم بمتابعة المسير - فأنا هنا في بيتي ومملكتي. فليسألني من شاء، ولكنني لن أرد على أبله".

"إنك تُخطئ - قال زرادشت برأفة ومنعه من الذهاب - أنت مخطئ لأنك هنا لست في بيتك بل في مملكتي، وهنا يجب ألاّ تحل المصيبة على أحد. وبالمناسبة سمني ما شئت، فأنا الذي يجب أن أكون عليه، وإنني أدعو نفسي زرادشت.

حسناً! هناك في الأعلى توجد طريق تقود إلى مغارة زرادشت، إنها ليست طويلة، ألا تريد معالجة جراحك عندي؟

لم توفق كثيراً، أيها المسكين، في حياتك هذه، ففي البداية عضك حيوان، ثم داس عليك إنسان!".

ولدى سماع الجريح اسم زرادشت تغيرت تعابير وجهه. "ماذا دهاني؟ - صاح الجريح - من يهمني في هذه الحياة أكثر من ذلك الإنسان الأوحد زرادشت، وليس فقط هذا الحيوان الوحيد الذي يقتات على الدم، العلقة؟

من أجل العلقة استلقيت هنا على حافة هذا المستنقع، كصياد السمك، وقد عُضَت يدي الممدودة عشر مرات، فيأتي حيوان أروع ليقتات على دمي، إنه زرادشت نفسه!

آه، يا لسعادتي! يا للعجب! فليبارَك هذا اليوم الذي استدرجني إلى هذا المستنقع! ولتبارك أفضل زجاجة ماصة للدماء تعيش حتى الآن، فلتبارك علقة الضمير العظيمة الحية حتى الآن، المدعوة زرادشت!"

هكذا تحدث الذي داس عليه زرادشت، وفرح زرادشت بكلماته وتوقيرها له. "من أنت؟ - سأل ومد يده - فقد بقي بيننا الكثير مما يجب تبينه وإيضاحه، ولكن يبدو لي أنه بدأ يحل يوم نقي صافٍ".

"إنني حي الضمير والروح - رد الرجل - وفي مسائل الروح يصعب إيجاد شخص أكثر صراحة وضيقاً وصلابة مني، باستثناء الذي تعلمت منه، وهو زرادشت نفسه.

الأفضل ألاَّ تعرف شيئاً، من أن تعرف الكثير نصف معرفة! والأفضل أن تكون غبياً على مسؤوليتك الشخصية، من أن تكون حكيماً على أساس آراء الآخرين! أنا أتحرى الحقيقة.

- وماذا يهم إن كانت عظيمة أو صغيرة؟ وهل تدعى مستنقعاً أو سماءً؟ يكفيني شبر من الحقيقة، إذا كانت فعلاً هي الحقيقة!

- شبر من الحقيقة يمكن الوقوف فوقه، ففي ضمير المعرفة الحقيقي لا يوجد شيء عظيم ولا شيء صغير".

"ربما أنت الساعي لمعرفة العلقة؟ - سأل زرادشت - أنت تدرس العلقة وصولاً إلى أساسها الأخير، أأنت صاحب الضمير الحي؟".

"آه، يا زرادشت - رد الذي داس عليه زرادشت - كان رهيباً لو أنني تجرأت على ذلك!

وإذا كنت أعرف شيئاً بامتياز ودقة، فهو دماغ العلقة، إنه عالمي!

وهذا كذلك عالم! ولكن اعذرني إن تحدث اعتزازي هنا، إذ لا نظير لي هنا، ولهذا قلت "إنني هنا في بيتي".

كم صار لي من الوقت أدرس هذا الشيء الوحيد، دماغ العلقة، كي لا تفلت مني الحقيقة الزلقة! هنا مملكتي!

- من أجل ذلك رميت كل ما تبقى من أمور، من أجل ذلك أصبحت لا مبالياً بكل ما تبقى، وإلى جانب معرفتي يمتد جهلي الأسود.

إن حضور وجداني الروحي يطالبني بمعرفة شيء واحد فقط، وأن أجهل البقية، إنني أشمئز من ناقصي الروح والغامضين والمرفرفين والحالمين.

وحيث ينتهي صدقي، أكون أعمى وأريد أن أكون أعمى. وحيث أريد المعرفة، أريد كذلك أن أكون صادقاً، وبالتحديد صارماً وجاداً وضيقاً وعديم الرحمة.

عندما قلت يوماً، يا زرادشت: "الروح هي الحياة، الحياة التي تقتل نفسها"، أغراني هذا وقادني إلى تعاليمك. وحقاً، إنني بدمائي الشخصية ضاعفت معرفتي الذاتية!".

"كما تثبت البداهة". قاطعه زرادشت، لأن الدماء ما زالت تسيل فوق اليد العارية لصاحب الضمير والروح الحيين، إذ إن عشر علقات قد انغرزت فيها.

"آه، يا أيها الرفيق الغريب الأطوار، كم هو كثير ما تعلمني إياه البداهة، أي أنت! وربما، ليس علي صب كل شيء في أذنيك الصارمين!

حسناً! لنفترق هنا! ولكنني متشوق جداً لملاقاتك مرة ثانية. هناك في الأعلى يوجد طريق يوصل إلى مغارتي، في هذه الليلة تكون ضيفاً مرحباً بك هناك!

كذلك أود معالجة جسدك، الذي داس عليه زرادشت برجله، سأفكر بذلك. والآن تبعدني عنك مستعجلاً صرخة استغاثة".

هكذا تكلم زرادشت.

الساحر

١

وعندما دار زرادشت حول الصخرة، رأى في الأسفل وعلى مقربة منه، فوق طريق مستوية إنساناً يرتجف كالذي تملكه الشيطان، ثم ارتمى أخيراً على الأرض.

"قف! - قال عندها زرادشت في نفسه - لا شك أنه الإنسان الأعلى، عنه صدرت هذه الصرخة الأليمة طلباً للنجدة، سأنظر إن كنت أستطيع مساعدته".

فوصل جارياً إلى المكان الذي استلقى فيه الإنسان، ووجد عجوزاً مرتجفاً بعينين جامدتين، ومهما حاول زرادشت رفعه وإيقافه على قدميه، باءت كل محاولاته بالفشل. حتى إنه بدا أن المسكين لا يلاحظ وجود أحد إلى جانبه، بل على العكس، كان يتلفت حوله بطريقة مؤثرة، كشخص هجره العالم كله وبات وحيداً. وأخيراً، وبعد رجفان متواصل وتشنجات واختلاجات أخذ يشتكي بمرارة:

من ذا الذي يقدر أن يدفئني، من لا يزال يحبني؟
مدوا لي أياديكم الساخنة
أعطوني لهب الفحم المحمر من أجل قلبي.
إنني أستلقي عاجزاً، متسمراً من شدة الخوف،
كما لو كنت أمام الموت، عندما تجمّدُ القدمان،
أرتجف في نوبات مرض شرير مجهول
ومرتعشاً تحت النهايات الحادة
لسهامك المتجمدة الباردة.

إنك تحاول اصطيادي، يا روح الفكرة،
المخيِّم والمرعب وغير المسمى
الصياد من خلف الغيوم!
كالبرق صعقَتْني العين،
ناظراً من خلف الظلام بسخرية!
هكذا أستلقي، متلوياً،
منحنياً، معذباً، مصاباً بكل أنواع
العذاب التي أرسلتها علي،
أنت أيها الصياد الذي لا ترحم،
الإله المجهول بالنسبة لي!

* * * *

أصبني أعمق
اغرز سهمك في قلبي
اكسرني وانخزني!
ولكن لما تعذبني الآن
بسهامٍ كليلة؟
لما تنظر إلي ثانية،
بنظرة لا تشبع من معاناة البشر،

نظرة إله صاعق وشامت؟
نعم، أنت لا تريد أن تَقتل،
بل تود التعذيب، والتعذيب فقط!
ما الذي تريده من معاناتي
أيها الإله المجهول الشامت؟
أنا أرى، نعم!
في ساعة منتصف الليل تسللت إلي.
فقل ما الذي تريده؟
إنك تحاصرني وتضغط علي،
حقاً، إنك قريب جداً مني!
إنك تستمع إلى أنفاسي،
وتتنصت إلى ضربات قلبي،
نعم إنك تغار! ولكن ممن تغار؟
انصرف، انصرف!
إلى أين تنوي التسلل؟
إنك تريد التغلغل إلى قلبي،
إلى الهواجس الخفية!
يا عديم الخجل، إنك غريب عني، لص!

ما الذي تريد أن تسرقه لنفسك؟
وما الذي تريد أن تسمعه متنصتاً؟
ما الذي تريد أن تستعلمه مني، أيها المُعّذِب؟
أيها الجلاد الإلهي!
فهل علي أن أستلقي أمامك كالكلب؟
وأهز بذيلي، وأعترف لك بمحبتي
محركاً ذيلي؟

* * * *

عبثاً تحاول
اصعقني أقوى!
يا لهذه الوخزة الرهيبة!
لا، لست أنا كلب صيدك، إنني طريدتك
يا أيها الصياد الذي لا ترحم،
إنني أسيرك الأبي،
يا أيها اللص المختبئ خلف الغيم!
قل لي أخيراً
ماذا تريد مني أيها السارق؟

* * * *

كيف؟ الفدية؟
فما هي وكم؟
اطلب الكثير - هكذا يقول لي كبريائي -
وتحدث باختصار - كانت نصيحته الأخرى.
هكذا إذاً؟ نعم؟ لي؟
أتريدني أنا؟
أنا بكاملي؟
آه! ولماذا؟
أتعذبني أيها الغبي أثناء ذلك؟
لماذا تعذب نفسي بالإذلال؟...
أعطني المحبة، من سيدفئني؟
مد لي يدك الساخنة
ولهب الفحم المحمر لقلبي،
أنا الوحيد في عزلتي،
الذي يسعى إلى الأعداء
والجليد ذو الطبقات السبع،
يُعلِّم التوق إلى الأعداء.
سلمني نفسك،

أيها العدو.

سلمني نفسك!

* * * *

انصرَفَ! طار!

ذهب بعيداً

رفيقي وعدوي الوحيد.

يا عدوي العظيم

الغريب عني ثانية

يا أيها الجلاد الإلهي.

* * * *

لا!

عد إلي

مع تعذيبك لي،

دموعي كلها تسيل خلفك،

فجأة ومن جديد اشتعلت من أجلك

النار الأخيرة فوق قلبي.

عد، عد إلي، يا إلهي، يا معاناتي

وآخر سعادة لدي!..

* * * *



وهنا لم يعد باستطاعة زرادشت أن يتمالك نفسه أكثر، فأمسك بعصاه وضرب بكل قوته الشخص الذي كان يشتكي. "توقف - صاح بضحكة شريرة - توقف أيها المهرج! يا مزيف النقود! أيها الكاذب المزمن! لقد عرفتك! سأدفئ لك قدميك، أيها الساحر الشرير، إنني أتقن شوي الذي هم مثلك!"

"اتركني - قال العجوز وقفز عن الأرض - لا تضرب أكثر، يا زرادشت! كل هذا لم يكن إلا ملهاة!

ففي ذلك يتلخص فني، لقد أردت اختبارك، معرِّضاً إيّاك لهذه اللسعة! وحقاً، لقد كشفت نواياي!

ولكنك أنت أيضاً كشفت لي عن سمات كثيرة من نفسك، فأنت صارم وحكيم يا زرادشت! وأنت تتسبب بضربات صارمة "بحقائقك"، فعصاك ذات الأغصان الكثيرة تجبرني على الاعتراف بهذه الحقيقة!"

" لا تتزلف - رد زرادشت وهو ما يزال ثائراً وناظراً إليه بتجهم - إنك مشعوذ مزمن! أنت كاذب، فكيف تتحدث عن الحقيقة!

أنت، طاووس الطواويس، أنت بحر من الغرور، ما الذي كنت تمثله أمامي، أنت ساحر شرير، بمن كان علي أن أؤمن، عندما كنت تشتكي بهذه المرارة؟"

"التائب بروحه - قال العجوز - لقد كنت أمثله، أنت نفسك ابتكرت هذه الكلمة يوماً.

- الشاعر والمشعوذ، الذي حول روحه أخيراً ضد نفسه، متغيراً، يصيبه البرد من معرفته السيئة وضميره السيئ.

واعترف، لقد تطلب الأمر زمناً طويلاً، قبل أن تلاحظ يا زرادشت فني وكذبي!

لقد صَدَّقت مصيبتي عندما كنت تمسك رأسي بيديك.

- لقد سمعت كيف كنت تشتكي بمرارة: لقد أحبوه حباً ضئيلاً، ضئيلاً جداً!" ولأنني خدعتك كان حقدي يفرح بذلك كثيراً في داخلي".

"لا شك أنك خدعت الأشد مكراً مني - قال زرادشت بصرامة -

إنني لا أتجنب المخادعين، إذ علي أن أكون عديم الحذر، هكذا يريد قدري.

ولكن أنت يجب عليك الخداع، لهذه الدرجة أعرفك! فكلماتك دائماً يجب أن تمتلك مغزيين أو ثلاثة أو أربعة! حتى الشيء الذي اعترفت به للتو، لم يكن بالنسبة لي حقيقة كافية أو كذباً كافياً!

أيها المزيف الشرير، هل كان بمقدورك التصرف بطريقة مغايرة! فحتى مرضك كنت ستزيفه، لو أنك ظهرت أمام طبيبك عارياً.

بنفس الطريقة كنت تزيف كذبك أمامي، عندما قلت: "كل هذا لم يكن إلا ملهاة!"، فقد كان في الأمر شيء جدي، إذ إنك أنت نفسك تائب بروحك!

- إنني أكشف حقيقتك جيداً، لقد أصبحت ساحراً للجميع، ولكن لنفسك لم يبق لديك كذب أو مكر، لم تعد ساحراً أمام نفسك!

كنت تجني الاشمئزاز كحقيقتك الوحيدة. لا يوجد فيك ولا كلمة صدق واحدة، ولكن ثغرك ما زال صادقاً، وصادق هو الاشمئزاز الملتصق بثغرك".

"ولكن من أنت؟ - صاح الساحر فجأة بصوت متكبر - من ذا الذي يجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة، أنا أعظم الأحياء الآن؟" - وومض برق أخضر من عينيه على زرادشت، ولكنه تبدل فوراً وقال بحزن:

"آه، يا زرادشت، لقد تعبت، لقد باتت فنوني تثير في نفسي الاشمئزاز، لست عظيماً، فلِما أتظاهر؟ ولكن - وأنت تعرف ذلك جيداً - كنت أبحث عن العَظَمة!

كنت أريد تمثيل الإنسان العظيم وقد أقنعت الكثيرين بذلك، ولكن هذا الكذب فاق قواي، إنني أتكسر فوقه.

آه، يا زرادشت، كل شيء فيَّ كذب، ولكن كوني أتكسر هذه حقيقة فيَّ!".

"ذلك يشرفك - قال زرادشت بتجهم ونظر جانباً - يشرفك بحثك عن العَظَمة، ولكن ذلك يكشفك أيضاً، فأنت لست عظيماً.

ساحر شرير عجوز، هذا أفضل وأصدق ما لديك، وأنا أقدر فيك أنك تعبت من نفسك وقلت: "أنا لست عظيماً".

لأجل ذلك أقدرك كتائب بروحه، حتى ولو لوهلة واحدة، ولكنك كنت في تلك اللحظة صادقاً.

ولكن قل لي، ما الذي تبحث عنه هنا في غاباتي وفوق صخوري؟ وإذا كنت قد استلقيت فوق الطريق لأجلي، فما الذي أردته مني؟ وبأي شيء أردت إغوائي؟"

هكذا تحدث زرادشت، وقد لمعت عيناه. صمت الساحر العجوز قليلاً، ثم قال: "وهل كنت أحاول إغواءك؟ إنني أبحث فقط.

آه، يا زرادشت، إنني أبحث عن شخص صادق وبسيط وعادل وصريح، عن إنسان صادق في جميع النواحي، وعاء الحكمة، تقي المعرفة، إنسان عظيم! ألا تعرف ذلك يا زرادشت؟ إنني أبحث عن زرادشت".

وهنا عم صمت طويل بينهما، وغرق زرادشت في تفكير عميق، بحيث أنه أغلق عينيه، وعندما عاد إلى محدثه، أمسك الساحر من يده وقال له بلطف ومكر:

"حسناً! هناك في الأعلى يوجد طريق، وفي نهايته توجد مغارة زرادشت، وفيها يمكنك أن تبحث عن الذي تريد إيجاده.

واسأل النصيحة عند حيواناي، عند نسري وأفعتي، فليساعداك في بحثك، ولكن كهفي عظيم.

والحقيقة إنني نفسي لم أر بعد الإنسان العظيم، فبالنسبة لرؤية العظيم ما زالت العين فظة حتى اليوم، حتى من قبل أكثر الناس رقة، فالآن تسود مملكة الحشد.

لقد رأيت الكثيرين حتى الآن ممن كانوا يتمططون وينفخون صدورهم، وكان الشعب يصيح: "هذا هو الإنسان العظيم!" ولكن ماذا يمكن أن تعني كل المنافيخ! ففي نهاية المطاف سيخر ج الهواء منها.

في نهاية المطاف ينفجر الضفدع، الذي نفخ نفسه طويلاً، ويخرج الهواء منه. وإنني أدعو وخز بطن المنتفخ بالمزحة المسلية. اسمعوا يا أولاد!

هذا الأمر اليوم يملكه الحشد، فمن ذا الذي لا زال يعرف ما هو العظيم، وما هو الحقير! من ذا الذي بحث هناك بتسرع عن العظَمة! إنه الأحمق فقط، فحتى الحمقى ينجحون.

هل تبحث عن البشر العظماء، أيها الأحمق الغريب؟ من الذي علمك البحث عنهم؟ وهل الوقت الآن ملائم لذلك؟ آه، أيها الباحث الشرير، بما تغويني؟"

هكذا تكلم زرادشت، وقد تعزى في داخله، وسار في طريقه وهو يضحك.

إلى التقاعد

وبعد فترة قصيرة مضت على تخلص زرادشت من الساحر، رأى ثانية شخصاً يجلس فوق الطريق التي يسير عليها، لقد كان شخصاً أسود طويلاً بوجه شاحب نحيل، لقد أغضب مظهره زرادشت كثيراً. "الويل - قال في نفسه - ها هو الحزن المتدثر، يبدو لي إنه من صنف القساوسة، فما الذي يريده في مملكتي؟

لقد تخلصت تواً من الساحر، حتى اعترض طريقي مباشرة ساحر شيطاني آخر، إنه ساحر ما عاطل عن العمل، إنه أحد صناع المعجزات المتجهمين بكرم من الرب، إنه أحد المفترين على العالم، فليأخذه الشيطان إلى الجحيم!

ولكن الشيطان لا يتواجد أبداً في المكان المطلوب، فهو دائماً يأتي متأخراً جداً، هذا القزم اللعين أعرج الساقين!"

هكذا أخذ زرادشت يتذمر بجزع في نفسه وفكر بكيفية عدم النظر إلى الإنسان الأسود، والمرور بجانبه متجاهلاً إياه، ولكن حدث العكس، ففي تلك اللحظة رآه الشخص الجالس، وبدا كالذي وجد سعادته فجأة، فقد قفز وسار باتجاه زرادشت.

"سواء من تكون، أيها الرحالة - قال له - ساعد الضال الباحث، الإنسان المسن الذي يمكن أن يصيبه المكروه بسهولة هنا!

إن العالم هنا غريب وبعيد بالنسبة لي، حتى إنني سمعت زئير الحيوانات المفترسة، والذي كان يستطيع الدفاع عني لم يعد موجوداً.

لقد بحثت عن الإنسان المتدين الأخير، أحد القديسين والنساك، الذي هو وحده لم يسمع في غابته بعد عن الشيء الذي يعرفه العالم كله اليوم".

- "وما الذي يعرفه العالم كله اليوم؟ - سأل زرادشت - أليس هو أن الإله القديم لم يعد له وجود بعد الآن، ذلك الذي آمن به العالم كله؟".

"أنت قلت ذلك - أجاب العجوز الحزين - وأنا كنت أخدم هذا الإله حتى آخر ساعة له.

والآن أنا خارج الخدمة، ولا سيد لي، ومع ذلك لست حراً، وليس لدي ساعة مرح واحدة، باستثناء التي في الذاكرة.

لهذا السبب صعدت هذه الجبال، كي أعيد لنفسي أخيراً العيد من جديد، كما يليق ببابا عجوز هو أب الكنيسة، إذ إنني أعلم وأنا البابا الأخير، أنه عيد الذكريات الدينية وخدمة الرب.

ولكنه الآن ميت، أكثر الناس تديناً، ذاك الذي كان في الغابة المقدسة، والذي كان دائماً يمجد ربه بالغناء والدمدمة.

لم أجده عندما وجدت كوخه، وفيه ذئبان علا عواؤهما على موته، إذ إن كل حيواناته أحبته فهربت من هناك.

فهل أتيت عبثاً إلى هذه الغابات والجبال؟ وعندها قرر قلبي البحث عن آخر، الأكثر تديناً من بين كل من لا يؤمن بالرب، أن أبحث عن زرادشت!".

هكذا قال العجوز ونظر نظرة حادة إلى الرجل الواقف أمامه، بينما أمسك زرادشت يد البابا العجوز وأخذ يتفحصها طويلاً باندهاش.

ـ "انظر، أيها الموقَر ـ قال بعدهاـ يا لهذه اليد الرائعة الطويلة! إنها يد الذي كان يوزع البركات باستمرار، ولكنها الآن تمسك بالذي تبحث عنه، أنا زرادشت.

هذا أنا، زرادشت الكافر، الذي يقول: من أكثر كفراً مني كي أستطيع الفرح بتعاليمه؟"

هكذا تحدث زرادشت مخترقاً بنظراته أفكار وكوامن البابا العجوز. وأخيراً قال الآخر: "إن الذي أحَبَهُ وامتلَكَهُ أكثر من أي شيء آخر، هو الذي أضاعه الآن أكثر من أي شيء آخر.

ـ انظر، ألست أنا الأكثر كفراً من بيننا نحن الاثنين؟ ولكن من ذا الذي يمكنه أن يفرح بذلك؟"

"لقد خدمتَه حتى النهاية ـ قال زرادشت مفكراً بعد صمت عميق ـ فهل تعرف كيف مات؟ وهل صحيح ما قالوه بأن الشفقة خنقته، بعد أن رأى كيف عُلِّقَ إنسان على الصليب، فلم يتحمل ذلك، وصارت محبته للإنسان جحيماً له وأخيراً موتاً له؟"

ولكن البابا العجوز لم يجبه بشيء، بل نظر جانباً بوجل نظرة معاناة متجهمة.

"اتركه ـ قال زرادشت بعد تفكير طويل، وتابع النظر في عيني العجوز مباشرة.

ـ اتركه، لقد مات. وعلى الرغم من أنه يشرفك تحدثك عن الميت بالخير فقط، إلا أنك تعرف كذلك، كما أعرف أنا، من كان هو، وأنه كان يسير في دروب غريبة".

"وإذا تحدثنا بين ثلاثة أعين ـ قال البابا العجوز وقد استرجع مرحه (إذ إنه كانت إحدى عينيه عمياء) ـ ففي مسائل الرب أنا أكثر تنوراً من زرادشت نفسه، ولي الحق في ذلك.

فمحبتي خدمته سنيناً طويلة، وإرادتي تبعت إرادته في كل شيء. ولكن الخادم الجيد يعرف كل شيء ويعرف الكثير مما يخفيه سيده عن نفسه.

كان هذا الرب متحفظاً وممتلئاً بالغموض. وحقاً، أنه حتى نحو ابنه سار في طريق خفية، وعند أبواب دينه يقف الزنى.

والذي يمجده كربٍ للمحبة، لم يُكوِّن رأياً جيداً بالمحبة نفسها ـ ألم يكن هذا الرب راغباً في أن يكون قاضياً؟ ولكن المحب يحب متجاهلاً الثواب والعقاب.

عندما كان هذا الرب الشرقي شاباً، كان قاسياً وشديد الانتقام وبنى لنفسه جحيماً ليسلي أحبته.

ولكنه هرم أخيراً، وصار ليناً ورؤوفاً، وأكثر شبهاً بالجد مما هو عليه من الأب، وأكثر ما يشبه الجدة العجوز المرتجفة.

وهكذا جلس ذابلاً في زاويته بجانب الموقد ومتحسراً على رجليه الضعيفتين، متعباً من العالم، ومتعباً من الإرادة، إلى أن اختنق أخيراً من شفقته الشديدة".

ـ "أنت أيها البابا العجوز ـ قاطعه زرادشت ـ هل رأيت ذلك بعينيك؟ كان يمكن أن يحدث الأمر على هذا الشكل، أو على شكل آخر. فعندما تموت الآلهة فإنها تموت ميتات مختلفة دائماً.

حسناً! في جميع الأحوال لقد مات! لم يرق لذوق أذني وعيني، ولا أود التحدث عنه بسوء أكثر.

إنني أحب كل من ينظر بوضوح ويتحدث بصدق، وأما هو وأنت تعرف ذلك، أيها البابا العجوز، كان بعض الشيء من صنفك، من صنف القساوسة، وكان يمكن فهمه بصور مختلفة.

فغالباً كان يستحيل فهمه أبداً وكم كان يغضب منا، هذا المتنفس غضباً، لأننا كنا نسيء فهمه! فلماذا إذاً لم يتحدث بوضوح أكبر؟

وإذا كان العيب في آذاننا، فلماذا منَحَنا أذنين سمعهما سيئ؟ وإذا كانت القذارة تملأ آذاننا، فمن الذي وضعها هناك؟

كان يفشل في الكثير من الأمور، هذا الآثم الذي لم ينه تعليمه حتى النهاية! ولكنه إذا كان ينتقم من فخارياته التي عجنها ومخلوقاته، فلأنه لم ينجح في صنعهم، فقد كان ذلك إثماً ضد الذوق السليم.

يوجد في التدين ذوق سليم أيضاً، وهو يقول: "انصرف مع إله كهذا! والأفضل البقاء بلا إله أصلاً، والأفضل أن تصنع مصيرك على مسؤوليتك، والأفضل أن تكون مجنوناً، والأفضل أن تصبح إلهاً بنفسك!".

- "ما الذي أسمعه! - قال البابا العجوز وقد أرهف سمعه - آه، يا زرادشت، أنت أكثر تديناً مما تظن، مع كل هذا الكفر! فإن إلهاً ما حولك إلى كفرك.

أليس إيمانك نفسه لم يعد يسمح لك بالإيمان بالرب؟ وصدقك المفرط سيقودك أبعد، إلى الجانب الآخر من الخير والشر!

انظر، ما الذي بقي لك؟ لديك عينان ويدان وثغر، وقد خُصِصوا منذ الأزل لمنح البركات، فمنح البركة لا يتم باليدين فقط.

بالقرب منك، وعلى الرغم من أنك لا تريد أن تكون الأكثر كفراً، أشعر بشذى خفي لبركات طويلة، وأشعر أثناء ذلك بتحسن ومعاناة.

اسمح لي بأن أكون ضيفك، يا زرادشت، لليلة واحدة فقط! ولن أشعر بتحسن وارتياح في أي منطقة من الأرض، أكثر مما هو عليه عندك!"

- "آمين! ليكن كذلك! - قال زرادشت بدهشة عظيمة - هناك في الأعلى توجد مغارة زرادشت وهذا الطريق يقود إليها.

حقاً، كنت سأوصلك إلى هناك بسرور، أيها المحترم، لأنني أحب كل الناس المتدينين، والآن تبعدني عنك سريعاً صرخة استغاثة.

في مملكتي يجب ألاّ يصيب المكروه أحداً، ومغارتي ميناء جيد، وأكثر ما أرغب به، هو أن أضع كل حزين على قدميه ثانية فوق أرض صلبة.

ولكن من ذا الذي سيزيل حزنك عن كتفيك؟ إن ضعفي الشديد يجعلني لا أقوى على ذلك. حقاً، سنضطر للانتظار طويلاً إلى أن يحيي لك أحد ما إلهك من جديد، لأن هذا الإله العجوز لم يعد حياً، فقد مات تماماً".

هكذا تكلم زرادشت.

الإنسان الأكثر قبحاً

عادت قدما زرادشت للركض من جديد عبر الجبال والغابات، وعيناه كانتا تبحثان بلا توقف، ولكنه لم ير في أي مكان الشخص الذي يبحث عنه، والذي طلب النجدة وعانى حزناً عظيماً. وطوال الطريق كان فرحاً في داخله وممتلئاً امتناناً.

"كم من الأشياء الجيدة - قال - أهداني إياها هذا اليوم، مكافأة وتعويضاً عن بدئه بتلك الصورة السيئة! لقد وجدت متحدثين نادرين!

سأضطر طويلاً لهضم كلماتهم، كبذور الخبز الجيدة، وستضطر أسناني لطحنها بلا توقف، إلى أن تجري في نفسي كالحليب!".

وعندما دار الطريقُ ثانية حول الصخرة، تغير مباشرة مظهر المنطقة، ودخل زرادشت مملكة الموت، هنا كانت تبرز نتوءات الصخور السوداء والحمراء، ولا وجود للعشب والأشجار وتغريد العصافير، هنا كان الوادي الذي تتجنبه جميع الحيوانات وحتى المفترسة منها، وفقط الأفاعي من صنف واحد، القبيحة والسمينة والخضراء، كانت تزحف إلى هذا المكان بعد أن تهرم لتموت هنا، ولهذا كان الرعاة يسمون هذا الوادي بموت الأفاعي.

ولكن زرادشت غرق في ذكريات كئيبة، إذ إنه بدا له أنه وقف مرة في الماضي في هذا الوادي، وتذكر الكثير من الذكريات الثقيلة، ولهذا سار بهدوء أكثر فأكثر وأخيراً توقف نهائياً. هنا فتح عينيه، ورأى أمامه شيئاً جالساً على حافة الطريق، بمظهره يشبه الإنسان أو تقريباً إنسان، كان شيئاً يصعب التعبير عنه. ومباشرة سيطر على زرادشت خجل عظيم، لأنه اضطر لرؤية شيء مماثل بعينيه، فاحمر خجلاً وأشاح بوجهه وأراد الهرب من هذا المكان المشؤوم. وفجأة امتلأت الصحراء الميتة بأصوات الفحيح والخرخشة، الصادرة عن الأرض نفسها، شبيهة بخرير المياه في أنابيب المياه المسدودة، وأخيراً انتظمت هذه الأصوات في صوت بشري وحديث بشري، وقال الصوت:

"زرادشت! زرادشت! احزر سري! قل، قل! ما هو الانتقام للشاهد؟

إنني أحذرك، هنا جليد زلق! احرص، احرص، ألا يكسر كبرياؤك رجله هنا!

أنت تعتبر نفسك حكيماً، أنت يا زرادشت الأبي! إذاً أحزر السر، أنا كاشف الألغاز الماهر، اللغز الذي أمثله أنا! قل من أنا!"

ولكن عندما سمع زرادشت هذه الكلمات، ماذا تظنون حدث في نفسه؟

لقد غمرته الرأفة، وخر على وجهه، كشجرة البلوط التي قاومت طويلاً مجموعة من الحطابين، سقطت بتثاقل وفجائية أرعبت حتى الذين أرادوا قطعها. وها قد نهض عن الأرض ثانية، وتجهم وجهه.

"إنني أتعرف عليك جيداً - قال بصوت كصوت النحاس - أنت قاتل الرب! اتركني.

أنت لم تتحمل الذي رآك، الذي كان يراك حتى بواطنك دائماً، أنت أقبح إنسان! فهل انتقمت من هذا الشاهد؟"

هكذا قال زرادشت وأراد الذهاب، ولكن الذي يصعب التعبير عنه أمسكه من حافة ملابسه وعاد ثانية للفوران والبحث عن الكلمات.

"ابقَ! - قال أخيراً - ابقَ! لا تتجاهلني! لقد حزرت أي بلطة صرعتك، الثناء لك يا زرادشت، لأنك نهضت ثانية!

لقد حزرت، إنني أعرف هذا، كيف يشعر الذي قتله، قاتل الرب. ابقَ! اجلس بجانبي، فلن يكون ذلك عبثاً.

إلى من كنت أسعى غيرك؟ ابقَ، اجلس! ولكن لا تنظر إلي. أكرم بذلك قبحي!

إنهم يلاحقونني، وأنت الآن ملاذي الأخير. ليس بكراهيتك، وليس بمطاردتك، فمن مطاردة كهذه كنت لأسخر، وكنت لأفخر بها وأفرح بها!

ألم يكن النجاح حتى الآن إلى جانب المطارَدِين جيداً؟ والذي يطارِد جيداً، يتعلم التعقب بسهولة، وفق عادة اقتفاء الآثار! ولكن من رأفتهم أهرب وألتجئ إليك. آه، يا زرادشت، احمني، أنت ملاذي الأخير، أنت الوحيد الذي كشفت لغزي.

- لقد حزرتَ، كيف يشعر الذي قتله، ابقَ! وإذا كنت تريد الذهاب، أيها الملول، لا تمشِ في الطريق الذي مشيت فيه، فذلك الطريق سيئ.

أتغضب لأنني أثرثر طويلاً؟ وأنني بدأت أسدي لك النصائح؟ ولكن اعلم أنني أنا أقبح إنسان في الوجود.

ـ من عنده أكبر وأثقل رِجلين، فحيثما مشيت يصبح الطريق سيئاً ، إنني أحول كل الطرق إلى موت وعار.

ولكن من الطريقة التي مشيت بها بجانبي صامتاً ، وكيف احمر وجهك ، فقد رأيت ذلك ، عرفت فيك زرادشت.

أي شخص آخر كان ليرمي لي صداقته ورأفته ، بنظرة أو حديث ، ولكنني لست معدماً كفاية لهذه الغاية ، هذا الأمر عرفته أنت.

ـ إنني غني جداً من أجل ذلك ، غني بالعظيم والمرعب والأشد قبحاً والذي يصعب التعبير عنه! إن خجلك ، يا زرادشت ، أكرمني!

بصعوبة غادرت حشد الرؤوفين ، كي أجد الوحيد ، الذي يُعَلِّمُ اليوم أن "الرأفة مضجرة لجوجة" ، إنه أنت يا زرادشت!

ـ سواء كانت الرأفة إلهية أو بشرية ، فإنها تعارض الخجل. وعدم الرغبة في المساعدة يمكن أن تكون أكثر نبلاً من هذه الفضيلة الخدومة.

ولكن الرأفة تدعى اليوم عند جميع البشر الصغار بالفضيلة نفسها ، إنهم لا يتقنون تمجيد المصيبة العظيمة والقبح العظيم والفشل العظيم.

انظر من فوق رؤوسهم جميعاً ، كما ينظر الكلب من فوق ظهور الخراف المتحركة في قطعانها ، إنهم أناس حقيرون ومحبو الخير وجاهلون.

كالمالك الحزين ، أرجع رأسك للوراء ، وانظر باحتقار من فوق البرك الضحلة.

هكذا انظر من فوق غليان الأمواج الرمادية الصغيرة والرغبات الحقيرة والأنفس الحقيرة.

منذ زمن بعيد أُعطي الحق لهؤلاء البشر الحقيرين ، ولهذا مُنِحوا السلطة أخيراً ، والآن صاروا يُعَلِّمُون: "الجيد هو فقط ما يسميه البشر الحقيرين جيداً".

و"حقيقة" يدعى اليوم الشيء الذي تحدث عنه المتنبئ ، الذي هو نفسه خرج من بينهم ، هذا القديس الغريب والمدافع عن البشر الحقيرين ، الذي قال عن نفسه "أنا الحقيقة".

هذا المتباهي منذ زمن بعيد جعل الناس الحقيرين متكبرين ، هو الذي عَلَّمَ الوهم العظيم عندما قال: "أنا الحقيقة".

فهل ردوا على المتباهي ولو مرة بأدب؟ ولكنك أنت ، يا زرادشت ، مررت بجانبه وقلت: "لا! لا! لا بالثلاثة!".

لقد حذرت من وهمه، أنت أول من حذرت من الرأفة، ولم تحذر الجميع وكل من تراهم، بل فقط حذرت نفسك والذين هم أشباهك.

أنت تخجل من خجل المعاناة العظيمة، وحقاً، عندما تقول: "من عند الرأفة تقترب غيمة ثقيلة، احذروا أيها الناس!"

ـ وعندما تُعَلِّم: "كل الخلاّقين حازمون، وكل محبة عظيمة فوق رأفتهم". آه، يا زرادشت، كم تبدو لي حَسَن الدراية بإشارات الزمن!

ولكنك أنت نفسك احذر من رأفتك! إذ إن الكثيرين يتواجدون في طريقهم إليك، الكثير من الذين يعانون ويشكون وييأسون ويغرقون ويتجمدون.

إنني أحذرك كذلك من نفسي، فقد حزرت لغزي الأفضل ولغزي الأسوأ، الذي هو أنا وما قمت به، وأنا أعرف البلطة التي صرعتك.

ولكن هو كان يجب أن يموت، فقد كان ينظر بعينين تبصران كل شيء، كان يرى الأعماق وبواطن الإنسان، وكل عاره وقبحه الخفيين.

إن رأفته لم تعرف الخجل، وكان يتغلغل في أكثر أزقتي قذارة. الأكثر فضولاً، وبالغ الإلحاح، وفائق الرأفة، كان يجب أن يموت.

كان يراني دائماً، وكنت أريد الانتقام من هذا الشاهد، أو أن أموت أنا.

الرب، الذي كان يرى كل شيء، ولا أستثني الإنسان، هذا الرب كان يجب أن يموت! فالإنسان لا يَحتمل أن يعيش مع شاهد كهذا".

هكذا تحدث أقبح إنسان، أما زرادشت فقد نهض وهمَّ بالمغادرة، لأنه شعر بالسخونة حتى في أحشائه.

"أنت، لا يمكن التعبير عنك ـ قال له ـ لقد حذرتني من دربك، وعرفاناً بالجميل على ذلك أمدح لك دربي. انظر، هناك في الأعلى توجد مغارة زرادشت.

إن مغارتي كبيرة وعميقة، وفيها الكثير من الدهاليز، وهناك يجد الأكثر غموضاً مكانه السري.

وعلى مقربة توجد المئات من الشقوق ومئات من الملاجئ للحيوانات الزاحفة والطائرة والقافزة.

أنت المنبوذ، الذي نبذ نفسه، أنت لا تريد العيش وسط الناس ورأفتهم الإنسانية؟ حسناً، إذاً افعل مثلي!

بهذه الطريقة تتعلم مني، وفقط الذي يفعل يتعلم.

وقبل أي شيء تحدث مع حيوانيَّ! الحيوان الأكثر إباءً والحيوان الأكثر ذكاء، فليكونا لكلينا ناصحين وفيين!"

هكذا قال زرادشت وسار في طريقه، مستغرقاً أكثر في التفكير وأشد بطئاً من قبل، إذ إنه كان يسأل نفسه عن الكثير ويجد الأجوبة بصعوبة.

"كم هو فقير، الإنسان! - فكر في نفسه - وكم هو قبيح وكيف يَبُحُ، وكم يمتلئ بعار مكنون!

يقولون لي إن الإنسان يحب نفسه، آه، كم يجب أن تكون عظيمة هذه الأنانية! وكم هائل الاحتقار الذي يواجهه!

وهذا كان يحب نفسه بالقدر الذي يحتقر نفسه، برأيي إنه محب عظيم ومُحتقِر عظيم.

لم أقابل أحداً يوماً يحتقر نفسه لهذه الدرجة، وهذا هو العلو. الويل! ربما كان ذلك هو الإنسان الأعلى الذي سمعت صرخته؟

إنني أحب المحتقِرين العظماء، ولكن الإنسان هو شيء يجب التفوق عليه.

المتسول الطوعي

عندما غادر زرادشت أقبح إنسان، شعر بالبرد والعزلة، إذ إن الكثير مما هو بارد ومنعزل مر عبر مشاعره، بحيث بردت أعضاؤه، ولكنه أثناء صعوده أكثر فأكثر، فوق الجبال والوديان، مروراً بالمراعي الخضراء ومجرى النهر الحجري الفارغ، حيث كان يجري سابقاً نهر متلهف، شاقاً لنفسه الطريق، عاد إليه الدفء وتقوى قلبه.

"ما الذي أصابني؟ - سأل نفسه - شيء دافئ وحي يمدني بالقوة، يجب أن يكون على مقربة مني، لم أعد وحيداً كالسابق، هناك رفاق مجهولون وأخوة يتسكعون حولي، وأنفاسهم الدافئة تقلق نفسي".

وأخذ يتلفت من حوله باحثاً عن المعزين في وحدته، فرأى أبقاراً احتشدت فوق ربوة، فقُرْبُهم ورائحتهم دفآ قلبه. ويبدو أن هذه الأبقار كانت تستمع بانتباه إلى الإنسان الذي كان يحدثها، ولم تعر انتباهها للقادم الجديد.

وعندما اقترب زرادشت منها، سمع صوتاً بشرياً واضحاً وسط الأبقار، وكان واضحاً أن جميع الأبقار أدارت رؤوسها باتجاه المتحدث.

وعندها أسرع زرادشت إلى الربوة وفَرَّق الأبقار، لأنه كان يخشى أن يحصل مكروه لأحد هنا، والذي بالكاد كانت ستساعده رأفة الأبقار. ولكنه أخطأ في ذلك، فقد جلس أمامه إنسان على الأرض، وكان يبدو أنه يحاول إقناع الحيوانات بألاَّ تخشاه، إنسان مسالم وداعية جبلي، ومن عينيه كانت تعظ الطيبة.

"ما الذي تبحث عنه هنا؟" - صاح زرادشت مندهشاً.

"ما الذي أبحث عنه هنا؟ - رد الإنسان - نفس الذي تبحث عنه أنت، يا خارق السلام! أبحث عن السعادة فوق الأرض.

كنت أود تعلمها من هذه الأبقار، إذ إنني بقيت أتحدث معهن نصف الصباح، وكن على وشك الرد علي، فلماذا منعتهن؟

فإذا لم نرجع إلى الوراء ونصبح كالأبقار، لن ندخل مملكة السماء، إذ إن علينا تعلم شيء واحد منها، وهو المضغ.

حقاً، لو أن الإنسان امتلك العالم كله ولم يتعلم شيئاً واحداً هو المضغ، فأي فائدة سيحصل عليها؟ لأنه لن يتخلص من جزعه العظيم، الذي يدعى اليوم بالاشمئزاز العظيم. ومن ذا الذي لا يمتلئ قلبه وثغره وعيناه اشمئزازاً؟ عندك! وعندي! ولكن انظر إلى هذه الأبقار!"

هكذا تحدث الداعية الجبلي ورفع نظره إلى زرادشت، إذ إنه حتى تلك اللحظة كان ينظر بمحبة إلى الأبقار، وفجأة تغيرت تعابيره.

"من هذا؟ مع من أتحدث؟ - صرخ خائفاً وقفز عن الأرض. إنه الإنسان الحر من الاشمئزاز، إنه زرادشت نفسه، قاهر الاشمئزاز العظيم، هاتان عينا وهذا ثغر وهذا قلب زرادشت نفسه".

وأثناء قوله ذلك امتلأت عيناه بالدموع، وقبل يد الذي وجه حديثه إليه، وتصرف تماماً كالذي سقطت عليه فجأة هبة ثمينة من السماء أو كنز، وكانت الأبقار تنظر إليه بدهشة.

"لا تتكلم عني، أيها الحالِم الغريب العزيز! - قال زرادشت محاولاً حماية نفسه من لطف الرجل - تكلم عن نفسك أولاً! ألست أنت هو المتسول الطوعي، الذي تخلى يوماً عن ثروة كبيرة، والذي خجل من غناه ومن الأغنياء وهرب إلى الأكثر فقراً، كي يقدم لهم قلبه وما زاد عن حاجته؟ ولكنهم لم يستقبلوه".

"ولكنهم لم يستقبلوني - قال المتسول الطوعي - أنت تعرف ذلك جيداً. ولهذا ذهبت في نهاية المطاف إلى الحيوانات وإلى هذه الأبقار".

"هناك تعلمت - قاطع زرادشت المتحدث - أن إتقان المنح أصعب من إتقان الأخذ، وأن المنح الجيد فن، وفن أعلى، الفن الأكثر تعقيداً عند الطيبة".

"وبخاصة في أيامنا هذه - رد المتسول الطوعي - وبخاصة الآن عندما تمرد كل ما هو دنيء، وصار مرتاباً ومتكبراً بطريقته، بطريقة الحشد.

إذ إنه وكما تعلم، دقت ساعة الثورة العظيمة للحشد والعبيد، الثورة القاتلة الطويلة والبطيئة، وهي تنمو أكثر فأكثر!

الآن يثير استياء الطبقات الدنيا كل إحسان وصدقة مستخفة، وكل الذين هم أغنياء جداً، فليتوخوا الحذر!

فالذين اليوم يشبهون الزجاجة المكرشة التي تسرب عبر فوهة ضيقة جداً، هؤلاء يحبون اليوم كسر أعناقهم.

الجشع الشهواني والحسد الضجر وحب الانتقام المقموع وكبرياء الحشد، كل هذا بدا لي واضحاً، لم يعد صحيحاً أن المتسولين مغتبطون، بل إن مملكة السماء عند الأبقار".

"ولماذا ليست عند الأغنياء؟" ـ سأل زرادشت متفحصاً، مبعداً الأبقار التي كانت تشم بمحبة الداعية المسالم.

"لماذا تختبرني؟ فأنت تعرف ذلك أفضل مني. ما الذي كان يدفعني إلى الأشد فقراً، يا زرادشت؟ أليس هو الاشمئزاز من أغنيائنا؟

من عبيد الثروة، الذين كانوا يجنون أرباحهم من الزبالة، بعيون باردة وأفكار شهوانية، من هؤلاء الرعاع، الذين تصدر عنهم النتانة نحو السماء.

إلى هؤلاء الرعاع الكاذبين المتزينين بالذهب، الذين كان أجدادهم لصوصاً، أو صقور جيفة، أو ضعاف الإرادة، الحريصين على النساء، الشهوانيين وكثيري النسيان، إذ إنهم جميعاً لم يبتعدوا كثيراً عن الفاجرين.

الرعاع في الأعلى، والرعاع في الأسفل! وماذا يعني اليوم "الفقير والغني"! لقد نسيت هذا الفرق، وركضت أبعد وأبعد وأبعد، إلى أن وصلت إلى هذه الأبقار".

هكذا تحدث الداعية المسالم، وكان يتنفس بصعوبة ويعرق وهو يتلفظ بكلامه، بحيث عادت الأبقار إلى الاستغراب ثانية. ولكن زرادشت، وطوال حديث الرجل بهذه الطريقة الجافية، كان ينظر إلى وجهه مبتسماً ويهز رأسه صامتاً أثناء ذلك.

"إنك تغصب نفسك عنوة، أيها الداعية الجبلي، باستخدام هذه الكلمات الجافية. وثغرك وعيناك لا يصلحون لجفاء كهذا.

وكما يبدو لي، فحتى معدتك تشمئز من كل غضب وكل كره يرغي زبده في فمه. إن معدتك تطالب بطعام أكثر ليونة، فأنت لا تحب اللحم.

إنك تبدو لي محباً للغذاء النباتي أكثر وجامعاً للأعشاب والجذور، وربما تمضغ الحبوب. على أي حال، أنت لا تجد المتعة في اللحم، وتحب العسل".

"لقد حزرت ـ أجاب المتسول الطوعي وقد زال الهم عن قلبه ـ أنا أحب العسل وأمضغ الحبوب، لأنني أبحث عن اللذيذ الذي يجعل الأنفاس نقية.

ـ وكذلك عما يتطلب وقتاً طويلاً والذي تجتهد عليه أياماً كاملة أفواه الكسالى الودعاء والطفيليين.

ولكن المتفوقين في هذا المجال هن الأبقار، فقد ابتكرن المضغ والاستلقاء تحت الشمس، وهن تتمنعن عن كل الأفكار الثقيلة التي تزعج القلب".

"حسناً! ـ قال زرادشت ـ يجدر بك كذلك أن تنظر إلى حيواناي، نسري وأفعتي، لا يوجد لهما مثيل فوق الأرض الآن.

انظر، هناك الطريق الذي يقود إلى مغارتي، فكن ضيفاً فيها هذه الليلة، وتحدث مع حيواناي حول سعادة الحيوانات، إلى أن أعود. والآن تبعدني عنك مستعجلاً صرخة استغاثة. كما أنك ستجد عندي عسلاً جديداً، في الخلايا الطازجة الذهبية، كُلْهُ!

والآن أسرع بتوديع أبقارك، أيها الحالم الغريب العزيز! مهما كان ذلك صعباً عليك، لأنها أفضل أساتذتك وأصدقاءك!"

"باستثناء شخص واحد، أحبه أكثر منها ـ رد المتسول الطوعي، فأنت نفسك طيب وأفضل من أية بقرة، يا زرادشت!".

"اغرب عن وجهي! أيها المتملق الدنيء! ـ صاح زرادشت بغضب ـ لما تشوهني بمديح كهذا وبعسل التملق؟".

اغرب عن وجهي! ـ صرخ مرة ثانية ولوح بعصاه مهدداً المتسول الرقيق، ولكن الأخير هرب منه مسرعاً.

الظل

وما إن هرب المتسول الطوعي حتى عاد زرادشت ثانية وحيداً مع نفسه، فسمع خلف ظهره صوتاً جديداً ينادي: "قف! يا زرادشت! انتظرني! فهذا أنا، يا زرادشت، أنا ظلك!" ولكن زرادشت لم يتوقف، إذ إن استياءً مفاجئاً قد سيطر عليه، من تجمع كهذا في جباله.

"إلى أين ذهبت عزلتي؟ ـ قال لنفسه ـ حقاً، هذا يصبح كثيراً جداً علي، فهذه الجبال تعج بالناس، ومملكتي لم تعد من هذا العالم، إنني بحاجة لجبال جديدة. إن ظلي يناديني؟ وما شأني بظلي! دعه يركض خلفي! أنا سأهرب منه".

هكذا تحدث زرادشت في نفسه وركض أسرع. ولكن الذي كان خلفه، تابع تعقبه، بحيث تشكل ثلاثة راكضين خلف بعضهم بعضاً، في المقدمة ركض المتسول الطوعي، ثم زرادشت وأخيراً ظله. ولكنهم لم يطيلوا الركض، لأن زرادشت أدرك جنونه سريعاً ونفض عن نفسه كل غضب وكل اشمئزاز.

"كيف! ـ قال زرادشت ـ أليست أكثر الأشياء فكاهة كانت تحدث معنا منذ الأزل، نحن النساك القدامى والقديسون؟

حقاً، إن جنوني قد تنامى كثيراً في الجبال! وإنني أسمع الآن، كيف تركض ستة أقدام مسنة، تعود للمجانين، واحدة تلو الأخرى!

ولكن هل يحق لزرادشت أن يخاف من ظل ما؟ وأخيراً، يبدو لي أن رجليه أطول من رجلَي".

هكذا تحدثَ زرادشت وهو يضحك بعينيه وبكامل باطنه، فتوقف والتفت سريعاً إلى الوراء، بحيث كاد يوقع الظل الذي كان يتبعه أرضاً، فقد كان يتبعه قريباً جداً منه وكان ضعيفاً جداً. إذ إنه عندما قاسه بعينيه، شعر بالخوف، وكأنه أمام شبح مفاجئ، فقد كان المتعقِب نحيلاً وأسود ومنهكاً وعجوزاً.

"من أنت؟ ـ سأل زرادشت بخشونة ـ وماذا تفعل هنا؟ ولماذا تدعو نفسك بظلي؟ أنت لا تعجبني".

"سامحني - رد الظل - على أنني أنا، وإذا كنت لا أعجبك، فحسناً! آه، يا زرادشت، إنني أمدحك وأمدح ذوقك السليم.

أنا الرحالة، الذي تبعك طويلاً. دائماً مسافر، بلا هدف وبلا وطن، بحيث لم يعد يفصلني الكثير عن المنبوذ الخالد، ولكنني لست خالداً ولست منبوذاً.

كيف؟ هل علي دائماً التواجد في السفر؟ تجذبني وتضطهدني كل ريح؟ آه، يا أيتها الأرض، لقد أصبحت بالنسبة لي مستديرة جداً!

لقد تواجدت فوق كل سطح، كغبار منهك، غفوت فوق المرايا وزجاج النوافذ. كل شيء يأخذ مني، ولا أُعطى شيئاً، إنني أزداد نحولاً، وأصبحت أشبه الظل.

ولكنني تبعتك أنت يا زرادشت أطول مدة، وإذا كنت أختبئ منك، فإنني مع ذلك كنت ظلك الوفي، فحيثما جلست كنت أجلس أيضاً.

معك جبت أكثر العوالم بعداً وبرداً، كالشبح الذي يعجبه الركض شتاءً فوق الأسطح وفوق الثلج.

معك سعيت إلى كل ما هو ممنوع ورديء وبعيد، وإذا كان ممكناً أن يسمى شيء فيَّ بالفضيلة، فهو أنني لم أخف من أي حظر.

معك كسرت كل ما كان يمجده قلبي في يومٍ ما. كل الأعمدة الحدودية وكل الأصنام قلبتها، وسعيت وراء أخطر الرغبات، حقاً، لقد مررت عبر كل الجرائم يوماً.

معك فقدت إيماني بالكلمات والقيم والأسماء العظيمة. ألا يسقط اسم الشيطان عندما يبدل جلده؟ إذ إن الاسم ليس سوى جلد وربما الشيطان نفسه ليس أكثر من جلد.

"لا وجود للحقيقة، كل شيء مسموح" هكذا كنت أقنْع نفسي، وكنت أغوص بقلبي ورأسي في أكثر المياه برودة. آه، لهذا وقفت كثيراً عارياً ومحمراً كالسرطان!

آه، إلى أين ذهب كل ما هو طيب، وكل الخجل، وكل الإيمان بالطيبين! آه، إلى أين ذهبت تلك البراءة الكاذبة، التي كنت أتمتع بها في يومٍ ما، براءة الطيبين وكذبهم النبيل!

إذ إنني كثيراً ما تبعت الحقيقة، وكانت تنبذني بفظاظة. وكثيرة هي المرات التي ظننت فيها أنني أكذب، وعندها فقط كنت ألامس الحقيقة.

- لقد توضح لي الكثير، والآن لم يعد يخصني، لم يعد شيء مما أحب حياً، فكيف يمكنني بعد الآن أن أحب نفسي؟

"العيش كما يعجبني، أو عدم العيش أصلاً" هكذا أريد، وهكذا يريد القديس نفسه. ولكن وللأسف! هل ما زال هناك فرح لي؟

هل ما زال عندي هدف؟ والميناء الذي تسرع إليه سفينتي؟ الرياح المواتية؟ آه، فقط الذي يعرف إلى أين يتجه، يعرف أي الرياح مواتية له.

فما الذي بقي لي بعد؟ قلب متعب جريء وإرادة قلقة وجناحان لا يصلحان للطيران وعمود فقري مكسور.

وهذا البحث عن بيتك، آه، يا زرادشت، فأنت تعلم أن هذا البحث كان عقوبة لي، إنه يلتهمني.

"أين هو بيتي؟" إنني أسأل عنه، أبحث عنه وبحثت عنه ولم أجده. آه، أيها الكل الخالد، أيها اللاشيء الخالد، أيها العبث الخالد!".

هكذا قال الظل، وكان وجه زرادشت يستطيل مع تلك الكلمات. "نعم، أنت ظلي - قال أخيراً بحزن.

ويتهددك خطر كبير، أنت الروح الحرة والرحالة! كان يومك سيئاً، فاحذر أن يكون المساء أشد سوءاً!

فلِلقَلِقين أمثالك حتى السجن يمكن أن يبدو غبطة. هل رأيت يوماً كيف ينام المجرمون المساجين؟ إنهم ينامون بهدوء واطمئنان، إنهم يستمتعون لأول مرة بالأمان.

- احذر، كي لا يوقعك في شباكه أي إيمان ضيق، وأي وهم قاسٍ صارم! إذ إن ما يجذبك الآن هو كل ضَيقٍ وصلبٍ.

لقد أضعت الهدف، وا أسفاه، كيف يمكنك أن تعزي نفسك بهذه الخسارة؟ وبالإضافة إلى ذلك فقدت الطريق!

أيها الحالم المسكين المتجول، الفراشة المتعبة! ألا تريد في هذا المساء أن يكون لك مأوى وراحة؟ إذاً اصعد إلى مغارتي!

هذا الطريق يقود إلى مغارتي، والآن سأهرب منك سريعاً، فالظل بدأ يلقي بنفسه علي.

سأركض وحيداً كي يزداد النور مجدداً من حولي. كما أنه ما يزال علي البقاء طويلاً في حالة مرح ونشاط، ففي المساء سيكون لدي رقص!"

هكذا تكلم زرادشت.

في ساعة الظهيرة

تابع زرادشت الركض طويلاً، ولم يكن يجد أحداً. كان وحيداً وتابع ملاقاة نفسه فقط، وكان يستمتع ويرتوي بوحدته ويفكر بأمور جيدة، طوال ساعات كاملة. وفي ساعة الظهيرة، وعندما كانت الشمس مخيمة فوق رأسه مباشرة، مر زرادشت بجانب شجرة هرمة، معوجة وكثيرة الأغصان، كانت محاطة من جميع جوانبها بمحبة كرمة العنب حتى باتت مخفية عن نفسها، وكانت تتدلى منها إلى المسافر عناقيد صفراء بغزارة. رغب زرادشت إرواء عطشه البسيط وهم بقطف عنقود واحد، ولكن ما إن مد يده إلى الشجرة، حتى تملكته رغبة أخرى، أشد قوة، وهي الاستلقاء في ظل الشجرة في ساعة الظهيرة والنوم.

وهذا ما فعله زرادشت، وما إن استلقى على الأرض وسط الهدوء الغامض الذي ساد المرج المرقش، حتى نسي فوراً عطشه البسيط وغرق في نومه، إذ إنه كما يقول مَثَلُ زرادشت "هناك أمر أشد ضرورة من آخر". ولكن عينيه بقيتا مفتوحتين، لأنهما كانتا لا تشبعان من النظر والاستمتاع بالشجرة ومحبة كرمة العنب لها، وأثناء استغراقه في النوم، قال لنفسه:

"اهدأ! اهدأ! ألم يصبح العالم كاملاً؟ فما الذي يحدث لك؟

النوم يرقص فوقي كالريشة الخفيفة وكالنسيم العليل الراقص خفية فوق سطح البحر الأملس.

إنه لا يغمض عينيَّ، ويبقي نفسي صحوة، إنه حقاً خفيف كالريشة.

إنه يقذفني لا أدري كيف؟ إنه يلامس جوفي بيد ملاطفة، إنه يجبرني، نعم، إنه يجبر نفسي على الانبساط.

ـ كم تصبح طويلة ومرهقة، نفسي الغريبة! أيعقل أن مساء اليوم السابع جاء بالنسبة لها في وقت الظهيرة؟ ألم تتجول طويلاً، مغتبطة وسط الأشياء الخيرة والناضجة؟

إنها تتبسط طويلاً، أكثر فأكثر! إنها تستلقي بهدوء، نفسي الغريبة. لقد تذوقَتْ الكثير من الخير، إن هذا الحزن الذهبي يثقل عليها، إنه يقيد الثغر.

ـ كالسفينة التي رست في أهدأ مراسيها، تستند الآن إلى الأرض، متعبة من ترحالها الطويل ومن البحار المجهولة. أليست الأرض أكثر أماناً؟

فعندما ترسو سفينة كهذه إلى الشاطئ وتلتصق به، عندها يكفي للعنكبوت أن يمد خيطاً من الأرض إليها، ولا حاجة لحبل أكثر متانة.

إنني الآن كتلك السفينة المتعبة في الميناء الهادئ، أرتاح بالقرب من الأرض، وفياً وصريحاً ومترقباً ومتصلاً بها بأرق الخيوط.

يا للسعادة! يا للسعادة! ألا ترغبين بالغناء، يا نفسي؟ أنت مستلقية فوق العشب. ولكن الساعة الآن غامضة مهيبة، عندما لا يعزف أي راعٍ على نايه.

احذري! فالظهيرة الحارة تنام فوق الحقول. لا تغني! اهدئي! العالم كامل الآن.

لا تغني، يا عصفورة المروج، يا نفسي! ولا تتحدثي حتى همساً! انظري، الهدوء من حولك! إن ساعة الظهيرة المسنة نائمة، إنها تحرك شفتيها، أليست تشرب الآن قطرة السعادة.

ـ القطرة العتيقة القاتمة من السعادة الذهبية، الخمر الذهبي؟ السعادة تمر فوقها، إن سعادتها تضحك. هكذا يضحك الرب. اهدؤوا!

"من أجل السعادة، نحتاج للقليل من أجل السعادة!" ـ هكذا قلت يوماً واعتبرت نفسي حكيماً، ولكنه كان انتقاصاً، هذا ما تعلمته الآن. فالمجانين الحكماء، يقولون أفضل من ذلك.

إذ إن كل ما هو صغير ضئيل، والأكثر هدوءاً، والأكثر خفة، كحس السحلية والنسمة واللحظة والوهلة، أي الكمية القليلة، يشكل نوعية السعادة الأفضل، فاهدؤوا!

ـ ما الذي أصابني؟ اسمع! ألم يغادر الوقت؟ ألست أسقط؟ ألم أسقط في بئر الخلود؟

ـ ما الذي أصابني؟ هدوء! آه، يا للمصيبة! لقد شعرت بوخزة في قلبي؟

في عمق قلبي؟ آه، انكسِرْ، انكسر، أيها القلب، بعد سعادة كهذه، بعد وخزة كهذه!

ـ كيف؟ ألم يصبح العالم الآن أكثر كمالاً واستدارة واخضراراً؟ آه، أيها القرص الأخضر المستدير إلى أين تطير؟ فهل أجري خلفه؟ هدوء!

"هدوء" ـ (وهنا تمطط زرادشت وشعر بأنه نائم).

"قم، أنت، أيها الناعس! ـ قال لنفسه ـ أنت النائم في ساعة الظهيرة! هيا، انهضا أيتها الرِجلان المسنتان! لقد آن الأوان، منذ زمن، وما زال أمامكما طريق طويلة.

لقد نمتما جيداً، فهل نمتما طويلاً؟ نصف الدهر! حسناً.

انهض الآن، يا قلبي العجوز! وهل تحتاج لوقت كثير بعد نوم كهذا لتستيقظ؟"

(وهنا عاد ثانية إلى النوم، وكانت نفسه تعارض وتدافع عن نفسها واستلقت ثانية) - "اتركني! هدوء! ألم يصبح العالم كاملاً الآن؟ أيها القرص الدائري الذهبي!".

"انهضي - قال زرادشت - أنت، أيتها السارقة الصغيرة الكسولة! كيف؟ ما زلت تريدين أن تتمطي وتتثاءبي وتتنهدي وتسقطي في آبار عميقة؟ فمن أنت، يا نفسي!" (وهنا شعر بالخوف، لأن شعاع الشمس سقط من السماء على وجهه مباشرة).

"آه، أيتها السماء من فوقي - قال متنهداً وجلس - أنت تنظرين إلي؟ أنت تستمعين إلى نفسي الغريبة؟ متى تشربين قطرة الندى هذه، التي وقعت على كل ما هو أرضي، متى تشربين هذه النفس الغريبة؟

- متى، يا بئر الخلود! أنتِ اللجة العميقة المرعبة في ساعة الظهيرة! متى تسحبين إليك نفسي ثانية؟"-

هكذا قال زرادشت ونهض عن فراشه بالقرب من الشجرة، وكأنما بعد سَكَرٍ غريب، وبقيت الشمس فوق رأسه مباشرة. ويمكن الاستنتاج من ذلك بحق، أن زرادشت في تلك المرة لم ينم طويلاً.

التحية

وفقط في ساعة متأخرة من المساء، وبعد بحث عبثي طويل، عاد زرادشت ثانية إلى مغارته. ولكنه وعندما توقف على بعد عشرين خطوة منها، حدث الشيء الذي كان لا يتوقعه، فقد سمع ثانية صرخة عظيمة تطلب النجدة. والغريب أنه في هذه المرة كانت الصرخة تصدر من مغارته، ولكنها كانت صرخة طويلة ومركبة وغريبة، وتبين لزرادشت بوضوح أنها تتكون من عدة أصوات، ومن بعيد فقط كان يمكن الظن أنها صرخة إنسان واحد.

وعندها أسرع زرادشت إلى المغارة، وشاهد المشهد الذي كان ينتظره بعد هذا الكورس! فهناك جلسوا مجتمعين كل من قضى معهم زرادشت يومه، الملك الأول والملك الثاني والساحر العجوز والبابا والمتسول الطوعي والظل وحي الضمير والروح والمتنبئ المتجهم والحمار وأقبح إنسان واضعاً على رأسه تاجاً ومحيطاً خصره بزنارين أحمرين، لأنه كان يحب ككل القبيحين ارتداء الثياب الجميلة. وفي وسط هذا الجمع الحزين وقف نسر زرادشت، أشعثاً وقلقاً، إذ كان عليه الإجابة عن الكثير من الأسئلة، التي لم يكن عند عزة نفسه جواب عليها، وكانت الأفعى الحكيمة معلقة حول عنقه.

نظر زرادشت إلى كل ذلك بدهشة عظيمة، ثم نظر بصورة منفصلة إلى كل واحد من ضيوفه بفضول متسامح، وقرأ أنفسهم مندهشاً. وفي تلك الأثناء نهض الجالسون من أماكنهم وانتظروا بإجلال أن يتكلم زرادشت، فقال زرادشت: "أنتم أيها اليائسون! أنتم بشر غرباء الأطوار! أكانت تلك صرخة استغاثتكم؟ الآن أعرف أين يجب أن أبحث عن الذي بحثت عنه عبثاً طوال اليوم، عن الإنسان الأعلى.

- ففي مغارتي يجلس الإنسان الأعلى! ولكن مم أندهش! ألست أنا نفسي استملته إلى هنا بأضاحي العسل وطعوم سعادتي الماكرة؟

ولكن يبدو لي أنكم لا تصلحون لمجتمع واحد، أنتم أيها المستغيثون، أنتم تربكون قلوب بعضكم بعضاً، جالسين هنا سوية؟ أولاً يجب أن يأتي شخص يدفعكم إلى الضحك من جديد، دَعَّابة مرح وطيب وراقص ومتهور، هو كالريح، عجوز مجنون، ألا تعتقدون ذلك؟

ولكن اعذروا لي، أيها البائسون، توجيهي إليكم هذا الحديث التافه، الذي حقاً لا يليق بضيوف مثلكم! ولكنكم لا تتوقعون ما الذي يجعل قلبي منتعشاً.

ـ أنتم ومظهركم تجعلونه كذلك، اعذروني! إن كل من ينظر إلى شخص يائس يصبح منتعشاً نشيطاً، لأجل تعزية اليائس يعتبر كل شخص نفسه قوياً كفاية.

لقد أكسبتموني أنا نفسي هذه القوة، هذه الهبة الثمينة، يا ضيوفي الرفيعي المقام! هدية حقيقية يقدمها ضيوف! حسناً، لا تغضبوا، لأنني أقدم لكم كل ما لدي.

"هنا مملكتي وأملاكي، ولكن كل ما هو لي في هذا المساء وهذه الليلة يجب أن يكون لكم، فلتخدمكم حيواناتي، ولتكن مغارتي مكاناً لاستراحتكم!

في بيتي وبجانب موقدي، يجب ألاّ ييأس أحد، فضمن أملاكي أحمي كل شخص من حيواناته المفترسة، وأول ما أعرضه عليكم هو الأمان!

وثانياً خنصري، وإذا كان لديكم، خذوا اليد كلها، حسناً! والقلب معها. أهلاً بكم، أحييكم، يا ضيوفي الأعزاء!"

هكذا تحدث زرادشت وهو يضحك، ممتلئاً محبة وغضباً. وبعد هذا الترحيب انحنى له ضيوفه ثانية بصمت جليل، فرد عليه الملك الأول باسمهم جميعاً.

"بالطريقة التي مددت لنا فيها يدك وحييتنا، يا زرادشت، تعرفنا عليك. لقد تذللت أمامنا، وأهنت تقريباً احترامنا لك.

ـ ولكن من ذا الذي يقدر على التذلل مثلك بكل هذا الكبرياء؟ إن ذلك ينعشنا، إنه متعة لعيوننا وقلوبنا.

لرؤية هذا فقط، كنا سنصعد جبالاً أكثر علواً من هذا الجبل. إذ إننا جئنا كمحبي العروض، أردنا رؤية ما يجعل النظر صافياً وحزيناً.

وها قد توقف كل صراخ استغاثة لدينا، وفُتِحت أفكارنا وقلوبنا وانبهرت. نحتاج للقليل وتصبح مروءتنا نشيطة.

لا شيء، يا زرادشت، ينمو فوق الأرض أكثر فرحاً من الإرادة القوية العالية، إنها الأروع من بين منتجاتها. منظر طبيعي كامل ينتعش من شجرة واحدة كهذه.

بشجرة الأرز، يا زرادشت، أشَبِّه كل من ينمو مثلك، عالياً وصامتاً وصلباً ومنعزلاً، مصنوعاً من أفضل خشب مرن ورائع.

ـ تمد أغصانها القوية الخضراء خارج حدود أملاكها، وبنشاط تُسائل الرياح والعواصف، وكل ما هو منذ الأزل قريب من العلو.

ـ تجيب بحيوية أكبر، وتأمر منتصرة، آه، من ذا الذي لن يصعد إلى الجبال العالية، فقط لينظر إلى جبال كهذه؟

تحت شجرتك، يا زرادشت، ينتعش الحزين والفاشل، وعندما يراك القلِق يهدأ ويشفى قلبه.

وحقاً، إلى جبلك وإلى شجرتك موجهة اليوم أنظار الكثيرين، لقد نشأت لهفة عظيمة، وكثيرون تعلموا كيف يسألون: من هو زرادشت؟

وجميع، من كنت يوماً تصب في آذانهم قطرة إثر قطرة أغنيتك وعسلك، جميع المختبئين ومن كانوا يعيشون وحيدين أو سوية، تحدثوا مباشرة مع قلوبهم.

"هل لا يزال زرادشت حياً؟ الحياة لم تعد تستحق أن نحياها، ففي جميع الأحوال، كل شيء عبثي، وعلينا أن نعيش مع زرادشت!".

"لماذا لا يأتي الذي بشر عن نفسه منذ زمن بعيد؟ ـ هكذا يتساءل الكثيرون ـ فهل ابتلعته العزلة؟ أم أنه علينا الذهاب إليه بأنفسنا؟".

إذ يحدث الآن، أن العزلة نفسها بليت وتفتتت، كالقبر الذي يتفتت ويعجز عن الاحتفاظ بموتاه. في كل مكان تشاهد الذين بعثوا من جديد.

الآن ترتفع الأمواج أكثر فأكثر حول جبلك، يا زرادشت، ومهما كان علوك عالياً، كثيرون يجب أن يصعدوا إليك، فقاربك لن يبقى طويلاً فوق اليابسة.

وإننا، نحن اليائسون، جئنا إلى مغارتك ولم نعد نشعر باليأس، وهذا ليس إلا إشارة إلى أن أفضل الناس في طريقهم إليك.

ـ إذ إنه هو نفسه يتواجد في طريقه إليك، آخر ما بقي من الرب بين الناس، وهكذا هم كل أصحاب التلهف العظيم والاشمئزاز العظيم والشبع العظيم.

ـ كل من لا يريدون العيش إذا لم يتعلموا الأمل من جديد، إذا لم يتعلموا منك يا زرادشت، الأمل العظيم!"

هكذا تحدث الملك الأول وأمسك بيد زرادشت كي يقبلها. ولكن زرادشت تهرب من توقير الملك له وتراجع خائفاً وصامتاً وكأنما اتجه فجأة إلى البعيد.

ولكنه بعد قليل عاد إلى ضيوفه، ونظر إليهم نظرة صافية مختبِرة وقال: "يا ضيوفي، أنتم أناس أعلون، وأريد أن أحدثكم بالألمانية وبوضوح، لستم أنتم من انتظرتهم هنا في هذه الجبال".

("بالألمانية وبوضوح؟ معاذ الله! - قال عندها الملك الثاني - واضح أنه لا يعرف الألمان، هذا الحكيم القادم من الشرق! ولكنه يريد أن يقول "بالألمانية وبخشونة". حسناً! بالنسبة لليوم هذا ليس الذوق الأسوأ!")

ليكن، حقاً، ستكونون سوية أناساً أعلين، ولكن بالنسبة لي أنتم لستم رفيعي المستوى كفاية ولا أقوياء كفاية.

بالنسبة لي يعني بالنسبة لعديم الشفقة، الصامت في داخلي، الذي لن يبقى صامتاً دائماً، وحتى إذا كنتم تنتمون إلي، فليس كانتماء يدي اليمنى إلي.

لأن الذي يمشي على رجلين مريضتين وضعيفتين، مثلكم، فذاك يريد قبل كل شيء، سواء علم ذلك أو أخفاه عن نفسه، أن يرحموه.

ولكنني لا أرحم رجليَّ ويديَّ، ولا أرحم جنودي، فكيف يمكن أن تصلحوا لحربي؟

معكم كنت سأقتل كل نصر، وكثيرون منكم كانوا ليسقطوا ما إن يسمعوا صوت قرع طبولي العالي.

كذلك أنتم بالنسبة لي، لستم رائعين كفاية ولستم نبلاء كفاية. إنني أستخدم المرايا النظيفة والملساء لتعاليمي، وعلى سطحكم تتشوه حتى صورتي الذاتية.

إن أكتافكم تنوء تحت أعباء وذكريات كثيرة، والكثير من الأقزام يجلسون متلوين في أزقتكم، وحتى فيكم يوجد رعاع خفي.

وحتى وإن كنتم رفيعي المستوى ومن سلالة رفيعة، فإن الكثير مما فيكم منحرف وقبيح، ولا يوجد في العالم حَدَّاد يستطيع إصلاحكم وتقويمكم.

ما أنتم إلا جسر، كي يستطيع الأعلون العبور من فوقكم! أنتم تعنون الدرجات، فلا تغضبوا من الذي يتسلقكم ليصل إلى علوه!

ربما، سينشأ من نطافكم يوماً ابن حقيقي لي ووريثي الكامل، ولكن ذلك لا يزال بعيداً، وأنتم لستم الذين يعود إليكم إرثي واسمي.

إنـني لا أنتظـركم، أنـتم، في هـذه الجبـال، ولـيس معكـم سـأنزل للأسـفل لآخـر مـرة، ولكنكم كإشارة جئتم إلي، تنبئني بأن الناس الأعلون يتواجدون في طريقهم إلي.

ـ ليسوا أصحاب اللهفة العظيمة والاشمئزاز العظيم والشبع العظيم، وليس الذين سميتموهم بآخر بقايا الرب.

ـ لا! لا! لا بالثلاثة! آخرون أنتظرهم هنا في هذه الجبال، وبدونهم لن أحرك رجلي كي أغادر هذا المكان

ـ الأعلون، الأكثر قوة والمنتصرون والأكثر مرحاً، الذين بنيت أجسامهم وأنفسهم بطريقة صحيحة، الأسُود الضاحكة يجب أن تأتي!

آه، يا ضيوفي المرغوب بكم، أنتم أناس غريبو الأطوار، أيعقل أنكم لم تسمعوا شيئاً عن أولادي وأنتم في طريقكم إلي؟

إنكم تحدثونني عن حدائقي وجزر غبطتي وذريتي الجديدة الرائعة، فلماذا لا تحدثونني عن أولادي؟

هـذه الهبـة أرجوهـا مـن محبتكم، أن تحـدثوني عـن أولادي. بهـم غـني أنـا، ومـن خلالهـم أصبحت فقيراً، وكنت لأعطي أي شيء لأمتلك شيئاً أحداً، هؤلاء الأولاد، هذه الـزروع الحيـة، أشجار الحياة، إرادتي وأملي الأكبر!"

هكذا تحدث زرادشت ثم قطع كلامه فجأة، لأنه غـُمِرَ بالهفة، فأغمض عينيه وأغلق فمه، فقد كانت حركة قلبه عظيمة. وصمت ضيوفه كذلك، وجمدوا بلا حراك مرتبكين، وفقط المتنبئ العجوز كان يقوم بإشارات بيده وتعابير وجهه.

الوليمة

وهنا قاطع المتنبئ ترحيب زرادشت وتحية ضيوفه، فاندفع للأمام كالذي لا يمكنه إضاعة الوقت، وأمسك بيد زرادشت وصاح: "ليكن، يا زرادشت! هناك أمر يكون أكثر ضرورة من الآخر، هكذا قلت أنت، حسناً، هناك أمر واحد بالنسبة لي هو أكثر ضرورة من كل الأمور الأخرى.

وبالمناسبة، ألم تدعوني إلى وليمة؟ هنا يجلس الكثيرون من الذين قاموا برحلة طويلة، أم أنك تريد إطعامنا بأحاديثك؟

كما أننا تحدثنا كثيراً حول التجمد برداً والغرق والاختناق والمصائب الجسدية الأخرى، ولكن لم يتذكر أحد مصيبتي وهي الخوف من الموت جوعاً".

(هكذا تحدث المتنبئ، ولكن عندما سمع حيوانا زرادشت هذه الكلمات، هربا من شدة الخوف، لأنهما رأيا أن كل ما أحضراه خلال النهار ليس كافياً لإطعام وإشباع المتنبئ وحده).

"وبالإضافة إلى الخوف من الموت عطشاً - تابع المتنبئ - ورغم أنني أسمع أن الماء يخر هنا، كأنهار الحكمة، بوفرة وبلا توقف، ولكنني أريد نبيذاً!

ليس كل فرد، كزرادشت، يشرب منذ يوم مولده الماء فقط، فالماء لا يصلح للمتعبين والذابلين، نحن بحاجة للخمر، فالخمر فقط يعطي الشفاء المفاجئ والصحة الواضحة!"

وخلال هذه الفرصة المواتية، وأثناء طلب المتنبئ الخمر، استطاع الملك الثاني الصامت، أن يقول كلمته أيضاً. "حول الخمر - قال الملك - اهتممنا، فأنا مع أخي الملك الأول، لدينا ما يكفي من الخمر، حمار محمل به، ولهذا لا ينقصنا سوى الخبز".

"الخبز؟ - اعترض زرادشت ضاحكاً - الخبز لا يكون موجوداً عند النساك أبداً. ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل وبلحم الخراف الجيدة، ولدي اثنان.

- فليُنحروا سريعاً وليتبلوا بعبير المريمية، هكذا أحبهم. كذلك لا نقص لدينا في الجذور والثمار الصالحة حتى لمحبي الأطعمة اللذيذة والذواقين، وهناك الجوز وألغاز أخرى نتسلى بها.

سنقيم قريباً وليمة مشهورة، ولكن الذي يريد أن يشارك فيها، عليه أن يعمل في إعدادها، حتى الملوك، فعند زرادشت حتى الملك يمكن أن يكون طباخاً".

راق هذا الاقتراح الجميع، وبقي يعارض اللحم والخمر والتوابل المتسول الطوعي فقط.

"استمعوا إلى هذا النهم زرادشت! ـ قال مازحاً ـ ألهذا يذهبون إلى المغاور والجبال العالية لإقامة مآدب كهذه؟

الآن أفهم ماذا كان يعلمنا وهو يقول: "الثناء للفقر البسيط!" ولهذا يريد القضاء على المتسولين.

"كن مرحاً مثلي ـ رد زرادشت ـ ابقَ على عاداتك، أيها الإنسان الرائع! امضغ حبوبك، واشرب ماءك، وامدح مطبخك، إذا كان ذلك يفرحك!

فأنا قانون لمن يخصني فقط، ولست قانوناً للجميع. ولكن الذي ينتمي إلي، يجب أن يمتلك عظاماً متينة ومشية خفيفة.

ـ إيجاد المتعة في الحروب والمآدب، وأن تكون مستعداً لكل شيء صعب وكأنه عيدك، وأن تكون سليماً ومعافى، لا أن تكون حالماً متجهماً.

الأفضل يخصني أنا وأصحابي، وإذا لم يعطونا إياه، فنحن نأخذه بأنفسنا. الطعام الأفضل والسماء الأكثر نقاءً والأفكار الأكثر قوة والنساء الأكثر روعة!"

هكذا تحدث زرادشت، ولكن الملك الأول لاحظ قائلاً: "عجيب! هل سُمِعَت يوماً أحاديث ذكية كهذه تخرج من ثغر حكيم؟

وحقاً، من النادر جداً إيجاد حكيم يكون بالإضافة إلى ذلك ذكياً ولا يكون حماراً".

هكذا تحدث الملك الأول مستغرباً، فأضاف الحمار إلى حديثه النهيق بشماتة. كان ذلك بداية لذلك الحديث المتواصل، المدعو "مأدبة" في الكتب التاريخية، ولكن وأثناء تلك المأدبة لم يتحدثوا عن شيء آخر غير الإنسان الأعلى.

الإنسان الأعلى[١]

١

عندما ذهبت لأول مرة إلى الناس، اقترفت جنون الناسك، جنوناً عظيماً، لقد ذهبت إلى ساحة السوق.

وعندما تحدثت إلى الجميع، لم أتحدث إلى أحد. ولكن ومع حلول المساء صار راقصو الحبال المعلقة والجثث رفاقاً لي، وأنا نفسي أصبحت جثة تقريباً.

ولكن مع الصباح الجديد جاءتني حقيقة جديدة، وعندها تعلمت الكلام: "ما شأني وشأن السوق والحشد، وضجيج الحشد وآذانهم الطويلة!"

أنتم، أيها الناس الأعلون، ستتعلمون ذلك منا، ففي السوق لا أحد يؤمن بالناس الأعلين. وإذا أردتم التحدث، حسناً! ولكن الحشد يرمش: "نحن كلنا متساوون".

"أنتم، الناس الأعلون ـ هكذا يرمش الحشد ـ لا يوجد أناس أعلون، نحن كلنا متساوون، الإنسان هو الإنسان، وأمام الرب كلنا متساوون! ".



أمام الرب! ولكن هذا الرب مات الآن. ولا نريد أن نكون متساوين أمام الحشد. أنتم، أيها الناس الأعلون، غادروا ساحة السوق! أمام الرب!

ولكن هذا الرب مات الآن! أنتم، أيها الناس الأعلون، كان هذا الرب خطركم الأعظم.

فمنذ أن رقد في قبره، بُعثتم لأول مرة. الآن فقط يبدأ وقت الظهيرة العظيم. الآن فقط يصبح الإنسان الأعلى سيداً!

فهل فهمتم هذه الكلمة، يا أخوتي؟ هل خفتم وهل انزعجت قلوبكم؟ ألا تنشق اللجة هنا من أجلكم؟

حسناً! إلى الأمام! أيها الناس الأعلون! الآن فقط أصبح جبل المستقبل البشري مستعداً ليلد. الرب مات، الآن نريد أن يعيش الإنسان الخارق.



ويتساءل الأكثر عناية الآن: "كيف يمكن للإنسان أن يحافظ على بقائه؟" أما زرادشت فإنه يسأل، الوحيد والأول: "كيف يمكن التفوق على الإنسان؟".

إلى الإنسان الخالد يتوق قلبي، فهو بالنسبة لي الأول والوحيد، وليس إلى الإنسان، ليس إلى القريب، ولا إلى الأكثر فقراً، ولا إلى الذي يعاني، ولا إلى الأفضل.

آه، يا أخوتي، إذا كان في مقدوري أن أحب شيئاً في الإنسان، فهو أنه ليس إلا انتقال وفناء. وحتى فيكم يوجد الكثير مما يوقظ فيَّ المحبة والأمل.

إن كراهيتكم، أيها الناس الأعلون، توقظ في نفسي الأمل، لأن الممتلئين كراهية هم في جوهرهم ممتلئون عبادة.

إن يأسكم يستحق الاحترام العظيم، لأنكم لم تتعلموا الخضوع، أنتم لم تتعلموا التعقل.

إذ إنه الآن أصبح الناس الحقراء أسياداً، إنهم جميعاً يدعون إلى الإذعان والتواضع والتعقل والمواظبة والجد والحذر وإلى رتل طويل من الفضائل الصغيرة المتبقية.

كل ما هو أنثوي وكل ما هو عبودي وبخاصة الرعاع كلهم، هؤلاء يريدون أن يصبحوا أسياداً للمصير البشري كله. يا للاشمئزاز! الاشمئزاز! الاشمئزاز!

إنهم يسألون بلا توقف: "كيف يمكن للإنسان أن يحافظ على نفسه بطريقة أفضل وأطول وألطف؟" ولهذا هم سادة هذا اليوم.

تفوقوا يا أخوتي على سادة هذا اليوم، على هؤلاء الناس الحقراء، إنهم خطر عظيم على الإنسان الخارق!

تفوقوا أيها الناس الأعلون على الفضائل الحقيرة والتعقل الحقير والحذر الجبان وعجيج النمل والرضا الحقير "سعادة الأكثرية"!

والأفضل أن تيأسوا ولكن لا تستسلموا. حقاً، أحبكم لأنكم اليوم لا تعرفون كيف تعيشون، أيها الناس الأعلون! إذ إنكم بهذه الطريقة تعيشون بالطريقة المثلى!



فهل فيكم المروءة، يا أخوتي؟ وهل لديكم قلب؟ ليس المروءة أمام الشهود، بل مروءة الناسك والنسر، التي لا ينظر إليها حتى الرب؟

فعند الأنفس الباردة وعند البغال وعند العميان وعند السكارى لا يوجد ما يسمى مروءة. إن المروءة موجودة فقط عند الذي يعرف الخوف، ولكنه يتغلب عليه، الذي يرى اللجة ولكنه ينظر إليها بفخر.

الذي ينظر إلى اللجة بعيني نسر، ويقبض على اللجة بمخالب نسر، ذاك فقط فيه المروءة.

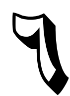


"الإنسان حقود شرير" ـ هكذا قال لي كل الحكماء معزين إياي. آه، لو أن ذلك كان لا يزال حقيقة حتى اليوم! إذ إن الشر هو أفضل قوة عند الإنسان.

"الإنسان يجب أن يزداد تحسناً وشراً" ـ هكذا أُعَلِّمُ أنا. إن الأكثر شراً ضروري لخير الإنسان الخارق.

كان يمكن أن يكون خيراً لبشير الناس الحقراء، أنه عانى وحمل آثام الناس. وأنا أفرح بالإثم العظيم كما أفرح بالعزاء العظيم.

ولكن كل هذا لم يقال للآذان الطويلة، فليس كل كلمة تصلح لكل وجه حيواني، إنها أمور دقيقة وبعيدة، وأقدام الخراف يجب ألاّ تدوسها!



آه، أيها الناس الأعلون، ألا تظنون، أنني هنا لكي أصلح ما فعلتموه من سوء؟

أو أنني أريد منذ الآن أن أرقِدَ كم أنتم المعانون؟ أو أن أدلكم أيها القلقون والتائهون عن الطريق والضائعون في الجبال، على دروب جديدة أكثر راحة؟

لا! لا! لا بالثلاثة! يجب أن يزداد عدد الفانين من عرقكم وهم الأفضل، إذ إنه ستسوء حالتكم أكثر فأكثر ويزداد وضعكم قسوة، لأنه بهذه الطريقة فقط يصل الإنسان إلى العلو الذي يصعقه فيه البرق ويقتله، فهو عالي كفاية بالنسبة للبرق!

إن فكرتي ورغبتي موجهتان باتجاه القليل والطويل والبعيد، فما شأني بفقركم المدقع الحقير والعادي والقصير!

أعتقد أنكم حتى الآن لا تعانون كفاية! لأنكم تعانون بسبب أنفسكم، ولم تعانوا بعد بسبب الإنسان. وكنتم لتكذبوا لو قلتم شيئاً مغايراً! لا أحد منكم يعاني للسبب الذي جعلني أعاني.



لا يكفيني أن يتوقف البرق عن التسبب بالضرر، فأنا لا أريد إلغاءه. بل عليه أن يتعلم كيف يعمل لأجلي.

إن حكمتي تتجمع منذ زمن بعيد، كالغيمة تزداد هدوءاً وقتامة. هكذا يحدث مع كل حكمة، عليها يوماً أن تلد البروق.

بالنسبة لأناس هذا اليوم لا أريد أن أكون نوراً أو أدعى به. هم من أريد إعماءهم: يا برق حكمتي! احرق عيونهم!



يجب ألاّ ترغبوا شيئاً يفوق طاقاتكم، فالكذب الخبيث يميز الذين يريدون أكثر مما يقدرون عليه.

وبخاصة عندما يريدون أموراً عظيمة! إذ إنهم يُحدِثون الشك تجاه الأشياء العظيمة، هؤلاء مزيفي الأموال المهرة، هؤلاء المهرجين.

- إلى أن يصيروا كذابين ومنحرفين وملونين من الخارج، ولكن في داخلهم تأكلهم الديدان، يتخفون خلف الكلمات العظيمة والفضائل التظاهرية والأعمال المزيفة اللامعة.

كونوا حذرين جداً معهم، أيها الناس الأعلون! إذ إنه ليس عندي اليوم شيء أكثر قيمة وندرة من الصدق.

ولكن ألا ينتمي هذا "اليوم" إلى الحشد؟ فالحشد لا يعرف ما هو العظيم وما هو الحقير وما هو الصريح والصادق، إنه كذاب بطبيعته، إنه يكذب دائماً.



كونوا اليوم مرتابين، أيها الناس الأعلون، الناس أصحاب المروءة وأنقياء القلوب! واحفظوا في السر أسبابكم! لأن هذا "اليوم" هو ملك للحشد.

إن الذي تعلم الحشد الأيمان به بلا مسوغات، من ذا الذي يمكنه أن ينقضه بالمسوغات؟

في السوق يتم الإقناع بالحركات، ولكن المسوغات تجعل الحشد مرتاباً.

وإذا حدث يوماً أن الحقيقة وصلت إلى النصر هناك، فاسألوا أنفسكم بارتياب: "أي وهم عظيم قاتل من أجلها؟".

احذروا كذلك العلماء، فهم يكرهونكم، لأنهم عقيمون! فعيونهم باردة وجافة، وأمامهم يستلقي كل طير منتوفاً.

إنهم يتفاخرون بأنهم لا يكذبون أبداً، ولكن عدم القدرة على الكذب لا تعني محبة الحقيقة، فاحذروا!

وغياب الحمى لا يعني الإدراك! إنني لا أصدق العقول الجامدة، فالذي يعجز عن الكذب، لا يعرف بوجود الحقيقة.

١٠

إذا لم تكونوا راغبين في الصعود عالياً، استخدموا أرجلكم! لا تسمحوا للآخرين بحملكم، ولا تجلسوا على أكتاف ورؤوس الآخرين!

ولكنك ركبت الحصان؟ وتنطلق مسرعاً نحو الأعلى، إلى هدفك؟ حسناً، يا صديقي! فرجلك العرجاء تجلس كذلك معك فوق الحصان!

وعندما تصل إلى هدفك، وتترجل من على ظهر حصانك، فوق ذلك العلو، أيها الإنسان الأعلى، ستتعثر!

١١

أنتم، يا أيها الخلاّقون، أنتم، أيها الناس الأعلون! الحمل لا يكون إلا بطفلك.

لا تسمحوا لأحد بتضليلكم! فمن هو قريبكم؟ وإذا كنتم تفعلون "لأجل الغريب" فأنتم مع ذلك لا تَخلُقون لأجله!

فانسوا هذا الـ "لأجل"، أنتم أيها الخلاقون، لأن فضيلتكم تطالبكم بعدم تعاملكم مع هذا الـ "لأجل" و"من أجل" و"لأن"، صموا آذانكم أمام هذه الكلمات الكاذبة الحقيرة.

"لأجل القريب" إنها فضيلة الأُناس الحقراء، وعندهم يقولون "واحدهم يساوي الآخر" و"اليد تغسل اليد"، وليس لديكم الحق ولا القوة لأجل أنانيتكم!

في أنانيتكم، أنتم الخلاّقون، يوجد الحذر والتبصر، كالذي عند المرأة الحامل! الشيء الذي لم يره أحد بعد بعينيه، الجنين، إنه يحمي ويهتم ويغذي محبتكم كاملة.

في طفلكم تكمن كل محبتكم، وفيه كامل فضيلتكم! وقضيتكم وإرادتكم و"قريبكم"، فلا تسمحوا بأن يفرضوا عليكم قيماً كاذبة!

١٢

أنتم، أيها الخلاّقون، أنتم يا أيها الناس الأعلون! الذي يجب أن ينجب، ذاك مريض، ولكن الذي أنجب فذاك ليس طاهراً.

اسألوا النساء، فهن لا تَلِدن لأن ذلك يجلب المتعة، فالألم يجعل الدجاجات والشعراء يقأقئون.

أنتم، أيها الخلاّقون، فيكم أيضاً يوجد الكثير مما هو ليس طاهراً، هذا لأن عليكم أن تكونوا أمهات.

المولود الجديد، آه، كم كثيرة هي القذارة الجديدة التي ظهرت معه إلى العالم! تنحوا جانباً! والذي أنجب يجب عليه أن يتوضأ!

١٣

لا تكونوا أفاضل فوق طاقتكم! ولا تطلبوا من أنفسكم المستحيل!

سيروا في الدروب التي سارت فيها فضيلة آبائكم! كيف كان بمقدوركم الصعود عالياً، لو أن إرادة آبائكم لم تصعد معكم؟

ولكن الذي يريد أن يكون البكر، فليحرص على ألاّ يصبح الأخير! وحيث تتواجد رذائل آبائكم، هناك يجب ألاّ ترغبوا بأن تظهروا كقديسين!

ماذا كان سيحدث، لو أن الذي كان آباؤه يزورون النساء ويحبون الخمور الثقيلة والخنازير البرية، أن طالب نفسه بالعفة؟

لكان ذلك جنوناً! فبالنسبة له، حقاً، يكفيه أن يكون زوجاً لامرأة أو اثنتين أو ثلاثة.

وحتى لو قام ببناء الأديرة وكتب فوق الباب: "طريق إلى المقدسات"، لقلت مع ذلك: إلى ماذا! إنه جنون جديد!

لقد أقام لنفسه بيتاً للمجانين كملاذ، فليكن! ولكنني لا أصدق ذلك.

ففي العزلة ينمو الشيء الذي يُدخِله كل شخص فيها، حتى الحيوان الداخلي، ولهذا أثني الكثيرين عن العزلة.

فهل وُجِدَ فوق الأرض حتى الآن شيء أكثر قذارة من النساك؟ إذ ليس الشيطان فقط يفلت من قيده إلى جانبهم بل والخنزير أيضاً.

١٤

خائفين وخجلين وخرق وشبيهين بالنمر الذي فشل في وثبته، على هذه الصورة، أيها الناس الأعلون، رأيتكم مراراً، عندما كنتم تتسللون خفية، فلم تنجحوا في لعب النرد.

وماذا في ذلك، أنتم يا لاعبو النرد! أنتم لم تتعلموا اللعب والضحك، كما يجب أن يكون اللعب والضحك! ألسنا كلنا جالسين خلف طاولة كبيرة للسخرية واللعب؟

وإذا لم تنجحوا في العظيم من الأمور، فهل يعني ذلك، أنكم فاشلون؟ وإذا فشلتم أنتم، فهل فشل الإنسان؟ وإذا فشل الإنسان، حسناً!



كلما كان الشيء أكثر كمالاً، كلما ندرت إمكانية صنعه. آه، أيها الناس الأعلون، ألستم كلكم منتوجاً فاشلاً؟

تنشطوا، فماذا في ذلك! الكثير ما زال ممكناً! تعلموا السخرية من أنفسكم، كما يجب أن تكون السخرية!

ما الغريب في أنكم لم تنجحوا، أو نجحتم نصف نجاح، أنتم شبه محطمين! ألا ينتفض فيكم ويتقلب مستقبل الإنسان؟

أليس كل ما هو موجود في الإنسان، وكل ما هو أكثر بعداً وأكثر عمقاً، الذي علوه شبيه بالنجوم وقوته عظيمة، ألا يتواجد كل ذلك في قِدْرِكُم؟

وما المدهش إذا انكسر قِدْرٌ آخر! تعلموا أن تسخروا من أنفسكم كما يجب أن تسخروا! آه، أيها الناس الأعلون، ما زال الكثير ممكناً!

وحقاً، لقد نجحتم في الكثير! كم هي غنية هذه الأرض بالأشياء الصغيرة والجيدة والكاملة والأشياء الناجحة تماماً!

أحيطوا أنفسكم بالأشياء الصغيرة والجيدة والكاملة، أيها الناس الأعلون! فنضوجها الذهبي يشفي القلب، إن كل ما هو كامل يُعَلِّمُ الأمل.

١٦

ما هو الذنب الأكبر الذي ارتُكِب على هذه الأرض حتى الآن؟ ألم يكن هذا الذنب هو كلمات الذي قال: "الويل للضاحكين هنا!"

أليس لأنه لم يجد فوق الأرض أي أسباب للضحك؟ يعني أنه لم يبحث جيداً، فالطفل يجد هنا أسباباً للضحك.

هو لم يحب بدرجة كافية، وإلا كان سيحبنا نحن أيضاً، الضاحكون! ولكنه كان يكرهنا ويُعَيِّرنا، وكان ينذرنا بالبكاء وبصرير الأسنان.

فهل يجب أن نلعن مباشرة، إذا لم نكن نحب؟ يبدو لي ذلك ذوقاً سيئاً. ولكن هذا ما كان يفعله هذا المُطْلَق، لقد نشأ من الحشد.

وهو نفسه لم يكن يحب كفاية، وإلا كان غضبه سيقل من عدم محبتهم له، فكل حب عظيم يرغب في شيء أكثر من الحب.

احذروا كل هؤلاء المُطْلقين! فمشيهم ثقيل وقلوبهم ثقيلة، إنهم لا يتقنون الرقص، فكيف يمكن للأرض أن تكون خفيفة بالنسبة لهم!

١٧

بطريق ملتو تقترب كل الأشياء الجيدة من هدفها. إنها تتقوس كالهررة وتموء من قرب سعادتها، كل الأشياء الجيدة تضحك.

إن المشية تكشف إن كان الشخص يسير في طريق الصحيح. انظروا، كيف أمشي أنا! ولكن الذي يقترب من هدفه، فذاك يرقص.

وحقاً، لم أتحول إلى تمثال، ولم أقف بعد بلا حراك، بليداً ومتحجراً كالعمود، إنني أحب الركض السريع.

وعلى الرغم من وجود المستنقع والحزن الكثيف فوق الأرض، إلا أن الذي رجليه خفيفتين، فذاك يركض فوق الوحل ويرقص وكأنه فوق جليد نقي.

ارفعوا قلوبكم، يا أخوتي، أعلى فأعلى! ولا تنسوا كذلك أرجلكم، فأنتم راقصون جيدون، والأفضل أن تقفوا على رؤوسكم!

١٨

هذا إكليل الضاحك، إكليل من الورد الجوري، لقد وضعته بنفسي على رأسي، لقد اعترفت شخصياً بقداسة ضحكي. لم أجد أحداً آخر قوياً كفاية لأجل ذلك.

زرادشت راقص، زرادشت خفيف، يلوح بجناحيه مستعداً للطيران ويجتذب كل الطيور، ماهر وخفيف كالآلهة.

زرادشت متنبئ، زرادشت ضاحك، ليس متلهفاً ولكنه غير مقيد بشروط، يحب القفز، لقد وضعت بنفسي هذا الإكليل على رأسي.

١٩

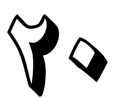
ارفعوا قلوبكم، يا أخوتي، نحو الأعلى! كل شيء نحو الأعلى! ولا تنسوا أرجلكم! ارفعوا كذلك أرجلكم، أنتم، الراقصون الجيدون، والأفضل أن تقفوا على رؤوسكم!

كذلك تتواجد حيوانات ثقيلة الوزن في حالة السعادة، ويوجد من هو أخرق منذ ولادته. فهم يقومون بجهود مضحكة، كالفيل الذي يحاول الوقوف على رأسه.

ولكن الأفضل أن تكون مضحكاً من سعادتك، من أن تكون مضحكاً من مصيبتك، والأفضل أن ترقص بطريقة خرقاء، من أن تمشي وأنت تعرج. تعلموا من حكمتي: حتى عند الشيء السيئ يوجد وجهان جيدان.

ـ حتى عند الشيء السيئ توجد أرجل جيدة للرقص. فلتتعلموا أيها الناس الأعلون، كيف تقفون على أرجلكم الحقيقية!

انسوا الحزن والكرب في الحشد! آه، كم يبدو لي المهرجون الشعبيون حزينين اليوم، ولكن هذا "اليوم" هو ملك للحشد.



قلدوا الرياح، عندما تندفع من ثغورها الجبلية، إنها تريد أن ترقص تحت أنغام مزمارها، والبحار ترتجف وتقفز تحت أقدامها.

الثناء للروح الطيبة، جبارة العزيمة، التي تعطي الأجنحة للحمير، والتي تحلب اللبوات، التي تأتي كالإعصار، لكل "اليوم" ولكل حشد.

ـ التي هي عدوة لكل نبات ضار ولكل الأوراق الذابلة، الثناء لروح العواصف تلك، البرية والطيبة والحرة، التي ترقص فوق المستنقعات وفوق الحزن، وكأنها فوق المروج!

التي تكره كل الكلاب السقيمة من وسط الحشد وكل ذرية فاشلة وسوداوية.

الثناء لهذه الروح، روح جميع العقول، العاصفة الضاحكة، التي تنفث الغبار في عيني كل من لا يرى سوى السواد ومغطي نفسه بالقروح!

آه، أيها الناس الأعلون، إن أسوأ ما فيكم يكمن في أنكم لم تتعلموا الرقص كما يجب، فالرقص أعلى منكم! فماذا من ذلك، إذا كنتم لم تنجحوا!

كم هو كثير مما يمكن فعله بعد! فلتتعلموا إذاً الضحك بطريقة أسمى منكم! ارفعوا قلوبكم، أنتم، أيها الراقصون الجيدون، إلى الأعلى! ولا تنسوا كذلك الضحك الطيب!

إكليل الضاحك هذا، إكليل من الورد الجوري، إليكم، يا أخوتي، أرمي هذا الإكليل! لقد اعترفت بالضحك على أنه مقدس، آه، أيها الناس الأعلون، تعلموا منا الضحك!

أغنية الحنين

١

عندما تلفظ زرادشت بهذه الأحاديث، كان يقف قريباً من مدخل مغارته، ولكنه ومع كلماته الأخيرة غاب عن ضيوفه دون أن يلحظوا ذلك، فقد أسرع راكضاً لقضاء وقت قصير في الهواء الطلق.

"آه، أيتها الرائحة النقية - صاح زرادشت - آه، أيها الهدوء المغتبط، المحيط بي! ولكن أين هما حيواناي؟ إلي، إلي، يا نسري ويا أفعتي!

أخبراني يا نسري وأفعتي، هؤلاء الناس الأعلون سوية، ربما رائحتهم قذرة؟

آه، يا للرائحة النقية المحيطة بي! الآن فقط عرفت وشعرت كم أحبكما".

وكرر زرادشت مرة ثانية: "أحبكما، يا حيواناي!" فاقترب منه النسر والأفعى، عند تلفظه بهذه الكلمات ورفعا إليه نظرهما.

هكذا وقفوا ثلاثتهم بهدوء وهم يتنشقون الهواء النقي.

إذ إن الهواء هنا في الخارج كان أفضل مما هو عليه عند الأناس الأعلين.



٢

ولكن وما إن غادر زرادشت مغارته، حتى نهض الساحر العجوز، وتلفت من حوله بمكر، وقال: "لقد خرج! والآن، أيها الناس الأعلون، اسمحوا لي أيضاً، أن أفعل مثله، وأتملقكم بهذا الاسم من المديح المزيف، وها هي تسيطر علي روحي الشريرة والمخادعة، روح الساحر، شيطان حزني، الذي هو عدو لزرادشت هذا حتى أعماق نفسه، فاعذروه على ذلك!

إنه يريد أن يريكم الآن سحره، إذ إنه آن أوانه، إنني أنازل عبثاً هذه الروح الشريرة.

أنتم جميعاً، مهما أشدتم بأنفسكم بالكلمات، فهل ستدعون أنفسكم "بأحرار الفكر" أو "بالصادقين" أو "بأصحاب الأرواح التائبة" أو "بالمحررين من القيود" أو"بالشرهين والعطاشى"؟

- لكم جميعاً، المعانين مثلي من الاشمئزاز العظيم، الذين مات بالنسبة لكم الإله القديم، والإله الجديد لم يستلقِ بعد مقمطاً في سريره، جميعكم تستلطفون روحي وشيطان السحر.

إنني أعْرِفُكم، أيها الناس الأعلون، وأعرفه، وأعرف كذلك هذا الشيطان، الذي أحبه رغماً عن إرادتي، هذا الزرادشت.

إنه نفسه كثيراً ما يبدو لي شبيهاً بقناع القديس الرائع.

- شبيهاً بحفلة تنكرية جديدة ومدهشة، تستمتع بها روحي، شيطان حنيني.

إنني أحب زرادشت، وكثيراً ما يبدو لي أن حبي هذا من أجل روحي الشريرة.

ولكنه قريب من السيطرة علي واضطهادي، روح الحنين، شيطان الغسق المسائي.

حقاً، أيها الناس الأعلون إنه يريد أن - افتحوا أعينكم جيداً! - أن يأتي عارياً، رجلاً أو امرأة، ما زلت لا أدري، ولكنه قادم، إنه يضطهدني، الويل لي! افتحوا أحاسيسكم على اتساعها!

انتهى دوي النهار ويحل المساء بالنسبة لجميع الأشياء، حتى بالنسبة لأفضل الأشياء. اسمعوا الآن وانظروا، أيها الناس الأعلون، كيف هو هذا الشيطان، رجل أو امرأة، روح الحنين المسائي هذا!"

هكذا تحدث الساحر العجوز، ثم تلفت حوله بمكر وأمسك قيثارته.



عندما يصفو الهواء وينزل الرحيق
كالسلوى على الأرض
بمشية خفية مكبوتة رقيقة
ككل ما يحمل حلاوة السكينة
هل ستتذكرين أيتها النفس الساخنة
بأي عطش كنت تلتهبين يوماً
تتعطشين لدموع الندى السماوية
متعبة، في حالة من الإنهاك يرثى لها
تحت الأنظار الشريرة للشمس الغاربة
المسرعة على الدرب المصفر
الشامتة بأشعتها التي تعمي البصر
بين الأشجار المسودة من حولي.

* * * *

هل أنت فارس الحقيقة؟ أهو أنت؟ هكذا كانوا يلهون
لا، فأنت لست سوى شاعر
إنك حيوان زاحف مفترس وكذاب
يتوجب عليه الكذب
ترصد الضحية من خلف قناع المكر
إنك قناع بالنسبة لنفسك
وفريسة لنفسك
أهذا هو فارس الحقيقة؟ لا
إنه ليس سوى بهلول وشاعر ليس إلا
يثرثر بمكر من خلف القناع المبهرج
أنت الذي تجول في المحيط وتتسلق
زاحفاً
تعبر الجسور الخادعة من الكلمات المكدسة
عبر أقواس قزح الزائفة وسط السموات الزائفة
لست سوى بهلول وشاعر، ليس إلا

* * * *

أهذا هو فارس الحقيقة؟ لا
فأنت لا تقف بارداً، جامداً
هادئاً، كصورة إله
كتمثال إله أمام معبده
كحارس لأبواب الرب...
أنت عدو الثبات الفاضل
لست في حرم المنزل بل أنت في دغل بري
إنك تمتلئ إصراراً عنيداً كالهررة
ويسرك رمي نفسك من النافذة لأي سبب
ويسرك الصياح بلطف للغابة العذراء
ولهذا كنت تجوب الدغل العصي على العبور مسرعاً
وسط الحيوانات المفترسة الملونة بجلودها الشعثاء
كنت تمتلئ جمالاً آثماً وصحة
وكنت تنفخ منخريك بشهوة
وتلهو ساخراً في غبطتك المتعطشة للدماء
وكنت تفترس وتتنسلل، ممتلئاً كذباً

* * * *

وأحياناً، كنت تشبه النسر
ومن الأعلى كنت ترسل نظرك الثابت إلى مملكتك
تنظر إلى الهاوية طويلاً
وكأنك تسعى إلى الأعماق
وهي تغوص للأسفل وتتلوى حلقات
وتدخل العمق
وفجأة تسقط سقوطاً شاقولياً
موجهاً تحليقك كالسيف
لتصدم الحملان
وتنْقض باندفاع وحماس ولهفة المفترس
لتمزق الحملان
بحقد ضد كل أنفس الحملان
وبغليان عنيف على كل ما ينظر نظرة الخراف
بفضيلة وتجعد
وبلادة الحملان الرضيعة المسالمة

* * * *

هكذا

بسمات الفهد وخصائص النسر

تمتلئ أحاسيس الشاعر

إنهم لك تحت ألف قناع

لك أيها الشاعر والبهلول

* * * *

فهذا أنت الذي تعرفت في الإنسان

على رب لا مبالي وخروف

ومزقت الإله في الإنسان

كذلك تمزق الخروق فيه

تمزقه فرحاً

إن غبطتك في ذلك

غبطة الفهد الشرير والنسر

غبطة البهلول والشاعر

عندما يصفو الجو ويظهر القمر

هلالاً أخضر بين الغيوم

يلمع فجأة وسط الخطوط الأرجوانية

يتسلل حسوداً كالعدو
عدو ضوء النهار
إنه يقترب أكثر فأكثر
مُقَلِّماً سراً وبالتدريج
أبسطة من الورد الجوري بضفائرها المتدلية
إلى أن تسقط رؤوس الأزهار الشاحبة
في ظلام الليل

* * * *

هكذا سقطت يوماً من العلو
حيث كنت أحوم في أحلام الحقيقة
ممتلئاً بأحاسيس النهار والنور
وقعت على ظهري في ظلام ظل المساء
مُحَوَلاً إلى رماد بفعل الحقيقة وحدها
ومتعطشاً لهذه الحقيقة وحدها
أتذكرين أيتها النفس الساخنة
كيف كان يعذبنا العطش
لأنكِ في منفى دائم
بعيدة عن كل حقيقة
لست سوى نفس بهلول وشاعر فقط.

العلم

هكذا غنى الساحر، ووقع جميع الحاضرين كالطيور، ودون أن يلاحظوا، في شباك شهوانيته الماكرة المتجهمة. ولم يقع في شباكه حي الضمير والروح فقط، فانتزع بسرعة القيثارة من يدي الساحر وصاح: "هواء! أدخلوا هواءً نقياً! أدخلوا زرادشت! إنك تجعل هواء المغارة خانقاً وساماً، أيها الساحر العجوز الشرير!

الكذوب والمتأنق، أنت تغوي بشهوات مجهولة وصحارى مجهولة. والويل، إذا تحدث الذين مثلك حول الحقيقة ومنحوها القيمة!

الويل لكل العقول الحرة، التي لا تحترس من سحرة مثلك! سيكون عليهم توديع حريتهم، أنت تُعَلِم العودة إلى السجون وتدعوا للعودة إلى الوراء إلى الزنزانات.

ـ أنت شيطان عجوز متجهم، في شكواك يُسمَع صوت مزمار فاتن، إنك تشبه الذين بمديحهم للعفة يدعون خفية إلى الفساد!"

هكذا تحدث حي الضمير، في حين كان الساحر الشرير يتلفت من حوله، مستمتعاً بنصره، ولهذا ابتلع انزعاجه، الذي سببه له حي الضمير.

"اصمت قليلاً! ـ قال بصوت وديع ـ فالأغاني الجيدة يجب أن تؤثر تأثيراً جيداً في القلوب، وبعد الأغاني الجيدة يجب الاحتفاظ بالصمت طويلاً.

هكذا يتصرف كل هؤلاء الناس الأعلون. ولكن يبدو أنك لم تفهم الكثير من أغنيتي؟ فيك القليل جداً من روح الساحر".

"أنت تمدحني ـ اعترض حي الضمير ـ مبعداً نفسك عني. حسناً! وأما أنتم، البقية، فما الذي أراه؟ أنتم جميعاً ما زلتم جالسين بأعين شهوانية.

آه، أيتها الأنفس الحرة، إلى أين ذهبت حريتكم! أنتم تبدون لي شبيهين بالذين نظروا طويلاً إلى النساء الفاجرات العاريات والراقصات، حتى بدأت أنفسكم ترقص بنفسها!

فيكم، أيها الناس الأعلون، ما زال يوجد الكثير مما يسميه الساحر بروحه الشريرة المخادعة والمشعوذة. ولهذا سنختلف حتماً.

وحقاً، لقد تحدثنا كفاية وفكرنا سوية، قبل أن يعود زرادشت إلى مغارته، ليعرف أننا اختلفنا.

ونحن نبحث عن المختلف حتى هنا، في الأعلى، أنا وأنتم، إذ إنني أبحث عن ثبات أكبر، ولهذا جئت إلى زرادشت، لأنه أمتن قلعة وإرادة.

ـ والآن، عندما يتأرجح كل شيء، وعندما تهتز الأرض كلها، وأرى العيون التي تنظر بنظراتكم، فإنني أقرب إلى تصديق أنكم تبحثون عن المزيد من عدم الثبات.

المزيد من الخوف، المزيد من الخطر، المزيد من الزلازل. أنتم تريدون، كما يبدو لي، واعذروا لي فرضيتي، أيها الناس الأعلون، أنتم تريدون الحياة الأكثر صعوبة، والأكثر خطراً، التي تزرع في نفسي الرعب الأكبر، حياة الحيوانات المفترسة، وحياة الغابات والمغاور والتيارات الجبلية المندفعة والثغور العصية على الاجتياز.

وليس الذين يبعدونكم عن المخاطر، يعجبونكم أكثر، بل الذين يحرفونكم عن كل الطرقات، أي الغواة. ولكن إذا كانت رغبة كهذه حقيقية فيكم، فإنها مع ذلك تبدو لي مستحيلة.

لأن الخوف هو الشعور الموروث الأساسي عند الإنسان، وبالخوف يفسر كل شيء، الإثم الموروث والفضيلة الموروثة. ومن الخوف نمت فضيلتي المدعوة بالعِلم.

لأن الخوف من الحيوانات المفترسة قد تربى في الإنسان أطول فترة، ويضم الخوف من الحيوان الذي يخبئه الإنسان ويخشاه في نفسه، وزرادشت يسميه بـ"الحيوان الداخلي".

هذا الخوف الطويل العتيق، الذي أصبح أخيراً رفيعاً ومُلهِماً، يبدو لي الآن أنه يسمى بالعِلم".

هكذا تحدث حي الضمير، ولكن زرادشت الذي عاد تواً إلى مغارته وسمع الكلمات الأخيرة وحزر مغزاها، رمى لحي الضمير حفنة من الورود الجورية وضحك من "حقائقه".

"كيف! ـ صاح زرادشت ـ ما الذي سمعته قبل قليل؟ حقاً، يبدو لي، أنك إما أحمق أو أنا الأحمق، وسأضع "حقيقتك" في لمح البصر رأساً على عقب.

لأن الخوف استثناء بالنسبة لنا، ولكن المروءة وروح المغامرة ومحبة المجهول الذي لم يجرؤ عليه أحد من قبل، فتاريخ الإنسان البدائي كله يبدو لي مروءة.

لقد حسد أكثر الحيوانات البرية مروءة وسلبها جميع فضائلها، وبهذه الطريقة فقط صار إنساناً.

هذه المروءة التي أصبحت أخيراً رفيعة وملهمة، هذه المروءة الإنسانية بجناحي نسر وحكمة أفعى، هذه المروءة التي يبدو لي أنها تدعى اليوم ...

"زرادشت!" ـ صاح بصوت جميع الموجودين وضحكوا بصوت عالٍ، ولكن بدا وكأن غيمة ثقيلة صعدت عنهم.

ضحك الساحر كذلك وقال بمظهر ماكر: "حسناً! لقد ذهبت، روحي الشريرة! ألم أحذركم منها، عندما قلت إنها مخادعة وإنها روح الكذب والخداع؟ وخاصة عندما تظهر عارية. ولكن هل أنا مسؤول عن مكائدها؟ وهل أنا من خلقتها وخلقت العالم؟

حسناً! لنعد ثانية طيبين ومرحين! على الرغم من أن زرادشت أصبح ينظر بغضب، انظروا إليه! إنه غاضب مني. ولكن قبل أن يأتي الليل، سيتعلم من جديد كيف يحبني ويمدحني، فهو لا يستطيع العيش طويلاً، بدون أن يقوم بهذه الأعمال المجنونة.

إنه يحب أعداءه، وهو يفهم هذا الفن أفضل من الآخرين ممن رأيتهم، ولكنه لهذا السبب ينتقم من أصدقائه!".

هكذا تحدث الساحر العجوز، ووافقه الناس الأعلون، بحيث أخذ زرادشت يطوف على أصدقائه، مصافحاً أياديهم بغضب ومحبة، كالذي يريد الاعتذار من كل واحد منهم وإصلاح شيء ما، ولكنه عندما اقترب من باب مغارته، أراد العودة ثانية إلى الهواء الطلق وإلى حيوانيه، وكان على وشك أن ينسل إليهما.

وسط بنات الصحراء

١

"لا تغادر! ـ قال الرحالة الذي سمى نفسه بظل زرادشت ـ ابقَ معنا ، وإلا فإن الكآبة القديمة الخانقة ستستحوذ عليك ثانية.

قد أعطانا هذا الساحر العجوز كل ما هو الأسوأ لديه، وانظر كيف يجلس البابا المتدين الطيب والدموع تملئ عينيه وهو جاهز للإبحار عبر بحر الكآبة.

يبدو لي أن هذين الملكين، ما زالا يتشجعان أمامنا، لأنهما تعلما ذلك منا اليوم بأفضل طريقة! ولكن لولا وجود الشهود، لراهنت على أنهما كانا سيبدآن لعبة رديئة للسحاب الزاحف والكآبة الرطبة والسماء الملبدة بالغيوم والشموس المسروقة وعواء الرياح الخريفية.

ـ اللعبة الرديئة لبكائنا وصراخنا طلباً للنجدة. ابقَ عندنا، يا زرادشت! فهنا الكثير من الشقاء الخفي الذي يريد الكلام، والكثير من الغسق والكثير من الغيم والكثير من الهواء الخانق!

لقد أشبعتنا بطعام الرجال الثقيل والأقوال المأثورة الداعمة، فلا تسمح بأن تسيطر علينا في ساعة التحلية الأرواح النسائية الناعمة!

أنت وحدك تجعل الهواء المحيط بك نقياً وصحياً! فهل وجدت يوماً فوق الأرض هواءً نقياً كالذي في مغارتك؟

ومع أنني رأيت بلداناً كثيرة، وتعلم أنفي التمييز بين مختلف أنواع الهواء وتقييمها، ولكن عندك فقط يشعر أنفي بفرح عظيم!

باستثناء.. باستثناء.. اعذر لي واحدة من الذكريات القديمة! اعذرني على واحدة من أغنيات المائدة القديمة، التي ألفتها يوماً وسط بنات الصحراء.

إذ إنه كان عندهن هواء شرقي نقي صحي كالذي عندك، هناك كنت أبعد ما أكون عن أوربا العجوز المغطاة بالغيم الرطبة والكئيبة!

عندها كنت أحب بنات الشرق وممالك أخرى فوقها سماوات زرقاء لم تعكرها الغيوم والأفكار.

لن تصدقوا، كم جلسن بلطف، عندما لم تكن ترقصن، عميقات ومع ذلك بلا أفكار، كأسرار صغيرة وكألغاز مزينة بشرائط ملونة، كجوز التحلية مرقشات وغريبات، حقاً! ولكن بلا غيم، ألغاز تُحَل بسهولة، على شرف هذه الفتيات ألفت يومها أغنية المائدة الدينية".

هكذا تحدث الرحالة، الذي كان يدعو نفسه بظل زرادشت، وقبل أن يستطيع أحد ما الرد عليه، التقط قيثارة الساحر العجوز، وجلس جلسة شرقية وتلفت حوله، هادئاً وحكيماً، ثم وببطء وتفحص سحب الهواء بمنخريه، كالذي يجرب الهواء الجديد في البلدان الجديدة، ثم غنى غناء فيه ولولة.



الصحراء تتسع بذاتها

الويل للذي يحمل في داخله صحراءه

هكذا! بمهابة، مقدمة لائقة!

بمهابة، بالطريقة الإفريقية، نعم

اللائقة حتى بالأسد

أو بالقرد الذي يزمجر بالأخلاقيات

ولكنها لا شيء بالنسبة لنا

يا صديقاتي الحسناوات

في حين أن الجلوس عند أقدامكن
لي أنا، الأوروبي عند قواعد النخيل
كانت من نصيبي هذه السعادة

* * * *

نعم، هذا مدهش، فأنا جالس
عند حافة الصحراء نفسها ومع ذلك
ما زلت بعيداً عنها
أنا نفسي صحراء وسط فضائها
أقول بوضوح أكبر: لقد ابتلعتني
الواحة الصغيرة
التي تثاءبت فجأة
وفتحت فاهها في ملاقاتي
فوقعت فجأة وضعت
في تلك الشفتين العطرتين
اندفعت وتسللت وها أنا ذا بينكن
يا صديقاتي اللطيفات

* * * *

نعم المجد، المجد لأي حوت
يشعر فيه الضيف بالراحة نفسها!
هل اتضح لكم تلميحي العلمي؟
فليحيا إلى الأبد جوف الحوت
عندما كان لطيفاً بالدرجة نفسها
واحةً وبطناً كمأواي
ولكنني أشك بذلك، طبعاً
فقد قدمت إليكم من أوروبا
التي هي الأكثر شكاً بين كل نساء العالم
فليصلح الرب نفسه ذلك!
آمين
مفرطاً في التحلية، كالتمر الأسمر
وممتلئ بالوعود الذهبية، مثله
أنا معكم هنا في الواحة الصغيرة
مثلها أتلهف على وجه شابة
وعلى الأسنان القوارض، ناصعة البياض كالفتيات
الأسنان الحادة والباردة
تحن إليهم قلوب
جميع حبات التمر المحمرة
* * * *

كهذه الفاكهة الجنوبية
أشبهها كثيراً
أستلقي هنا محاطاً بسرب
طائر من الخنافس المجنحة
ومن حولي، في رقصة الصواري اللعوبة
تلمع رغباتكم ونزواتكم
الصغيرة والمتفننة بسخرية...
أنتم، المحيطون بي بمطاردة صامتة
تتأملون شيئاً ما بصمت
أنتن الهررة الفتيات
زوليكا ودودو
لقد أحطتن بي وكأنني أبو الهول
كي أستوعب الكثير من المشاعر والكلمة الموحدة
الإثم ضد اللسان، اعذرني يا ربي
وأنا أجلس هنا متنهداً
والهواء حقاً نقي كهواء الجنة
خفيف شفاف في خطوطه الذهبية

لا، لم يحدث من قبل أن نزل من القمر
إلى الأرض هواء جيد كهذا
لا بالمصادفة ولا بالأمر
الشعراء القدامى غنوا لنا عنه
ولكنني جئت إليكم من أوربا
التي هي الأكثر شكاً من بين كل نساء العالم
فليصلح الرب نفسه ذلك!
آمين
مبتلعاً هذا الهواء النقي
بمنخرين كالقدحين المنفتحين باتساع
بلا مستقبل وبلا ذكريات
أجلس هنا يا رفيقاتي الفاتنات
وأديم النظر إلى شجرة النخيل هذه
والتي كالراقصة
تلوي جسدها وتلاطف وهي تميل...
فتستمتع بالمنظر وتبدأ بفعل الشيء ذاته
كالراقصة التي تـُغرِق في الوهم والتفكير
لمدة طويلة خطيرة

بقيت تقف على ساق واحدة
حتى نسيت أمر الساق الأخرى
على الأقل حاولتُ عبثاً
أن أرى المفاتن الخفية
لكلا التوأمين روعة الاتحاد
وطبعاً، قصدت الساق الثانية
في القرب المقدس
لرشاقة وهوائية
الثنايا المرفرفة للتنورة البراقة
وإذا كنتن مستعدات، يا رفيقاتي الفاتنات
أن تصدقنني بطيب خاطر، فهذه الروعة فُقِدَت
لم يعد لها وجود! الرجل الصغيرة المفقودة
مفقودة إلى الأبد، كم أشفق على الرِجل المسكينة!
أين هي
الوحيدة الحزينة من الفراق، مهجورة، أين تتحسر؟
ربما هي في حالة خوف من الوحش الأشقر
صاحب لبدة الأسد
أو ربما قـُضِمَت حتى العظم وأُكِلَتْ!
* * * *

آه، لا تبكوا، لا تتجرؤوا على البكاء
أنتن، أيتها القلوب الرقيقة!
في الصدر الناصع البياض كالحليب
يتوضع قلبكن كالتمرة
محفظة فيها حلوى
زوليكا، تحلي بالرجولة، يكفي!
تنشطي.. تنشطي يا دودو الشاحبة
لا تبكِ أكثر!
أو ربما
الأفضل هنا وسيلة أخرى
القلب القادر بسهولة على الإسكات والتقييد؟
كقول مأثور واعظ مناسب
أو دعوة النداء المهيب؟
نعم، نعم، إنني أناديكِ
أيتها الكرامة، إلى خشبة المسرح
أنت، الفرو المنفوخ بالفضيلة
فحُ، صفر، وانفخ
نعم، نعم
زمجر مرة أخرى

زمجرة الأخلاقيات
تزأر كالأسد أمام بنات الصحراء
أسد الأخلاقيات!
لأنه، يا أعزائي!..
عواء الفضيلة في أوروبا، اعلموا
أقوى من حماوة النفس
النفس الأوروبية
أقوى من حنين الأوروبي الملتهب
وها أنذا أمامكم أوروبي
ولا أستطيع غير ذلك، آه يا ربي
ليكن كذلك!
آمين
الصحراء تتسع بذاتها
الويل للذي يحمل في داخله صحراءه!

التنبه

١

بعد أغنية الرحالة الظل امتلأت المغارة فجأة بالضجيج والضحك، ولكن الحاضرين الضيوف كانوا يتحدثون سوية ولأن الحمار عند تشجيع كهذا لم يحتفظ بصمته أبداً، فإن زرادشت شعر بنوع من الاشمئزاز والسخرية من ضيوفه، رغم أن فرحهم كان يسليه، لأنه بدا له كعلامة شفاء، فخرج خفية من المغارة إلى الهواء الطلق وأخذ يتحدث مع حيوانيه.

"أين ذهبت مصيبتهم الآن؟ - سأل وتنهد بارتياح متحرراً من ضجره الصغير - في مغارتي فقدوا مقدرتهم، كما يبدو لي، على الصراخ طلباً للنجدة!

- مع أنه، للأسف، لم يفقدوا مقدرتهم على الصراخ". سد زرادشت أذنيه لأنه في هذه اللحظة كان نهيق الحمار يختلط بضجيج هؤلاء الناس الأعلين ومرحهم.

"إنهم فرحون - تابع زرادشت - ومن يدري؟ ربما على حساب مضيفهم، وإذا تعلموا مني الضحك فإنهم لم يتعلموا ضحكي.

حسناً! إنهم مسنون، وهم يتعافون بطريقتهم، إنهم يضحكون بطريقتهم، إن أذنيَّ تحملتا ما هو أسوأ من ذلك ولم تصبحا سريعتي الضجر من جراء ذلك.

إن هذا اليوم هو النصر، فروح الثقل عدوي القديم اللدود يبتعد ويركض! كم يريد هذا اليوم أن ينتهي بصورة جيدة، وقد بدأ بتلك الصورة السيئة والثقيلة.

إنه يريد أن ينتهي. ها هو المساء على الأبواب، يقفز فوق البحار، إنه فارس طيب يتأرجح على سرجه الأرجواني، إنه مغتبطٌ عائدٌ إلى بيته!

السماء تنظر بصفاء والعالم يرقد بعمق. آه، أنتم، أيها الناس الغريبون، القادمون إلي، حقاً يُستَحَقُ العيش عندي!"

هكذا تحدث زرادشت، وسمع ثانية صراخ وضحك الناس الأعلين آتياً من المغارة. وتابع زرادشت :

"إنهم يقعون في الفخ، فطعمي يفعل فعله، ويتراجع عنهم عدوهم، روح الثقل. ها قد بدؤوا يتعلمون السخرية من أنفسهم، أهذا ما أسمعه؟

إن طعام الرجال عندي بدأ يظهر مفعوله، أقوالي المأثورة ريًّا وقوية. حقاً، لم أطعمهم خضاراً تنفخ البطن بالغازات! بل أطعمتهم طعام المقاتلين والفاتحين، لقد أيقظت فيهم رغبات جديدة.

آمال جديدة سكنت في أيديهم وأرجلهم، وقلوبهم بدأت تقوى. إنهم يعثرون على كلمات جديدة، وقريباً ستتنفس روحهم جرأة.

طعام كهذا، طبعاً، ليس للأطفال وليس للنساء فاترات الهمة، الشابات والعجائز. نحتاج لوسائل أخرى لإقناع بواطنهم، أنا لست طبيبهم ولا معلمهم.

الاشمئزاز يتراجع عن هؤلاء الناس الأعلين. حسناً! هذا نصري. في مملكتي يشعرون بالأمان، وكل خجل غبي يهرب منهم، إنهم ينفتحون.

إنهم يفتحون قلوبهم، والأوقات السعيدة تعود إليهم، إنهم يحتفلون ويهضمون، إنهم يصبحون نبلاء.

إنني أعتبر ذلك إشارة مثلى، إنهم يصبحون نبلاء. قليلاً بعد وسيبدؤون بابتكار أعياد لأنفسهم ويقيمون التماثيل لأفراحهم القديمة.

إنهم يتماثلون للشفاء!" هكذا تحدث زرادشت بفرح في قلبه وهو ينظر إلى البعيد، بينما التصق حيواناه به ومجدا سعادته وصمته.



ولكن فجأة خاف سمع زرادشت ، إذ إنه في المغارة، التي كانت قبل قليل تمتلئ ضجيجاً وصخباً، ساد فجأة صمت قاتل، وشعر أنفه برائحة البخور العطر، وكأنما اشتعلت أكواز الأرز.

"ما الذي يحدث هنا؟ ماذا يفعلون؟" ـ تساءل زرادشت وتسلل إلى مدخل المغارة، كي ينظر إلى ضيوفه خفية. آه، يا للعجب مما رآه هناك بعينيه!

"جميعهم عادوا ثانية متدينين، إنهم يصلون، إنهم مجانين! " ـ قال وشعر بدهشة عظيمة. وفعلاً! كل هؤلاء الناس الأعلون، ملكان وبابا متقاعد وساحر شرير ومتسول طوعي والرحالة الظل والمتنبئ العجوز وحي الضمير والروح وأقبح إنسان، جميعهم كانوا كالأطفال أو كالنساء العجائز قد ركعوا على ركبهم وأخذوا يصلون للحمار. وها قد بدأ أقبح إنسان باللهيث والفوران، وكأن شيئاً لا يمكن التفوه به كان على وشك الخروج منه، وعندما وصل فعلاً إلى الكلمات، تبين فجأة أنها صلاة غريبة وتبجيلية تمجد الحمار الذي كانوا يصلون له ويحرقون من أجله البخور. وكانت هذه الصلاة تقول:

ـ آمين! المجد والشرف والحكمة والشكر والمدح والقوة لربنا إلى أبد الآبدين!

وكان الحمار ينهق رداً على ذلك.

ـ إنه يحمل أثقالنا، لقد تجسد في شكل عبد، إنه صاحب القلب الحليم ولا يقول أبداً "لا"، والذي يحب إلهه ذاك يجلده بالسوط.

رد الحمار على ذلك بالنهيق.

ـ إنه لا يتكلم، ولا يقول إلا كلمة "نعم" للعالَم الذي خلقه، هكذا يمجد عالمه، فمكره لا يسمح له بالكلام، ولهذا يندر أن يكون على خطأ.

رد الحمار على ذلك بالنهيق.

ـ إنه يمر عبر العالم غير مرئي. إنه يحيط فضيلته بلون رمادي. فإذا كانت فيه روح فإنه يخفيها، ولكن كل شخص يؤمن بأذنيه الطويلتين.

رد الحمار على ذلك بالنهيق.

ـ أي حكمة خفية في امتلاكه أذنين طويلتين وقوله دائماً "نعم" وأبداً "لا"! ألم يخلق العالم وفق صورته، أي غبياً قدر المستطاع؟

رد الحمار على ذلك بالنهيق.

ـ إنك تسير في دروب مستقيمة ومعوجة، وقليلاً ما يهمك ما يبدو لنا نحن الناس دروباً مستقيمة أو معوجة. على الجانب الآخر من الخير والشر تقع مملكتك. إن براءتك تكمن في جهلك لماهية البراءة.

رد الحمار على ذلك بالنهيق.

ـ وها أنت لا تصد عن نفسك أحداً، لا المعدمين ولا الملوك، وتسمح للأطفال بالاقتراب منك، وإذا أراد الصبيان الأشرار إغاظتك فإنك تكتفي بالنهيق.

رد الحمار على ذلك بالنهيق.

ـ أنت تحب إناث الحمير والأعشاب الطازجة، ولا تميز بين الأطعمة، فالعشب يفرح قلبك عندما تجوع، في هذا تتلخص حكمة الرب.

رد الحمار على ذلك بالنهيق.

عيد الحمار

١

عند هذا الحد من الصلاة، لم يعد زرادشت قادراً على تمالك نفسه، فنهق بنفسه بصوت علا على صوت الحمار، ورمى نفسه وسط حشد ضيوفه المجانين.

"ما الذي تفعلونه هنا، أنتم يا أولاد البشر؟ - صرخ وهو يرفع المصلين عن الأرض - الويل، لو أن أحداً آخر رآكم غير زرادشت.

إن أي شخص آخر كان ليفكر أنكم مع دينكم الجديد أصبحتم الأسوأ بين الخارجين على الدين أو الأكثر خرفاً من بين كل النساء العجائز!

وأنت نفسك، أنت أيها البابا العجوز، كيف تقبل بنفسك، أن تصلي هنا للحمار كما تصلي للرب؟"

"آه، يا زرادشت - رد البابا - اعذرني، ولكنني في مسائل الرب متنور أكثر منك، هكذا أفضل.

الأفضل أن تصلي للرب بهذه الصورة من عدم وجود صورة أصلاً. فكر بهذه العظة، يا صديقي الرفيع، وستقتنع سريعاً بأن الحكمة تكمن في هذه العظة.

إن الذي يقول "الرب روح" ذلك قام حتى الآن بخطوة عظيمة فوق الأرض نحو الكفر، فكلمات كهذه يصعب إصلاحها فوق الأرض!

إن قلبي العجوز ينبض ويرتعش، لأنه يوجد فوق الأرض شيء تصلي له. فاعذر ذلك، يا زرادشت ، لقلب البابا العجوز المتدين!"

"وأنت - قال زرادشت للرحالة الظل - أتدعو نفسك بحر الروح وتظن ذلك؟ وتقوم هنا بعبادة الأصنام والخداع؟

إنك حقاً، تمارس هنا أسوأ الأعمال، أسوأ مما فعلت عند فتياتك السمراوات، أنت المؤمن الجديد والمخادع!"

"محزن جداً ـ أجاب الرحالة الظل ـ أنك على حق، ولكن ما العمل! فالإله العجوز ما زال حياً، يا زرادشت ، مهما قلت.

إن أقبح إنسان هو السبب في كل شيء، لقد بعثه من جديد. وعلى الرغم من أنه يقول إنه قتله في يوم من الأيام، فالموت عند الآلهة دائماً خرافة".

"وأنت، ـ قال زرادشت ـ أنت الساحر العجوز الشرير، ما الذي فعلته! من ذا الذي، في هذا الزمن الحر، سيثق بك بعد، إذا كنت تؤمن بآلهة حمير؟

إن الشيء الذي كنت تقوم به حماقة، كيف أمكنك أيها الماكر أن ترتكب حماقة كهذه!"

"آه يا زرادشت ـ أجاب الساحر الماكر ـ أنت محق، كان ذلك حماقة، وقد كلفتني ثمناً غالياً".

وحتى أنت ـ قال زرادشت لحي الضمير والروح ـ فكِر وقرِّب إصبعك من أنفك! ألا يوجد هنا شيء يشمئز منه ضميرك؟ أليست روحك نقية جداً بالنسبة لصلوات كهذه ولبخور هؤلاء القديسين؟"

"يوجد شيء ـ أجاب حي الضمير والروح وقرب إصبعه من أنفه، يوجد شيء في هذا المشهد يرضي ضميري.

ربما لا يحق لي الإيمان بالرب، ولكن لا شك بأن الرب في هذه الصورة يبدو لي أكثر استحقاقاً للإيمان به.

الرب يجب أن يكون خالداً، وفق شهادة أكثر الناس تديناً، فالذي لديه كل هذا الوقت الكثير، ذاك لا يستعجل. كل هذا الزمن الطويل وكل هذا الغباء، مع هذين الأمرين يمكن الابتعاد بعيداً.

والذي لديه الكثير جداً من الروح، ذاك يمكنه أن يصاب بعدوى الغباء والجنون. فكر بنفسك، يا زرادشت!

حقاً أنك نفسك بإمكانك أن تصبح حماراً من فيض الحكمة.

ألا يمشي الحكيم الكامل برغبته عبر أكثر الدروب اعوجاجاً؟ كما تثبت البداهة، يا زرادشت ـ بداهتك أنت!"

"وأنت نفسك، أخيراً - قال زرادشت ووجه كلامه إلى أقبح إنسان، الذي ما زال مستلقياً على الأرض ومادا ً يديه باتجاه الحمار (لأنه كان يسقيه الخمر) - قل لي، أيها الاستثنائي، ما الذي فعلته!

أنت تبدو لي متحولاً، فنظرك متقد ومعطف السمو يكسو قبحك، ما الذي فعلته؟

هل حقاً ما يقولون، إنك عدت وبعثته من جديد؟ ولماذا، ألم يكن مقتولاً قتلاً مبرراً تماماً؟

أنت بنفسك تبدو لي مبعوثاً، فماذا كنت تفعل؟ بماذا أطحت؟ بماذا أقنعت نفسك؟ قل، أيها الاستثنائي!"

"آه، يا زرادشت، رد أقبح إنسان - أنت محتال!

أهو حي أم بعث أم مات نهائياً، من منا نحن الاثنين يعرف ذلك أفضل؟ أنا أسألك.

إنني أعلم أمراً واحداً، وقد تعلمته منك في يوم ما، يا زرادشت، أن الذي يريد أن يَقتُل حتى النهاية، ذاك يضحك.

"فالقتل لا يكون بالغضب، بل بالضحك" - هكذا قلت يوماً. آه، يا زرادشت، أنت المختبئ، أنت المُدَمِر بلا سخط، أنت قديس خطير، أنت محتال!"



وهنا حدث، أن زرادشت، الذي فوجئ بهذه الأجوبة المراوغة، اندفع نحو مدخل مغارته، وصاح لضيوفه بصوت عالٍ:

"أنتم أيها المجتمعون، كلكم مكرة وحمقى ومهرجون! لأنكم تتظاهرون وتتخفون أمامي!

لكم ارتعش قلب كل واحد منكم من شدة الفرح والحقد، لأنكم عدتم ثانية متدينين كالأطفال، وأنكم عدتم للتصرف ثانية كما يتصرف الأطفال، فكنتم تصلون وتصلبون أياديكم وتقولون: "ربنا الرحيم!".

ولكن الآن اخلوا لي غرفة الأطفال هذه، مغارتي الخاصة، التي شهدت اليوم الكثير من التصرفات الصبيانية. بَرِّدوا في الهواء الطلق حماسكم الطفولي الحار وخفقان قلوبكم!

طبعاً إذا لم تكونوا كالأطفال، فإنكم لن تدخلوا مملكة السماء هذه" (وأشار زرادشت بيده نحو الأعلى)

"ولكننا لا نريد أصلاً دخول مملكة السماء، فقد أصبحنا رجالاً، ولهذا نريد مملكة الأرض".



عاد زرادشت للتحدث ثانية: "آه، يا أصدقائي الجدد - قال زرادشت - أنتم غريبو الأطوار، أيها الناس الأعلون، وكم تعجبونني الآن.

- فمنذ أن عدتم مرحين ثانية! حقاً، لقد ازدهرتم جميعكم، ويبدو لي أن أزهاراً مثلكم تحتاج إلى أعياد جديدة.

- أيٌّ من أنواع الجنون الصغيرة الجريئة، أيٌّ من أنواع العبادة وعيد الحمار، أيٌّ من المجانين العجائز المرحين، زرادشت، الإعصار الذي بأنفاسه ينير أنفسكم.

لا تنسوا هذه الليلة وعيد الحمار هذا، أنتم أيها الناس الأعلون! هذا الذي ابتكرتموه عندي، أتقبله كفأل طيب، فشيء كهذا لا يبتكره إلا المتعافون نحو الشفاء!

وإذا عدتم ثانية للاحتفال بعيد الحمار هذا، فافعلوا ذلك بدافع محبتكم لأنفسكم، وبدافع محبتكم لي! وكذكرى عني!"

هكذا تكلم زرادشت.

أنشودة السكر

١

وفي تلك الأثناء خرجوا واحداً تلو الآخر إلى الهواء الطلق، إلى الليل البارد والمستغرق في التفكير، في حين قاد زرادشت بنفسه أقبح إنسان في العالم من يده، كي يريه عالمه الليلي، والبدر الضخم المستدير والشلالات الفضية عند مغارته. وها قد وقفوا أخيراً جميعهم صامتين، وكانوا جميعهم الناس القدماء، ولكن قلوبهم تعزت، وامتلأت إصراراً، وتعجبوا في داخلهم، من إحساسهم بالمتعة فوق الأرض. وسر الليل كان يغوص مخترقاً أعماق قلوبهم. وفكر زرادشت ثانية في سره: "آه، كم يعجبني الآن هؤلاء الناس الأعلون! ولكنه لم يتلفظ بذلك، لأنه كان يمجد سعادتهم وصمتهم.

وعندها حدث الأمر الأكثر عجباً في هذا اليوم الرائع الطويل، فقد عاد أقبح إنسان ثانيةً وللمرة الأخيرة للهاث والفوران، ولكنه عندما وصل إلى الكلمات، خرج من فمه فجأة سؤال واضح ونقي، سؤال جيد وعميق وواضح الصياغة، تسبب في تحريك قلوب كل من سمعه:

"أنتم جميعكم، يا أصدقائي، بماذا تشعر قلوبكم الآن؟ - سأل أقبح إنسان - من أجل هذا اليوم أشعر بالرضى لأول مرة من عيشي لحياتي كلها.

أن أشهد على الكثير، هذا ليس كافياً بالنسبة لي. إن الحياة على الأرض تستحق أن تعاش، فيوم واحد وعيد واحد قضيته مع زرادشت علمني حب الأرض.

"أكانت تلك هي الحياة؟ - سأسأل الموت - حسناً! مرة ثانية"

أصدقائي ، ما الذي في قلوبكم الآن؟ ألن تقولوا للموت ، كما سأقول:

"أكانت تلك هي الحياة؟ حسناً ، من أجل زرادشت، مرة ثانية:

هكذا تحدث أقبح إنسان، ولكن الوقت كان قريباً من منتصف الليل. وماذا تظنون حدث عند ذلك؟ فما إن سمعه الناس الأعلون يتساءل، حتى أدركوا تحولهم وشفاءهم ولمن يدينون بكل ذلك، وعندها اندفعوا إلى زرادشت، ممتلئين امتناناً واحتراماً ومحبة، يقبلون

يديه، وكل حسب مزاجه، فبعضهم كانوا يضحكون وآخرون كانوا يبكون. والكاهن العجوز كان يرقص من شدة الفرح، وإذا ظن الكثير من الرواة أنه كان سكراناً في تلك اللحظة بتأثير النبيذ الحلو، فإنه حتماً كان أشد سكراً من حلاوة الحياة، وتبرأ من كل تعب. وروى البعض أن الحمار أيضاً رقص في ذلك اليوم، إذ إنه ليس عبثاً سقاه أقبح إنسان نبيذاً. كان الأمر كذلك، وربما غير ذلك، وإذا حدث أن الحمار لم يرقص في ذلك المساء، فقد حدثت يومها أمور أعظم وأغرب من رقصة حمار. وباختصار، وكما يقول مَثَلُ زرادشت : "حسناً إذاً!".



أما زرادشت فقد كان يقف كالثمل، طوال حدوث تلك الحالة مع أقبح إنسان، فقد انطفأ بصره وتلعثم لسانه وارتجفت رجلاه. ومن كان ليحزر، أي أفكار كانت تجوب نفس زرادشت أثناء ذلك؟ ولكن كان واضحاً أن روحه أحجمت عنه، وركضت أمامه في أقاصي البعيد الواسع، وكما قيل في الكتاب "فوق صخرة عالية، بين البحرين، بين الماضي والمستقبل، كغيمة ثقيلة".

وبالتدريج، وخلال حمل الناس له على أياديهم، أخذ يعود إلى وعيه قليلاً وأبعد بيده حشد العابدين المهمومين، ولكنه لم يتكلم. وفجأة أدار رأسه سريعاً، إذ بدا له أنه سمع شيئاً، وعندها وضع إصبعه على شفتيه وقال: "لنذهب!".

ومباشرة انتشر الصمت والغموض من حوله، فمن بعيد وصل إليهم رنين الناقوس البطيء. أنصت زرادشت إليه، كما فعل الناس الأعلون، ثم عاد وقرب إصبعه من شفتيه وقال: "لنذهب! لنذهب! فمنتصف الليل يقترب!" وتغير صوته، ولكنه لم يزل ثابتاً في مكانه، وعندها عم صمت أشد وغموض أكبر، وأنصت كل العالم، وحتى الحمار وحيوانا زرادشت المكرمان النسر والأفعى، وكذلك مغارة زرادشت، والبدر الكبير البارد وحتى الليل، فأعاد زرادشت للمرة الثالثة تقريب إصبعه من شفتيه وقال:

ـ لنذهب! لنذهب! لنذهب! لنبدأ رحلتنا الآن! قد آن الأوان! لنبدأ رحلتنا ليلاً!



يقترب منتصف الليل، أيها الناس الأعلون، وسأهمس لكم شيئاً في آذانكم، كما يهمس لي هذا الناقوس العتيق في أذني.

ـ بنفس الغموض ونفس الرعب ونفس الإخلاص، الذي يكلمني به هذا الناقوس الليلي، الذي عاش أكثر مما عاشه إنسان واحد.

ـ والذي عد الضربات الأليمة لقلوب آبائكم ـ آه! آه! يا لتنهيدته! ويا لضحكته في نومه! يا منتصف الليل العجوز!

اهدؤوا! اهدؤوا! فالآن يُسمَع الكثير مما لا يجرؤ على التحدث عن نفسه نهاراً، ولكن الآن عندما صار الهواء نقياً، وعندما خفتت دقات قلوبكم، الآن يُقال كُل ذلك ويُسمَع، ويتسلل في الأنفس الليلية اليقظة. آه! آه! يا لتنهده! يا لضحكته في نومه!

ـ ألا تسمع بأي غموض وأي رعب وأي إخلاص يكلمك منتصف الليل العجوز؟

آه، يا صديقي، تفطن!



الويل لي! إلى أين ذهب الوقت؟ فهل نزلتُ إلى الينابيع العميقة؟ إن العالم نائم.

آه! آه! الكلب يعوي، والقمر يسطع. وأنا أفضل أن أموت على أن أقول لكم بما يفكر به قلبي في منتصف الليل.

ها قد مت. أخيراً تحقق الأمر. أيها العنكبوت لما تحيك شباكك حولي؟ أتريد دماءً؟ آه! آه! الندى يتساقط، الساعة تقترب.

ـ الساعة التي أشعر فيها بالبرد وأرتجف، الساعة التي تسأل دون ملل: "من ذا الذي لديه من الشجاعة ما يكفي لتحمل هذا؟

ـ من الذي سيكون سيد الأرض؟ إنه الذي سيقول: هكذا يجب أن تجري أيتها الأنهار الكبيرة والصغيرة!"

ـ تقترب الساعة. آه، يا إنسان. آه، أيها الإنسان الأعلى، تفطن! إنه حديث للآذان المنصتة الحساسة، إنه لأذنيك، فما الذي يقوله منتصف الليل؟ تفطن!



يجرفني العمل اليومي ونفسي ترقص. العمل اليومي! العمل اليومي! من ذا الذي سيكون سيد الأرض؟

الهلال بارد والريح صامتة. آه! آه! هل حلَّقتم عالياً من قبل؟ لقد رقصتم، ولكن الأرجل هي ليست الأجنحة.

أيها الراقصون الماهرون، الآن زال كل فرح، والنبيذ فسد، والأكواب تكسرت، والقبور تكلمت.

لم تُحلِّقوا على علو كاف. والآن تكلمت القبور: "أنقذوا الأموات! لماذا يطول هذا الليل إلى هذا الحد؟ ألا يُسكرنا القمر؟"

آه، أيها الناس الأعلون، أنقذوا القبور، أحيوا الجثث! آه، لماذا كل هذا القلق والشك؟ تقترب، تقترب الساعة.

ـ الناقوس يرن رنيناً خافتاً، وما زال القلب يبح، وما زال الشك والقلق يملآن القلب. آه! آه! العالم عمق!



أيتها القيثارة حلوة الصوت! أيتها القيثارة حلوة الصوت! إنني أحب صوت أوتارك، هذا الصوت الرتيب الذي يسكرني! إن صوتك يصلني بطيئاً من بعيد، من بركة المحبة!

أنت، أيها الناقوس القديم، أنت القيثارة حلوة الصوت! كل الشجون كانت تمزق قلبك، شجن الأب وشجن الأجداد وشجن الأقدمين، وأصبح حديثك ناضجاً.

- ناضجاً كالخريف الذهبي وساعة الظهيرة، شبيهاً بقلبي قلب الناسك. والآن تقول: العالم نفسه نضج واحمرت دوالي العنب.

- والآن يريد أن يموت، من شدة السعادة. أيها الأعلون هل تشمون الرائحة؟ فالرائحة تصعد سراً.

- الأريج ورائحة الخلود ورائحة النبيذ الذهبي، لقد قتم لونه وصار أحمر مغتبطاً من جراء السعادة القديمة.

- من سعادة الموت السكرى، ومن سعادة منتصف الليل، التي تغني: "العالم عمق" ويصعب على النهار رؤية هذا العمق!



اتركني! اتركني! فأنا طاهر جداً بالنسبة لك. لا تلمسني! ألم يصبح عالمي كاملاً الآن؟

إن جلدي طاهر جداً بالنسبة ليديك. اتركني أيُها النهار القاتم والغبي والخانق! أليس منتصف الليل أكثر نوراً؟

إن الأكثر طهارة يجب أن يكونوا أسياداً للأرض، والأكثر استحالة على الإدراك والأقوى، أنفس منتصف الليل، التي هي أكثر نوراً وعمقاً من أي نهار.

يا أيها النهار، إنك تتعقبني بخطواتك الثقيلة؟ وتمد يديك لتأخذ مني سعادتي؟ فأنت تراني غنياً ومنعزلاً، وبالنسبة لك أنا كنز وخزنة مجوهرات؟

يا أيها العالم، إنك تريدني؟ فهل أنا بالنسبة لك جزء منك؟ وهل أنا متدين؟ وهل أنا إلهيٌّ؟ ولكنكما، أيها النهار وأيها العالم، شديدا الفظاظة، امتلكا أيدي أكثر مهارة، ومدوهم نحو مصيبة أعمق، مدوهم إلى إله ما، ولكن لا تمدوهم إلي.

- إن مأساتي وسعادتي عميقتان، يا أيها النهار البديع، ورغم ذلك فأنا لست رباً ولا جحيماً ربانياً. إن هذا العمق هو شجن العالم.



إن شجن الرب أعمق، يا أيها العالم البديع! فمد يديك نحو شجن الرب وليس نحوي! فمن أنا! إنني قيثارة حلوة الصوت سكرانة.

ـ قيثارة منتصف الليل، صوت الناقوس الذي لا يفهمه أحد، والذي على الرغم من ذلك عليه التكلم أمام الصم، يا أيها الناس الأعلون! إذ إنكم لا تفهمونني!

قد تحقق! تحقق! يا أيها الشباب! يا وقت الظهيرة! يا أيها الزمن بعد وقت الظهيرة! الآن جاء المساء والليل ومنتصف الليل، والكلب ينوح، والرياح؟

ـ أليست الرياح كلباً؟ إنه ينبح وينوح، آه! آه! آه! يا لتنهده ويا لضحكته ويا لبحته وتأوهه، منتصف الليل هذا!

يا لكلامه الرشيد في هذه اللحظة، هذا الحالم السكران! لا شك أنه تجاوز عتبة السكر وأصبح حيوياً للغاية؟ أهو قلق؟

ـ إنه يعاني من حزنه وشجنه في نومه، منتصف الليل العجوز العميق هذا، ويعاني أكثر من فرحه. الفرح عندما يصبح الحزن عميقاً، فالفرح أكثر عمقاً من الحزن.



أنت يا دالية العنب! علام تمدحينني! فأنا قطفتك! إنني قاسٍ، وأنت تنزفين دماً. فما الذي يريده مديحك، أيريد قسوتي السكرانة؟

"كل ما أصبح كاملاً، هو ناضج ويريد أن يموت!" ـ هكذا تقولين، فليبارك سكين زارع الكروم! ولكن كل ما هو ليس ناضجاً يريد أن يعيش، فيا للهول!

يقول الحزن: "اغرب! اختف أيها الحزن!" ولكن كل من يعاني يريد أن يعيش لينضج ويصبح سعيداً وممتلئاً بالرغبات.

ـ ممتلئاً بالرغبة فيما هو بعيد وأكثر علواً وأكثر نوراً. "إنني أريد وريثاً ـ هكذا يقول كل من يعاني ـ أنا أريد أولاداً، لا أريد نفسي".

بينما الفرح لا يريد ورثة ولا أولاد، الفرح يريد نفسه ويريد الخلود ويريد العودة ويريد أن يصبح كل شيء خالداً.

يقول الحزن: "انكسر، انزف دماً، أيها القلب! تحركا أيتها الرجلان! طيرا أيها الجناحان! إلى البعيد! إلى الأعلى أيها الحزن! " حسناً! فليكن! آه، يا قلبي العجوز، إن الحياة تدفع ظل الحزن!

١٠

يا أيها الأعلون! ما الذي تحمله قلوبكم الآن؟ فهل أنا عالم غيب؟ أم متنبئ؟ أم سكران؟ أم مفسر أحلام؟ أم ناقوس منتصف الليل؟

قطرة ندى؟ أم تبخر وأريج الخلود؟ أيعقل أنكم لا تسمعون؟ ألا تشعرون؟ فعالمي الآن أصبح كاملاً، منتصف الليل.. إنه وقت الظهيرة نفسه.

فالحزن هو كذلك فرح، واللعنة هي أيضاً بركة، والليل هو أيضاً شمس، فاذهبوا! أم أنكم ستتعلمون، فالحكيم هو نفسه المجنون.

هل أقررتم في يوم ما الفرح يا أصدقائي؟ فإذاً أقررتم كذلك الحزن. فكل شيء متصل ومتشابك ومختلط، وكل شيء واقع في غرام الآخر.

ـ هل أردت في يوم ما أن تعيش اللحظة مرتين، وهل قلت يوماً: "أنتِ تعجبينني، أيتها السعادة! أيتها اللحظة!"؟ هكذا أردتم أن يعود كل شيء!

ـ كل شيء من جديد، كل شيء خالد، كل شيء متشابك، كل شيء متصل. كل الأشياء تعشق بعضها بعضاً، آه، لهذه الدرجة أحببتم العالم.

ـ أنتم، أيها الخالدون، تحبون العالم دائماً وفي جميع الأزمان، وتقولون للحزن: اذهب، ولكن عد ثانية! إذ إن السعادة تتوق إلى اليوم الخالد!

١١

كل فرح يريد الخلود لجميع الأشياء، يريد العسل ويريد الخميرة، يريد منتصف ليل سكران، يريد القبور، يريد دموع العزاء على القبور، يريد فجراً ذهبياً خالداً.

ـ فما الذي لا يريده الفرح! إنه الأكثر تشوقاً، والأكثر رفقاً وإخلاصاً، والأكثر جشعاً، والأكثر رعباً، والأكثر غموضاً من أي حزن، إنه يريد ذاته، إنه يَعُضُّ نفسه، فإرادة الحلقة تتصارع في داخله.

ـ إنه يريد الحب ويريد الكراهية، إنه غني غنى فاحشاً، إنه يهدي ويرفض ويطلب التصدق عليه وأن يأخذه أحد معه، ويشكر الآخذ، وكان يتمنى لو يكرهونه.

ـ إن الفرح غني لدرجة أنه بات يتمنى الحزن والشر والكراهية والعار والقبح والعالم، إذ إن هذا العالم، آه، لا شك أنكم تعرفونه!

أيها الناس الأعلون، يتوق الفرح إليكم، المغتبط والجامح، إنه يتوق إلى حزنكم، أيها الفاشلون! فكل فرح خالد يتوق إلى كل ما هو فاشل. إذ إن كل فرح يريد نفسه، ولهذا يريد عذاب القلب! يا للسعادة، يا للحزن!

يا أيها القلب، انكسر! تعلموا أيها الناس الأعلون، فالفرح يريد الخلود.

ـ الفرح يريد خلود جميع الأشياء، إنه يندفع إلى اليوم المنتظر الخالد!

١٢

فهل تعلمتم أغنيتي الآن؟ وهل عرفتم ما تريده؟ حسناً! ليكن! يا أيها الناس الأعلون، غنوا لي الآن أغنيتي سوية!

غنوا لي الآن تلك الأنشودة التي تدعى: "مرة أخرى"، ومغزاها هو: "إلى أبد الآبدين!" ـ غنوا سوية، أيها الناس الأعلون، أغنية زرادشت!

يا أيها الصديق، تفطن!
إلى الذي يقوله منتصف الليل انصت!
"كان النوم طويلاً
كان النوم عميقاً وقد ذهب الآن
العالم عمق
عمق بالكاد يراه النهار
عمق هو شجن العالم
ولكن الفرح أعمق منه
الحياة تطارد ظل الشجن!
والفرح يتوق إلى اليوم الخالد
اليوم الأبدي المنتظر!"

الفأل

في الصباح الذي تلا هذه الليلة قفز زرادشت من فراشه وطوق خصره وخرج من مغارته مشرقاً وقوياً كشمس الصباح التي تشرق من وراء الجبال القاتمة.

"يا أيتها النجمة العظيمة - قال كما قال مرة من قبل - أنتِ يا عين السعادة العميقة، بم كانت ستتلخص سعادتك، لو لم يكن لديك من تنيرين لهم!

ولو أنهم بقوا في بيوتهم، في حين أنك استيقظتِ وذهبتِ لتهبيهم وتهديهم نورك، فكم كان سيستاء خجلكِ المعتز لذلك!

حسناً! ما زالوا نائمين، هؤلاء الناس الأعلون، في حين أنني قد استيقظت. إنهم ليسوا أتباعي الحقيقيين! وليسوا هم من أنتظرهم هنا في جبالي.

إنني أريد أن أبدأ عملي وأبدأ يومي، ولكنهم لا يفهمون ما هي فؤول صباحي، وخطواتي لا تعني بالنسبة لهم دعوة للاستيقاظ.

إنهم ما زالوا نائمين في مغارتي، ونومهم ما زال يثمل من أغاني الحماسية، تنقصني الآذان التي تصغي إلي، والآذان التي تسمعني وتطيعني".

قال زرادشت ذلك في نفسه، في حين كانت الشمس تشرق، وعندها نظر متسائلاً إلى السماء، إذ إنه سمع فوق رأسه صرخة نسره الحادة. "حسناً! - صاح للأعلى - هذا يعجبني، هذا يناسبني، لقد استيقظت حيواناتي الحقيقية، وأنا أحبكم. ولكن ما زال ينقصني الناس الحقيقيون!".

هكذا قال زرادشت، ولكن حدث أنه شعر فجأة بأنه محاط بعدد هائل من الطيور، التي كانت تحوم حوله، وكان ضجيج أجنحتها والزحام فوق رأسه هائلين، لدرجة أنهما دفعاه لإغماض عينيه. وحقاً، وكأنما نزلت عليه غيمة من السهام، التي تساقطت على العدو الجديد. ولكنها كانت غيمة محبة نزلت على صديق جديد.

"ما الذي أصابني؟ - فكر زرادشت مندهشاً في سره وجلس متباطئاً على حجر كبير، متوضع عند مدخل المغارة. وخلال محاولته حماية نفسه من محبة الطيور وتلويحه بيديه من حوله

وفوق رأسه، حدث معه أمر أكثر دهشة، إذ إنه أمسك فجأة بلبدة شعثاء ودافئة وكثيفة، وفي نفس اللحظة سُمِعَ إلى جانبه زئير، كان زئيراً وديعاً ومطولاً أطلقه أسد.

"يقترب الفأل" ـ قال زرادشت وتغير قلبه. وبالفعل عندما سطع النور من حوله، رأى عند قدميه حيواناً ضخماً أصفر اللون، كان مستلقياً وهو يضم رأسه إلى ركبتي زرادشت، ومن شدة محبته كان عازفاً عن فراقه وأصبح أشبه بالكلب الذي وجد مالكه القديم. كذلك لم يقِل إصرار الحمام عن التعبير عن محبتهم، وفي كل مرة كانت الحمامة ترفرف أمام أنف الأسد، كان الأسد يهز رأسه مندهشاً وهو يضحك.

ولدى رؤية زرادشت لهذا لم يتلفظ إلا بكلمة واحدة: "يا أولادي، إن الساعة تقترب" ثم غرق في صمت تام. ولكن قلبه سلا، ومن عينيه جرى الدمع وتساقط على يديه. بينما هو لم يعر اهتمامه لشيء وبقي جالساً بلا حراك، ولم يعد يحمي نفسه من الحيوانات. وكان الحمام قد غادر ثم عاد من جديد، وجلس على كتفي زرادشت وداعب شعره الشائب، ولم يتعب من رقته وغبطته. والأسد الجبار كان لا يتوقف عن لثم الدموع المتساقطة على يدي زرادشت، وكان يزأر بوجل أثناء ذلك.

هكذا تصرفت هذه الحيوانات.

استمر ذلك الأمر فترة طويلة أو قصيرة، لأنه في الحقيقة لا وجود للزمن بالنسبة لأمور كهذه، وفي تلك الأثناء استيقظ الناس الأعلون في مغارة زرادشت وشكلوا موكباً ليتجهوا للقاء زرادشت وليحيوه تحية صباحية، إذ إنهم عندما استيقظوا لاحظوا أنه ليس موجوداً معهم، ولكنهم عندما اقتربوا من مخرج المغارة، وكانت تسبقهم أصوات خطواتهم، أرهف الأسد سمعه بغضب، وأدار رأسه عن زرادشت، ووثب نحو المغارة هو يزأر بشراسة، وصاح الناس الأعلون صيحة واحدة لدى سماعهم لزئيره، وعادوا يركضون إلى الداخل، واختفوا في غمضة عين.

أما زرادشت فقد نهض مصعوقاً مذهولاً، وتلفت مندهشاً، وسأل قلبه وفكر وبقي وحيداً. "ما الذي سمعته؟ ـ قال ببطء أخيراً ـ ما الذي حل بي الآن؟".

وها قد عادت إليه الذكرى، وأدرك في لحظة كل ما حدث ما بين البارحة واليوم.

"هذا هو الحجر ـ قال وهو يمسد لحيته ـ الذي جلست عليه في صباح البارحة، وهنا قَدِمَ الكاهن إلي، وهنا سمعت لأول مرة الصرخة التي سمعتها للتو، صرخة عظيمة ترجو النجدة.

آه، أيها الناس الأعلون، فقد حدثني الكاهن العجوز البارحة حول مساعدتكم، قد أراد إغوائي وتضليلي من خلال مساعدتكم!

"آه، يا زرادشت - قال لي - إنني أسير لأدخلك في إثمك الأخير".

"في إثمي الأخير؟ - صاح زرادشت وهو يضحك غاضباً من كلماته - فما الذي تُرك لي غير إثمي الأخير؟"

وعاد زرادشت من جديد للغوص في أعماق نفسه، فجلس ثانية فوق الحجر الكبير وأخذ يفكر، وفجأة قفز من مكانه. "الرأفة! الرأفة تجاه الإنسان الأسمى! - صاح وأصبح وجهه كالنحاس - حسناً! كان لهذا الأمر وقته!

معاناتي ورأفتي، حسناً! فهل أسعى إلى السعادة؟ إنني أبحث عن واجبي!

وها قد أتى الأسد، اقتربت الساعة يا أولادي، قد نضج زرادشت، وجاءت ساعتي.

إنه صباحي، ينبثق يومي. فانهض، انهض، يا وقت الظهيرة العظيم!"

قال زرادشت ذلك وغادر مغارته، وهو مشرق وقوي، كشمس الصباح التي تشرق من وراء الجبال القاتمة.

النهاية.

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

الجزء الرابع والأخير